محمد طارق

وحدي بين الظل والظلام

رواية

تشكيل

ساحر الكتب

تَشكِيل للنَشر والتَوزيع

Email publish@tashkeel- publishing.com
Website www.tashkeel-publishing.com
Mobile 201006250473 FB/Tashkeeel

I.S.B.N : 978-977-9604-15-2

رقم الإيداع : 2025/3176

تصميم الغلاف: أحمد فرج

المراجعة اللغوية: آية كارم

الإخراج الفني: يوسف الفرماوي

المدير العام : سيد شعبان

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

الإهداء

لابنتي المستقبلية..

حين تتعلمين القراءة وتقرأين هذه الأسطر، تأكّدي أنني ما زلت أسعى وأجاهد لأكون الأب المثالي الذي سـ تريدينه، حين تتعلمين القراءة وتقرأين هذه الأسطر تأكدي أنني بدأت رحلة سعي لأكون أبًا مثاليًا لك قبل وجودك في الحياة بسنوات، أريد أن تحتضنكِ كلماتي هذه وتطمئن قلبك أنني أفكر فيك دائمًا حتى قبل أن أراك، وأسعى لـتوفير كل ما لم يخطر على بالك حتى تتفاخرين بي، حتى تشعرين بوجودي الدائم، حتى لا تحتاجين لـ حب العالم، فالعالم قد يؤذيك لكن تأكدي أنني أجاهد لأصنع لك عائلة لن تؤذيك أبدًا..

أتمنى أن أكون الشخص المثالي الذي يحتضنك ويطمئن خوفك ويسعى دائمًا لإرضائك وسعادتك.. دائمًا وحتى أيامي الأخيرة معك.

تنبيه هام

لا يُنصح بقراءة هذه الرواية لـ مرضى القلب والقولون والضغط ومصابي الاكتئاب والأمراض النفسية المستعصية، كما يُفضّل تجنُّب قراءة الرواية أثناء مراحل التعافي من الصدمات النفسية، الاضطرابات، أو العلاقات السامة، ومصابي الحِس المُرهَف، وأولئك الذين يركّزون في أدق التفاصيل..

تنويه

الكاتب غير مسؤول عن أيّة انتكاسة نفسية قد تحدث للقارئ بعد قراءتها.

شكرًا لتفهمكم.

المقدمة

كل المقدمات جميلة، كل البدايات رائعة، كل كابوس مزعج كان بدايته حلم رائع، كل قصة وجع عظيم كانت بدايتها قصة عاطفية ملهمة، وكل خيبة كانت بدايتها أمل عظيم، كل كلمة افتقاد كانت بدايتها اشتياق، حتى كلمة لا أستطيع كانت بدايتها أستطيع، وكل عدم وصول كانت بدايته رغبة حقيقة في النجاح والوصول..

كل البدايات كاذبة، كل المقدمات خادعة، لذلك لن أكتب لكم مقدمة في هذه الرواية..

اقلب الصفحة.

الفصل الأول

سيداتي سادتي..

من مسرح حديقة الأزبكية بالقاهرة، من بقعة تقع في قلب القاهرة، نلتقي الليلة حول قاهرة القلوب، أحس الليلة أنني أخاطب كل من يعيش فوق الأرض العربية من الشمال إلى الجنوب.. من الشرق إلى الغرب، أحس أن الليلة كل من يعِش في أرض العرب على موعد مع القاهرة، فهو الليلة مع موعد مع أم كلثوم وعبد الوهاب، وأم كلثوم وعبد الوهاب في كل شبر من أرض عربية أكاد أحس بهما الليلة في الصحاري الشاسعة، فوق الجبال، في كل مكان وفي كل مدينة وفي كل قرية من الأرض العربية، وأننا الليلة لن نستمع إلى أم كلثوم في أغنية ولا لعبد الوهاب في لحن، لكننا نستمع إليهما ولكل منهما تراث عتيق وعشرات من سنين الكفاح وبذل الجهد في سبيل إسعاد الملايين، فمن حق العالم الآن أن يترقّب هذا اللقاء التاريخي الذي يجمع العملاقين يطلان علينا بأغنية جديدة والتي نظن أنها ستعيش معنا إلى الأبد "أنت عمري" تقول كلمات الأغنية:

"رجعوني عينيك لأيامي اللي راحوا

علّموني أندم على الماضي وجراحه

اللي شوفته قبل ما تشوفك عينيا

عمر ضايع يحسبوه ازاي عليا؟"

والآن نستمع بثبات وهدوء خطوات كوكب الشرق أم كلثوم وهي تصعد برفقة الملحن الكبير عبد الوهاب.. يصعدان المسرح لليلة

تاريخية ينتظرها العالم؛ لنقضي معًا سهرة ممتعة..

***

ماجد عبد المنصف

صيف الإسكندرية 2019 | بحري

الصيف هو بهجة الباعة الجائلين في مدينة الثغر، يتجه المصيفين للتنزه وتخفيف حرارة الجو عن طريق قضاء أغلب الوقت على الشاطئ. في حارة السيالة في بحري، بيت بسيط يقوده شاب في التاسعة عشر من العمر، وحيدًا يقود منزلًا ويعول عجوزًا وإخوته الثلاثة..

أختين، الأولى هي أميرة، مشتتة، تتأرجح بين ما يرغبه قلبها وما يرفضه عقلها، مزيج ما بين التقوى والإيمان، الخير والشر، العاطفة والعقل، الحب والقسوة، الثانية هي منار، صغيرتهم المتمردة التي تحلم وتأمل دائمًا بحياة مختلفة بعيدًا عن الفقر والجوع، لطالما كان هذا يمثل صداعًا في واقعية ماجد لكنه لم يرد قص أجنحة أحلامها، أما أمير فـ هو المراهق المزعج، الذي يسير حسب أهوائه الشخصية وأصدقاء السوء.

يحمل ماجد على عاتقه توفير كل متطلباتهم المادية، في زمن اشتدت فيه الحياة على الغني قبل الفقير..

يافع بملامح بنية نتيجة لآثار شمس الإسكندرية الحارقة، يحمل حقيبة تحمل العطور الرخيصة، على المقاهي يتردد، ويعرف تلك المطاعم التي تستقبل المصيفين، يعرض عليهم منتجاته، من بين

كل عشرة زبائن تعبس في وجهه، وآخرين يتجاهلونه، واحد فقط قد يستجيب ويستمع له. وفي تلك الليلة لم يكن يعلم ماجد أن الشخص الوحيد الذي استجاب له.. لم يستجب لعرضه للعطور بل استجاب لنداء قلبه، في زحام الصيف وتوافد المصيفين على مدينة الإسكندرية، كان رحالًا يبحث عن رزقه بين الزحام، دخل أحد المقاهي الكلاسيكية ذات الطابع اليوناني المعروف في مدينة الإسكندرية أرض الحب والميعاد، لم يستجب له إلا امرأة أربعينية يبدو أنها شعرت بالملل فنادته حتى يكسر مللها، ذاك الملل الذي يجعلها لا تمانع في الاستماع لشاب يعرض منتجات رخيصة، أعجبت السيدة بأسلوب الشاب المتحمس للعرض، واصل الشاب متحمسًا عرض السيدة المرموقة، وأثناء العرض لاحظ فتاة في غاية الجمال تقترب من طاولة السيدة..

- هاي ماما، أتأخرت عليكِ؟

ابتسمت الأم ثم أذنت لها بالجلوس.

الحب من أول نظرة؟

يؤمن به كل الإيمان، وإيمانه نابع من ولعه الشخصي بالقراءة الفلسفية والعاطفية، لطالما قرأ عن الحب من أول نظرة وتمنّى لو يكتب له، وقد شعر في هذه اللحظة تحديدًا أن قلبه ينبض، استعاد المسكين نفسه ثم واصل عرض المنتجات، بينما انجذبت مرام لطريقته وبدأت في الانتباه له، وفي الأخير شكرته السيدة وأخبرته أنها تملك كل هذه الأنواع لكن الأصلية منها، ابتسم ماجد لها ثم بدأ في ترتيب حقيبته بخيبة أمل، حتى قالت الفتاة:

- من فضلك أعطني عبوتين "ديور".

ابتسم ماجد ابتسامة رضا وبدأ في شرح مكوناتها وخلافه، ضحكت الأم:

- هذه ديور إنتاج شارع خالد بن الوليد.

ضحك الثلاثة ثم قال ماجد وهو يعطي العبوتين للفتاة:

- لكنني أعدك أن أثرها الطيب سيدوم لأطول فترة ممكنة ولن يمر عليك مرور الكرام أبدًا..

هزت الفتاة كتفيها:

- اتمنى..

- ثقي بي.

فجأة رن الهاتف فنهضت السيدة وسحبت الفتاة في يديها، وفي لمح البصر اختفى الاثنتان وكأنه كان يتحدث مع أشباح..

ظل للحظات لا يستوعب ما حدث، حتى إنهما لم يدفعا قيمة العبوتين، لقد اختفيا عن النظر بطريقة غريبة، رتّب حقيبته من جديد وقبل أن يغادر الطاولة، رأى حقيبة الفتاة على الكرسي، اختلس نظراته يمينًا ويسارًا ثم أخذها وواصل وجهته بحثًا عن الرزق..

واصل يومه الطبيعي حتى عاد إلى المنزل، وما إن وصل غرفته المتواضعة حتى فتح الحقيبة، بطاقة عضوية في نادي الجزيرة، بطاقتها الشخصية، رخصة قيادة، مستحضرات تجميل، مفتاح غرفتها في فندق سان جيوفاني، بضعة أموال، كارت الفيزا، هاتف

أحدث إصدار، علبة سجائر، شعر أن علبة السجائر ثقيلة أكثر من المعتاد، ففتحها وهنا كانت صدمته الأولى..

تذكرة هيروين!

ظل ثوان حتى استوعب أن هذه الجميلة البريئة تحمل في حقيبتها تذكرة الهيروين..

رن الهاتف..

- لن تستطيع الإفلات..

قال بصوت خائف:

- لم أسرقها، لقد وجدتها فقط، أنا مستعد للذهاب إليكِ أينما كنتِ.

ردت الفتاة غاضبة:

- سأنتظرك أمام فندق سان جيوفاني، أمامك أقل من عشر دقائق وإلا سأصل إليك ولو كنت في مخبأ تحت الارض..

رد ماجد:

- أخبرتكِ أنني لم أسرقها وإلا لما رددتُ عليكِ من الأساس، دقائق وسأصل إليكِ..

أوقف أول ميكروباص أمامه من بحري متجهًا إلى ستانلي حتى يُسلّم الأمانة، اتصلت به لتسأله إن كان تحرّك أم لا، فبلّغها أنه في الطريق إليها، أخبرته أنها تنتظره ثم انتهت المكالمة، ظل لثوانٍ شاردًا في بداية علاقة مثالية تنتظره رغم ما رأى في الحقيبة، لكن ما كان ينتظره عند إشارة سيدي جابر ليس مثاليًا أبدًا، توقّف الميكروباص

فجأة، فتح الباب رجل شرطة ذو شارب غليظ وكف يد، وكأنه يرتدي حذاء مقاس 46 في يديه، ظل يتأمل الركاب لثوانٍ ثم أشار لماجد بكلماته الروتينية المعتادة:

- بطاقتك؟

أخرجها ماجد بتوتر شديد جدًا، فهذه المرة الأولى التي يتعرّض فيها لمثل هذا الموقف، فلاحظ أمين الشرطة توتره فتمعّن أكثر فيه وهو يمسك البطاقة، ثم لاحظ الحقيبة النسائية التي يضعها ماجد على فخديه، فسأله:

- حقيبة مَن هذه؟

تردّد ماجد، فقال الأمين آمرًا:

- انزل.

ثم أشار للميكروباص بالانطلاق..

بدأ أمين الشرطة في تفتيش ماجد الذي كان يرتجف، هنا اقترب ضابط الشرطة وبدأ في سؤال ماجد عن عنوانه ووجهته وخلافه، ثم أمر أمين الشرطة بتفتيش الحقيبة ومحتوياتها، بينما ظل الضابط يسأل ماجد عن الشنطة..

أبلغه بالموقف الذي حدث معه، لم يقتنع الضابط بل بدأ في السخرية:

- حرامي شنَط!

فجأة قال أمين الشرطة الذي فتّش علبة السجائر:

- وجدنا هذه التذكرة يا سعادة الباشا.

- أهلًا وسهلًا.. حرامي شنط وتاجر هيروين..

فجأة انهال كل من كان في الكمين عليه بالضرب المبرح، ثم ألقوا به في سيارة الشرطة..

دقائق معدودة حتى غطّت الدماء وجه ماجد الذي حاول تبرير نفسه لكن دون جدوى، انطلقت السيارة في لحظات ربما هي الأثقل عليه، بين كلمات "لن ترى الأسفلت مرة أخرى"، وتوعّدات بجحيم ينتظره في القسم ولكمات أخرى، كان قسم باب شرق في انتظاره، ما إن دخل حتى أمر الضابط بإلقائه في الحجز المنفرد لحين إشعار آخر..

تحوّلت البداية المثالية للشاب المسكين.. إلى نهاية حياته بتهمة سرقة وحيازة مخدرات، وانقلبت الحياة الوردية التي كان يأمل فيها.. إلى حياة جحيم وسجن وتهمة لم يتخيلها في أسوأ كوابيسه، ذاك الذي لم يدخل القسم إلا مرة واحد يوم قدّم على أوراق بطاقته الشخصية، نصف ساعة انهالت عليه كل الأفكار السوداوية الحزينة، ماذا سيحدث لإخوته اللذين يتكفّل بهما، كيف سيعيشون حياتهم وكيف سيتولّون أمرهم؟ ماذا سيحدث لأمه فور سماعها الخبر! ربما لن تتحمل الخبر وقد يصيبها مكروه..

نوبة بكاء تجتاح قلب ماجد المسكين ومعها يُردّد:

"فدعا ربه أنّي مَغلوبٌ فانتصر"..

"فدعا ربه أنّي مَغلوبٌ فانتصر"..

والكثير من الآيات والأدعية الدينية التي حفّظتها له أمه في طفولته..

ثلاثون دقيقة وأنت لا تعلم مصيرك.. ستمر عليك وكأنها ثلاثون عامًا، طويلة جدًا..

فجأة.. فتح أمين الشرطة باب الحجز ثم سحب ماجد من بنطاله:

- تعالى.. الباشا يريدك.

دخل ماجد مرتجفًا للضابط الذي جهّز الورقة والقلم ثم بدأ في سؤال ماجد عن الحقيبة، وتفاصيل ما حدث، لم تتغير أقوال ماجد الذي أقسم للضابط أن هذا ما حدث بالضبط، فجأة رن هاتف مرام الذي كان في الحقيبة..

أمسك الضابط الهاتف ثم قال:

- هذه شريكتك بالتأكيد.

قال ماجد وهو يبكي:

- هذه صاحبة الحقيبة!

- التي سرقتها؟

أقسَم مرة أخرى أنه لم يسرقها..

رد الضابط وقال:

- لقد وجدتُ هذه الحقيبة مُلقاة عند إشارة سيدي جابر..

ردّت مرام:

- ملقاة! كيف! حسنًا أنا قادمة إليك.

رد الضابط:

- سأنتظرك.. اطمئني.

أخذ الضابط ماجد إلى السيارة ومعه رجلَيّ شرطة ثم انطلق إلى سيدي جابر مرة أخرى..

بعد دقائق معدودة وصل الاثنان إلى إشارة سيدي جابر، وهناك خرج الضابط منفردًا إليها بعدما أخبرته أين تقف بالضبط..

ثم فجأة وعلى اللاسلكي أمَر السائق بالقدوم إلى شارع المشير، فانطلق السائق ومعه مرام التي كانت تصرخ:

- أنا مرام توفيق، أبي سيُجازيك على كل ما قمتَ به..

ركبت مرام السيارة، في هذه اللحظات كانت تتوعد للضابط بما ينتظره، بينما جلس ماجد الذي لا حيله له في حالة صمت تام..

وصل الاثنان إلى قسم باب شرق..

"الدِّيت المناسب في المكان المناسب!"

ظل ماجد يضحك على أفكاره التي بدأت بقصة حب أسطورية من نظرة واحدة، وانتهى بهما الأمر ليجتمعا لأول مرة في قسم شرق المدينة..

لحظات الغضب والثورة التي تقوم بها ما هي إلا لإخفاء خوف عميق جدًا، هذه كانت أبرز صفاتها حين تخاف.. لا تجد إلا الغضب والثورة طريقًا للتعبير عن مشاعرها، صحيح أنها ما زالت في

منتصف مراهقتها، إلا أن من طريقتها في التعامل مع الضابط تشعر وكأنك أمام امرأة في منتصف العمر..

- ماذا وجدوا معك؟

سألته وهي تبكي..

- ما تُخبِّئينه في علبة السجائر.

تنهدت مرام ثم قالت:

- نحن في ورطة، لكن لا تقلق سأتكفّل بالأمر.

دقائق ودخل الضابط، وقبل أن يبدأ التحقيق الأول طلبت من الضابط الاتصال بوالدها لتخبره بمكانها، رفض الضابط في البداية لكنها تحدثت بنبرة أكثر حدّة:

- أنا أعرف القانون جيدًا.. لا يمكنك احتجازي أو أن تبدأ تحقيقًا معي إلا بعد إبلاغ عائلتي بمكاني.

لم يجد الضابط مخرجًا إلا الموافقة على طلبها..

- لنبدأ الآن.

وبدأ التحقيق المبدئي..

في التحقيقات لم تتغير أقوال ماجد متبرّأً من الحقيبة بكل محتوياتها، بينما ظلت مرام في حالة صمت تام؛ رافضة إدلاء أيّة أقول حتى يأتي والدها، حاول الضابط إجبارها على التحدُّث لكنها التزمت الصمت، كان الخوف واضحًا في عين ماجد منتظرًا أن تُدلي مرام بالحقيقة، لكنها ظلّت صامتة حتى طرق أمين الشرطة الباب

هامسًا في أذن الضابط بأمر ما..

على الفور خرج الضابط تاركًا مرام وماجد وحدهما في غرفة التحقيقات..

- لماذا لم تقولي أي شيء؟

- لا يمكنني التحدُّث إلا بعد اللجوء لوالدي..

- لكنك لا تحتاجين للاستعانة به..

ردت في هدوء تام:

- أنت لا تعرف شيئًا، لكن تأكّد أيًا كان ما سيحدث.. لن أتركك وحدك..

بعد خمس عشرة دقيقة عاد الضابط:

- مرام هانم أنا آسف على سوء التفاهم الذي حدث، ونأمل ألّا تكوني تعرّضتِ لمضايقات أزعجتكِ..

ثم وجّه أنظاره لماجد، وبدأ الأمين في الكتابة:

وقد أُلقي القبض على المتهم ماجد عبد المنصف في سيدي جابر، محل الإقامة بحري شارع السيالة، طالب في كلية الآداب، ثمانية عشر عامًا، وبحوزته ثلاثة جرامات من الكوكايين، في ساعته وتاريخه، وجاري تحويله للنيابة.

وفجأة سحبه الأمين من بنطاله وجرّه إلى الحجز، بينما كانت تتابعه وتبادله مرام نظرات الوداع..

لم يجد إلا الحائط يستند عليه، مسندًا رأسه المُحمّل بالخيبات والخوف، لقد أصبح مُتّهمًا بحيازة المخدرات، ضاع مستقبله الذي سعى ليحقّقه، السعي الذي جعله يلتحق بمعهد الفنون المسرحية بحثًا عن الشهرة والمال وهو الذي لم يكمل عامه الأول، ولأنه الأخ الأكبر فماذا ستفعل عائلته بعد غيابه؟ وما الحكم الذي سينتظره، ربما سيقضي حياته كلها سجين أربعة حيطان على جريمة لم يرتكبها! ماذا عن إخوته الذين ينتظرونه كل يوم عائدًا من عمله حتى يوفر لهم أبسط احتياجاتهم؟! وماذا عن أمه الضريرة التي لا تقوى على القيام بأبسط الأشياء، وأخته التي تصغره بعامين ماذا ينتظرها؟! لقد كان يحمل همها؛ خوفًا أن تندَس في بيئة خارجية.. أقل ما فيها تجارة المخدرات والدعارة. في هذه اللحظات كل السيناريوهات السوداوية الحزينة تقتحم رأسك وتنهال عليك، حتى إنك تفكر في الانتحار..

أعرف تلك اللحظة التي تنهال عليك كل الأفكار السوداوية، كل الحقائق التي كنتَ تخشى مواجهتها، وكل الأحداث المأساوية المستقبلية التي تتجنب التفكير فيها، تلك اللحظة التي تعترف فيها بينك وبين نفسك أنك تتحمل أكثر مما ينبغي، وأن المسؤوليات التي على عاتقك لا تناسب سنك وحياتك، لكنك مجبر على السعي لأنك قائد السفينة، القبطان الذي لا يمكنه القفز في الماء وتَرْك السفينة تغرق..

أعرف تلك اللحظة التي تنقلب الحياة فيها رأسًا على عقب، محت الدنيا كل ما خططتَ له ورسمتَه في خيالِك، كل الأحلام التي شيّدتّها.. انهارت فوق رأسك، كل الطرق التي تسعى فيها.. وضعتْ

أمامك حواجز لن تتخطاها مهما حاولْتَ، تلك اللحظة التي تُقرِّر الدنيا أن تطردك من السباق بلا سبب واضح، المؤسف أن تطردك بعدما تبدأ حياتك في الاستقرار، أقصد أن تشعر أنك قد أوشكت على الوصول إلى خط النهاية، فكلما اقتربت من ملامسة نجوم السماء.. انقلبت الدنيا عليك لتدفعك إلى سابع أرض!

أعرف تلك اللحظة التي يتحول العالم فيها إلى ألد أعدائك بلا سبب واضح غير أنك أردت أن تحلم..

أردت أن تحلم وهذا السبب وحده كافٍ لتهزمك الدنيا وتقف أمامك مُعلنة هزيمتك.. أنت الذي لا تريد منها إلّا السلام، أجبَرَتك على خوض المعركة، ثم قرَّرَت أن تهزمك فيها حتى قبل أن تعطي لك فرصة للدفاع عن نفسك..

لم يتجاوز الأمر ساعات معدودة حتى وجد ماجد نفسه مكبَل الأيدي أمام مُحقّق في مبنى النيابة، والتهمة؟ حيازة مخدرات..

ولأنه فقير لا يجد من يدافع عنه.. لم يجد إلا قلبه ولسانه يتحدثان ويحاولان تبرير موقفه، لكن القانون لا يؤخذ بالقلب وصدق النوايا، خلف القضبان يرى أمه وإخوته في حالة حزن وانهيار.. لحظات معدودة وعاد القاضي بعد المداولة لينطق حكم المحكمة..

الفصل الثاني

في قانون السجن "إن لم تستطع محاربتهم فأنضم إليهم" هذا القانون يجعل السجن أشبه بساحة معركة يتواجد فيها عشرات الجيوش.. كل منهم يحارب بضراوة عن أهدافه، وقادة كل مجموعة بإمكانهم تحطيم وتدمير كل شيء للفوز بالغنائم، والغنائم في السجن بسيطة بالنسبة للعالم الخارجي، لكنها ثمينة بالنسبة لعالمهم.. فقد ينالون منك للفوز بسرير مريح، أو دور متقدم في دورة المياه، والحفاظ على وجبة الغداء وسجائرك الخاصة قد يحتاج منك معركة عتيدة، لذلك عليك أن تُظهِر أنيابك ومخالبك بشكل دائم وإلا أصبحت فريسة سهلة لكل مفترس ينام بجوارك. السجن هو التجسيد الحي للمفهوم الإنساني والرجل البدائي، فهنا كل منا مشغول بمتطلباته البسيطة وكيفية الفوز بها والحفاظ عليها، لذلك كل شيء مباح، وأحد أكثر الأشياء إباحة في هذا العالم القاسي هو أن تكون الطرف المسالم الضعيف..

ثلاث سنوات بالتمام والكمال قضاها ماجد.. الذي دخله وهو شاب في الثامنة عشر من العمر، وسيخرج منه وهو ابن الثلاثة وعشرين، في عامه الأول اختفت أخبار والدته وإخوته..

حاول ماجد التواصل معهم بشتى الطرق لكنه لم يعثر لهم على مكان أو خبر، بل إن بعض الجيران أنكروا وجودهم من الأساس في هذا المكان من قبل، كان الأمر جنونيًا بالنسبة لماجد، كيف لحي كامل أن يتبرأ من عائلته! وكيف لهم أن ينكروا حتى وجودهم في هذا الحي، الوحيد الذي كان على تواصل معه هو "السامبو" صديق

عمره، الذي اعتاد على زيارته، السامبو هو صديق عمره والوحيد الذي لم يقطع أسبوعًا إلا وجاء لزيارته، وقد كان ذراع ماجد في العالم الخارجي، لكنه أيضًا فوجئ باختفاء عائلة ماجد بشكل كامل، وظل كل هذه السنوات يبحث عنهم لكن دون جدوى..

في المطبخ وأثناء تناول الغداء وحين علم ماجد أن مدته المتبقية في هذا السجن لا تتجاوز الثلاثة أشهر، لم يجد نفسه إلا وهو يتذكر كل ما حدث معه..

ثلاث سنوات بالتمام والكمال، كيف تغيّر بي الحال بهذه الطريقة، أنا المُسَالم اللطيف الذي كنت أتجنب الصدام ومشاجرة الآخرين أصبحت عدوانيًا، أبادر بالخناق وفرض السيطرة على الجميع، دعك من القراءة والفلسفة.. هنا للذراع القوي الكلمة الأولى والوحيدة القاطعة والناهية في كل شيء، حين دخلت هنا كنت طفلًا بريئًا مسالمًا، أصغرهم سنًا وأقلهم خبرة في الحياة، لم أتشاجر مع أحد طوال حياتي..

قضيت أيامي الأولى في حالة صمت وبكاء دائم، حتى إنني كنت مصدرًا للهُزء والسخرية في العنبر، كنت أعتبر نفسي خادمًا لهم بعيدًا عن أشغالي الشاقة في السجن، كنت أنا من يغسل ملابس سجناء العنبر، يُرتّب أسِرّتهم، ينظف أماكنهم، وهذا ليس لأنني أحب القيام بمثل هذه الأشياء بل لأنني كنت لا أملك أيّة رفاهية للاختيار أو الرفض وإلا سينال الجميع مني، فَرض القوة والسيطرة، وحين يشعرون بالفراغ يبدأون في ضربي من باب التسلية..

قضيت عامًا كاملًا تحت رحمتهم، وذات يوم وأثناء محاولاتي

للقراءة بعدما رَفَضَت إدارة السجن مواصلة تعليمي.. خطف مني الكتاب أحد السجناء المشاغبين يُدعَى "الوزيري"، وقسمه نصفين ثم صرخ في وجهي ثم سحبني من على السرير وسحلني على الأرض، ثم بدأ في التعدّي جنسيًا عليّ، من شدة ضعفي لم أملك إلا الصراخ أدافع به عن نفسي، بينما كان يقف السجناء في دائرة يضحكون عليّ والوزيري يحاول التعدّي عليّ جنسيًا، ولم يستجب لصراخي إلا "عنتر الوحش".. كان شابًا في منتصف العشرينات لكنه ابن عائلة الوحش، وما أدراك ما عائلة الوحش، عائلة كبيرة ذات سجل متنوع ما بين طبقة مرموقة في المجتمع وطبقة أخرى فقيرة، وبينهم الأطباء والمهندسين والسجناء. دخل الوحش بينهم ثم أمسك بـ الوزيري وانهال عليه باللكمات..

- إياك والنجاسة يا نجس.. إلا النجاسة يا نجس.

ظل يلكمه في وجه بلا رحمة، ثم صرخ في وجه السجناء:

- من الآن وحسب ماجد تحت سلطتي وانضم لعشيرتي، وأي شخص سيحاول المساس به أو الاقتراب منه.. يعني أنه اقترب من أحد رجالي، وأنتم تعرفون ضريبة الاقتراب من رجالي.

تدخّل رجال الأمن أخيرًا وأرسلوا الاثنين إلى التهذيب..

دعني أقول إنه أنقذني في اللحظة الأخيرة، فقد كان الوزيري قاب قاسين أو أدنى من فرض السيطرة الكاملة..

بعد نهاية اليوم الأول من التهذيب، اقتربتُ من سرير عنتر الوحش..

- شكرًا على كل ما قمت به معي.

- لا عليك.. أنت هنا في السجن.. والسجن يعني أن تقاتل حتى تحصل على حقوقك.. المهم أنني لن أسمح لأي شخص أن يتعدّى عليك، وفي المقابل ستكون مدين لي بخدمة..

سألته عن الخدمة فقال:

- لندع القَدَر يختارها.

- وأنا أعدك.. سأنفّذها لك ولو كانت روحي..

ابتسم ثم اعطاني سيجارة:

- أتمنى ذلك.

منذ هذه اللحظة تغيّرت حياتي بشكل كامل في السجن، لم أعد ذاك الشخص المهزوز الضعيف مسلوب الإرادة والشخصية أصبحت شخصًا محاطًا بأشخاص أقوياء جدًا، وأن تعاشر الأقوياء ذاك يعني أنك ستكتسب بعض صفات القوة منهم، وأنت لا تكتشف هذه القوة إلا بعد أن تختبرك الدنيا.

في إحدى الليالي كنتُ أتناول الغداء، وفجأة اصطدم عن غير قصد أحد السجناء بي، لم أتمالك نفسي إلا وانا ألكمه وأركله بكل عدوانية حتى أغرقته في دمائه، هنا شعرث أنني تغيّرث، أصبحت أشعر للمرة الأولى في حياتي بالقوة حد الافتراء على أي شخص يحاول الاقتراب مني، استدعاني الضابط للتحقيق، وقبل دخولي إلى المكتب جاء عنتر قائلًا:

- شكرًا على كل ما قمت به معي.

- لا عليك.. أنت هنا في السجن.. والسجن يعني أن تقاتل حتى تحصل على حقوقك.. المهم أنني لن أسمح لأي شخص أن يتعدّى عليك، وفي المقابل ستكون مدين لي بخدمة..

سألته عن الخدمة فقال:

- لندع القَدَر يختارها.

- وأنا أعدك.. سأنفّذها لك ولو كانت روحي..

ابتسم ثم اعطاني سيجارة:

- أتمنى ذلك.

منذ هذه اللحظة تغيّرت حياتي بشكل كامل في السجن، لم أعد ذاك الشخص المهزوز الضعيف مسلوب الإرادة والشخصية أصبحت شخصًا محاطًا بأشخاص أقوياء جدًا، وأن تعاشر الأقوياء ذاك يعني أنك ستكتسب بعض صفات القوة منهم، وأنت لا تكتشف هذه القوة إلا بعد أن تختبرك الدنيا.

في إحدى الليالي كنت أتناول الغداء، وفجأة اصطدم عن غير قصد أحد السجناء بي، لم أتمالك نفسي إلا وانا ألكمه وأركله بكل عدوانية حتى أغرقته في دمائه، هنا شعرت أنني تغيّرت، أصبحت أشعر للمرة الأولى في حياتي بالقوة حد الافتراء على أي شخص يحاول الاقتراب مني، استدعاني الضابط للتحقيق، وقبل دخولي إلى المكتب جاء عنتر قائلًا:

- "الرجل لا يكذب.. اعترف بما قمت به".

لم أتردد في قول الحقيقة، أما الضابط فعاقبني بالتهذيب لمدة ثلاثة أيام، جاء خلالهم عنتر، فقلت:

- كان بإمكاني الكذب.

فرد:

- الرجل لا يكذب، لا يمكن أن نعتبرك رجلًا وأنت تكذب.

كانت هي أيضًا واحدة من أهم الأشياء التي تعلمتها.. أن الرجل لا يكذب، ربطتني علاقة قوية بعنتر الوحش، فرق السن البسيط بيننا جعلنا أصدقاء، كانت هذه ضريبة الصداقة.. أن أكون قويًا بما يكفي لنجلس معًا على رصيف واحد ونشرب الشاي، وثق بي عنتر ثقة تامة وبدأ يحكي عن عائلته وقصته..

لعائلته ميراث كبير جدًا، لكن الخال قرّر أن يسرق هذا الميراث، في البداية سلكوا كل الطرق القانونية لكن دون فائدة، فما كان إلا أنه وفي لحظة تهوّر ذهب إليه وفقع عينه قائلًا:

- هذا نصف الميراث، حين أخرج إما أن تعطيني النصف الآخر أو آخذه بطريقتي.

الظلم كفيل أن يُخرج من المسالم شخصًا في غاية العدوانية، كفيل أن يجعل من العابد عاصٍ، تعلمت من هذا الشاب الكثير من الأشياء، وكان سببًا في بناء شخصيتي، حين علم بقصتي عاهدني أننا سنساعد بعضنا البعض في أخذ حقوقنا بالطريقة المناسبة، خصوصًا أننا سنخرج في نفس التوقيت، لكنه من وقت لآخر كان يُذكّرني

أنني ما زلت لم أوفِ بوعدي، هذا الأسلوب والطريقة والقرب الذي كان يرفضه السامبو ويحذرني منه..

كان السامبو وعنتر الوحش على خلاف دائم رغم أن لقائهما لم يتجاوز الدقائق خلال زياراته الأسبوعية، لكنهما لم يكونا على وفاق دائم، فالسامبو يرى عنتر مجرد شخص يريد أن يكون محترمًا من خلال علاقتي به، حين كنت أقول إنه يملك قوة ونفوذ تجعل الجميع يحترمونه ويخشونه، كان يسألني إذن لماذا يختار شاب ضعيف مثلك لينضم لعشيرته؟!

بينما الوحش لم يرتح أبدًا للسامبو، كان يرى أن هذا الرجل يُخفي شيء ما، لطالما حذرني أيضًا من الوثوق به، وحين أشدد أن السامبو صديق الطفولة ولا يمكنه الغدر بي، كان يرد بثقة "الغدر لا يأتِ إلا من المقربين لك". قضيت وقتًا طويلًا أحاول تصحيح كل صورة خاطئة مبنية عن الآخر، لكن دون جدوى..

اليوم ليلة خروج بعض المساجين.. في هذا الحفل يجتمع المفرج عنهم في حلقة دائرية ثم يتحدث كل منهم عن أحلامه وأمنياته المستقبلية، شكل الحياة التي تنتظرهم في المستقبل أو التي يسعون لتحقيقها، وفي هذه الحلقة الكثير من الاختلافات والأفكار والرغبات، منهم من ينوي التوبة إلى الله والرجوع والتكفير عن كل ذنب قام به، ومنهم من ينتظر العودة لأخذ ثأر قديم أدّى به إلى السجن، منهم من ينتظر الخروج حتى يعوّض أيام الفشل والعجز التي عاشها في السجن، ومنهم من سكّن الشيطان قلبه فزرع بداخله الحقد والكراهية تجاه كل شيء، حتى إنه ينوي قلب الدنيا رأسًا على

عقب..

ثم يأتي وقت الاحتفال والأغاني..

حفل يبدو بسيطًا لسجناء عاشوا وقتًا طويلًا بين أربع جدران مسلوب منهم الحرية والشعور، كل الذين دخلوا إلى السجن لم يخرجوا منه إلا بشخصيات مختلفة، المسالم الهادئ قد يخرج من هنا وحشًا لا يمكن الوقوف أمامه، وذو القلب اللين قد يخرج وقلبه أشد قسوة من الحجر، ومن كان لا يعرف عن الدنيا شيئًا قد يخرج من السجن كهل فَهم الدنيا بكل ما فيها حتى وهو في العشرينيات.

وما أعرفه أنني تغيرت كثيرًا، لقد أدركت أن الحياة حرب وصراع طويل جدًا.. لن تحترمك ما دمت لا تملك أسلحتها الرئيسية.. "السلطة، النفوذ، المال"، ولن تعطيك حقوقك على طبق من ذهب بل عليك أن تشد بأزر نفسك وتجهز للمواجهة، وإلا سيتم التهاون والنيل من حقوقك ولن تستطيع الاعتراض، الحياة تكسر الطيبين جدًا.. الحياة لا ترحم الضعفاء..

أثناء حالة الهرج والمرج والفوضى.. لاحظت أن عنتر الوحش في حالة سكون تام، بدا وكأنه يحمل همًا عظيمًا، شاردًا أغلب الوقت لا يشارك أصدقاءه الرقص والغناء، اقتربت منه في محاولة لمعرفة سر هذا الهدوء، شيء ما في عينيه يثير قلقي، لم أعتد أن أراه بهذه الصرامة والترقُّب، حاولت استدراجه في التحدث لكنه كان صامتًا تمامًا يأبى البوح، ظللت أحاول الكشف عما يدور في ذهنه..

فسألته آسفًا:

- متى يحين دورنا في الخروج؟

قال بثبات:

- بعد ساعات..

ضحكت ساخرًا:

- يا ليت كل ما يدركه المرء يناله..

أشعل سيجارته ثم قال بحزم:

- أنا لا أمزح، بعد ساعات سنكون خارج هذه الأسوار.

- كيف؟

نهض من مكانه ثم خرجنا لساحة الطعام:

- اسمع يا ماجد، منذ قرابة ثلاثة أشهر وأنا أُعدُّ كل شيء للهروب من هذا الجحيم، لن أتحمّل قضاء يوم آخر خلف هذه الأسوار، اليوم إما الخروج أو فناء العمر داخل هذا المستنقع..

قلت معترضًا:

- هذه مجازفة لن نقدر عليها، إن لم ننجح فسنقضي أضعاف السنوات المحكومة علينا وسنعامل كالعبيد.

ضحك:

- نعم سنخسر أكثر ما خسرنا وسنتعامل بقسوة وعدوانية ونخسر المعاملة الإنسانية التي نُعامَل بها. أسمع يا ماجد، لقد مر وقت طويلًا على وجودنا هنا، العالم في الخارج يتغيّر بسرعة جنونية

وقلبي لم يعد يتحمّل أن أكون مكبل الأيادي بينما الظالم حرًا طليقًا يستمتع بحياته في الخارج، أنت أيضًا جئت إلى هنا ظلمًا لأنك كنت شهمًا مع فتاة مراهقة لديها عائلة قوية، وبجرّة قلم واحدة أنهت حياتك وقررت تشريد عائلتك التي لا تعرف عنهم شيئًا منذ ثلاثة أعوام تقريبًا، عائلتك المسكينة.. في هذا الزمن الأسود ترى ماذا فعلوا ليعيشوا في سلام وأمان، أنت كنت سندهم الوحيد في الدنيا، سندًا لأمك وأخواتك البنات وأخوك الصغير، تخشى أن تفشل خطتنا للهروب، لكنك لا تبالي أبدًا بما قد حدث معهم خلال كل هذه السنوات، ألا ترى نفسك جبانًا متخاذلًا؟! هم يستحقون المجازفة والتضحية يا ماجد.

لم أرد عليه، لقد واجهني بكل ما كنت أحاول الهروب منه، ثمة حقائق نتجنب مواجهتها؛ لأن المواجهة تعني أن تتعرى أمام نفسك وتواجه الشبح الذي تهرب منه طوال الوقت.. مرارة الحقيقة التي تُخفيها بـ لذة الكذب والخداع..

من حبل أفكاري قاطعني الوحش:

- اسمع أمامك ساعة.. إما أن تأتي معنا، أو أن تبقى هنا، لكن أقسم لك لو قرّرت البقاء ووشيت بنا فلن يصبح عليك صباح آخر، ولا تنسى لن يرحمك الوزيري وسيَرُد كل ما قمنا به..

ثم نهض الوحش من مكانه، وقال وهو يغادر:

- بعد ساعتين من الآن سنكون عند سرير أبو فارس وسنضع خطتنا إن أردت الانضمام لنا فسأكون في انتظارك..

تحرك الوحش تاركًا الأفكار تلتهم رأسي، الحقيقة أنني طوال هذه المدة أفكر وأنتظر الوقت الذي أنال فيه حريتي المنهوبة، أن أكون حرًا طليق نفسي وأفكاري وحياتي بعيدًا عن حكم النفس عن نفس الذي لا أطيقه، أفكر في لحظة الإفراج عني، فقد ضاعت ثلاث سنوات ظلمًا وهباءً، وتبقى أربعة آخرين لا أعرف مصيري فيهم، لأكون صادقًا قد لا أكون مهتمًا كثيرًا بمصيري، فلقد فقدت حياتي في لمح البصر، لكنني أبالي بعائلتي ومصيرهم، عائلتي التي انقطعت أخبارهم تمامًا عني، لا أعرف عنهم ولو أبسط التفاصيل.

ما ينتظرني في الخارج مطاردة.. مطاردة في كل شيء.. مطاردة من الأمن الذي لن يتركنا ننعم بحريتنا المسروقة، رحلة بحث عن عائلة أشعر في نفسي أنها تاهت في طرق الحياة السريعة القاسية، ورحلة الانتقام من عائلة أخرى قرّرت التضحية بي حفاظًا على اسمهم ومكانتهم الاجتماعية..

الخروج من هنا مغامرة عواقبها كبيرة وكارثية، لكنني على الأقل أملك قراري ومصيري الشخصي، بينما أنا هنا مكبّل الأيدي، مسلوب الإرادة والرغبة، حتى النفس الذي أتنفّسه بميعاد وحسب توقيتهم الشخصي، وينتظرني وحش آخر سينتقم مني، ليس على كل ما قمت به وحسب، بل حتى عن عدائه الشخصي مع الوحش..

فجأة ركلني أحد أمناء الشرطة:

- هيا يا مسجون يا بن... على العنبر.

نهضت مفزوعًا وأيقنت أنها إشارة للانضمام إلى الوحش..

"لن نخسر أكثر مما خسرنا، ولن نعيش جحيمًا أكثر مما نعيشه هنا!"

ظلّت كلمات الوحش ترن في أذني، دخلت العنبر في صمت وخضوع تام، لم أرَ عمر الوحش حتى الآن، وضعت رأسي على الوسادة وظللت أفكر فيما سيحدث في حياتي خارج أسوار السجن، بعد ساعة دخل عمر الوحش ومعه رجاله واجتمع عند سرير أبو فارس، في منتصف الدائرة جلس عنتر الوحش يتحدث بهدوء تام، نهضت من مكاني وما إن رآني حتى ابتسم، بدأ الوحش في وضع الخطة..

- الآن المفرج عنهم في عنبر خاص بهم، بين هؤلاء المفرج عنهم.. مسجون عليه ثأر قديم، لقد أبلغنا أصحاب الثأر بميعاد خروجه، ومن ثم خدعناهم أن هذا الرجل سيرحل من البلاد فور خروجه من السجن، لذلك الفرصة الوحيدة هي القضاء عليه قبل الإفراج عنه وعليهم اعتراض طريقه، لذلك خطتنا كالآتي..

سيبقى المفرج عنهم في عنبر الإفراج حتى السادسة صباحًا ثم يتّجهون إلى الصالة الخارجية وبعدها يبدأ في ترحيلهم من سجن "برج العرب" إلى "سجن الحضرة"، لحظة خروجهم سيكون ميعاد الإفطار الخاص بنا، في هذه اللحظة سنتّجه نحن إلى الجراج وندخل في إحدى عربات الترحيلات الجاهزة للخروج، بعد عشر دقائق من خروج عربة المفرج عنهم، ستقوم العائلة صاحبة الثأر بعرقلة السيارة بالأسلحة النارية، في هذه الأثناء ستطلب القوة التأمينية قوة إضافية لمساعدتهم..

ستنطلق كل سيارات الجراج للدعم، وبعدها سنكون خارج أسوار السجن، بعد عشر دقائق وقبل الوصول إليهم، سيقف سائق السيارة بحجة انفجار أحد الإطارات، وحينها ستكون سيارة تابعة لرجالنا في انتظاره، سنقضي على الضابط المرافق لأمين الشرطة، ومن ثم ستنطلق السيارة إلى سيوة عبر مدقات الصحراء، سنصل إلى هناك لمدة أسبوع ثم ننطلق إلى إيطاليا عن طريق ليبيا.

سألت:

- سنغادر مصر؟

رد بحزم:

- هل تظن أننا سنبقى هنا حتى يعثروا علينا؟

- لديّ عائلة أريد البحث عنها يا وحش.

نظر الوحش إليّ في حزم شديد:

- جميعنا لدينا عائلات وأفراد مسؤولون عنهم، هذه الخطوة هي هديتنا لهم لننعم معهم بالحرية، لن نتركهم وحدهم في مصير مجهول، سنقوم بكل شيء من أجل أن يلحقوا بنا.. إن نجحت خطتنا فتأكّد أنني سأبذل كل ما في وسعي لمساعدتك.

نظر الوحش لنا جميعًا وقال في حزم:

- اسمعوا.. لا وجود لأي احتمالية للفشل، الأنانية ستكلّفنا جميعًا إما السجن المؤبّد أو الموت، لنكن على قلب رجل واحد يا رجال، لكل منكم عائلة وأحلام وحياة يستحقون جميعًا التضحية من أجلهم،

سنواجه أيامًا صعبة، لكننا سنكون أحرارًا والحرية تستحق، تنتظرنا في الخارج حياة رائعة يا أصدقاء، معًا على قلب رجل واحد؟

- معك يا زعيم.

واتّجه كلٌ منّا إلى سريره في انتظار السادسة صباحًا، وبدأتُ في إعداد نفسي لما ينتظرني، اقترب مني "منعم" أحد رجال عنتر الوحش، جلس على السرير ثم سألني:

- هل تشعر بالخوف؟

- لا.. وأنت؟

فقال ضاحكًا:

- بالطبع أشعر بالخوف، إن لم تشعر بالخوف في هذه الأوقات فأنت مجنون، لكنني لست خائفًا على نفسي.. أنا ابن السجون، معتاد على هذه الأجواء وأحببت الحياة في السجن، أخشى على أبنائي، لا أريدهم أن ينالوا ويعيشوا نفس ما عشته، أريد لهم حياة أفضل مما عشت.

سألته:

- لماذا لم تنتظر حتى قضاء مدتك؟

ضحك الرجل ساخرًا:

- قضيتُ هنا سبع سنوات وينتظرني سبع أخرى، دخلت السجن وعمر ابني الكبير عامان والصغير عام، الآن أصبح عمرهما بين ثمانٍ وتسع سنوات، لو انتظرتُ ميعاد خروج.. لن ألحق فترة مراهقتهما

وعائلتهما، ثم إنهم يعيشون مع أبي فقط، وأبي يكبر في السن ولن يستطيع تحملهم أكثر من ذلك..

- وأين زوجتك؟

- زوجتي! أن تبحث عن الوفاء في امرأة.. كأنك تأمن لأفعى يا رجل.. زوجتي هي السبب في كل هذا!

-كيف؟

صمت الرجل لدقائق ثم قال:

- سأقول لك لكن ليس لإرضاء فضولك، بل لأنني أريد منك خدمة، هل توافق؟

هززت رأسي موافقًا، فقال:

- زوجتي امرأة خائنة، كانت على علاقة بشخص آخر، كان الشك في قلبي يراودني لكنني لا أملك دليلًا واحدًا على هذه الشكوك، استمرت الشكوك أكثر من ثلاث سنوات، حتى جاء اليوم الموعود، اتّصلَت بي لتخبرني أنها ستذهب إلى والدتها، كنت انتظرها بالفعل وبدأت في مراقبتها. صعدَت بالفعل عقار والدتها، هدّأت خطواتي حتى لا تراني وأنا أصعد وراءها، وكانت المفاجئة أنها لم تصعد لوالدتها كما قالت، بل صعدت لابن جيرانها الشاب الأعزب..

هل تظن أنني كسرت الباب عليهما بكل غضب وحطمت الشقة بكل ما فيها؟

نعم تصوّرك صحيح، لكنني لم أقتله كما تظن، بل فعلت ما هو

أسوأ.. لقد قرّرت أن أسلخه قبل القتل.. وأمام عينيها، ثم أمسكت سكينًا وقطعت أصابعها ومن ثم أبلغت الشرطة؛ ليستلموا الجثة..

ضحك منعم وأكمل:

- المحامي أخبرني أنني لو لم أسلخه لربما كان وضعي أفضل، وفي النهاية حُكِمَ عليّ بخمسة عشر عامًا، لكنني لم أندم أبدًا على ما قُمت به، ولو عادت الأيام لارتكبت نفس ما ارتكبته معها ومعه وربما أفظع؛ لأنها امرأة خائنة، وثمن الخيانة القتل.

أدهشتني طريقته في الحكي وكأنه يحكي عن قصة رآها في فيلم أجنبي، فسألته:

- ولماذا لم تقتلها؟

- القتل لهذه الخائنة راحة لا أتمنّاها لها، لقد شوّهت جسدها ووجهها لتعيش عاجزة طوال حياتها، هذا ما تستحق.. أن تختبئ من نفسك.. ألا يوجد عقاب أشد من ذلك؟! أن تتجنّب النظر لمرآتك اليومية هذا أشد أنواع العقاب، هذا بالضبط ما أردته لها..

تنهد منعم ثم أشعل سيجارته وقال:

- تخيّل أن تخونك المرأة الوحيدة التي كنت مستعدًا للتضحية بكل شيء من أجلها، ملعون جنس حواء، على أي حال أريد أن أوصيك بأبنائي، إن حدث مكروه أرجو ألّا يغفلوا عنك، حتى لو أوصَيت شخصًا آخر من أقاربك يتابعهم ويلبّي احتياجاتهم..

ثم تحرك إلى سريره..

السجن هو أكثر الأماكن حقارة في الحياة، أربعة جدران كئيبة، رائحة كريهة، فوضى وبلطجة في كل شيء، وسرقة وفرض سيطرة على الضعفاء، حياة كريهة مصغّرة تتعلم فيها كل شيء ولا تتعلم منها شيء، الجميل في السجن أن البلطجي يخبرك عن صولاته وجولاته في الخارج، الشرير لا يتوارى في قناع الطيب، القاتل لا يظهر لك سلميّته، والمنافق يعبر عن نفاقه بكل وضوح، دعني أقول لك إن السجن هو الحقيقة الكاملة لكل شخص فينا؛ لأنه المكان الوحيد الذي لا يمكنك أن تظهر فيه إلا على حقيقتك، فالضغط والكبت والأوامر وقلّة الإمكانيات والرفاهيات وحب الأنا والخوف، كلها أشياء تُظهر أصل الإنسان، دخلت هنا شابًا مسكينًا مسالمًا، وها أنا أهرب منه شخصًا آخر لا أعرفه، لكنني أثق أنني لن أعود إليه مرة أخرى..

في السادسة صباحًا فُتحت العنابر.. تحرّكنا متجهين إلى صالة الإفطار، بينما تحرّك المُفرَج عنهم إلى البوابة في انتظار عربة الترحيلات التي خرجت من الجراج، وسط المباركات والحراسة المشدّدة في نفس اللحظة، دخلنا إلى الجراج، قادنا الوحش إلى السيارة، ركبنا في الصندوق الخلفي ثم التزمنا الصمت التام لمدة ساعة، صمت تام يكسره صوت دقات قلبي المرتفع، بعد دقائق إما أن أخرج منها إلى الحياة أو إلى السماء وربما أُدفن في مكاني، بعد دقائق ستبدأ مغامرة لا أعرف توابعها ولا أثق في أي شخص معي، لكنني مجبر.. فلا أريد أن أقضي أيام حياتي هنا، بدأت حالة الفوضى في الجراج وأصوات الإنذار والعساكر، حانت اللحظة، انطلقت السيارة واحدة تلو الأخرى، كان الوحش يتابع رجاله عبر الهاتف، ثم

فجأة توقفت السيارة، فُتح الصندوق ومعها أمسك الوحش بالضابط وظل يلكمه بشراسة، الصدفة أن هذا الضابط لطالما أهان الوحش وها هي فرصته للانتقام..

- لا تقتله يا وحش اتركه وهو فاقد للوعي.

- أمي ليست عاهرة يا بن العاهرة..

كلمات ظل يرددها الوحش للضابط فاقد الوعي..

- أمي ليست عاهرة يا بن العاهرة.

أمسك الوحش سلاح الضابط الشخصي ثم أطلق ثلاث رصاصات في قلبه حتى أصبح جثة هامدة، ثم واصل لكمه..

حاول رجال الوحش سحبه من فوقه، لكن دون فائدة..

وفجأة جاءت عربة أخرى محمّلة ببعض العساكر والضباط، وهنا بدأ القتال..

ركبنا سيارة الدفع الرباعي مع الرجال الذين كانوا ينتظرونا بعدما سحبنا الوحش معنا، بدأ تبادل إطلاق الرصاص، كنت أرتجف، بينما كان الرجال يتبادلون النيران، فجأة جاءت رصاصة غاشمة في منعم..

واصلنا الهروب منهم حتى دخلنا في صحراء، لم تستطع سيارتهم ملاحقتنا داخل الصحراء العميقة، ظل منعم يصرخ من شدة الألم، لا أتذكر كم ساعة قضيناها داخل الصحراء، أظن أننا قضينا أكثر من خمس ساعات بين مدقات الصحراء العميقة حتى وصلنا إلى

إحدى القرى البسيطة جدًا، لا أحد منا يعلم أين نحن لكننا في عمق الصحراء، ما إن وصلنا حتى استقبلنا البدو الذين أعدّوا لنا خيمة مُجهّزة، ومعها طبيب بدوي حاول مداوة منعم، لكن الحقيقة أن أمره قد انتهى بالفعل، ومحاولاتنا ما هي إلا محاولات إنعاش لا أكثر ولا أقل، ارتحنا من شقاء الطريق في الخيمة..

لم يؤلمني شقاء الطريق، كان الأكثر إيلامًا تلك اللحظات التي رأيت فيها الهزيمة، وتلك الليالي التي عشتها منكسرًا وحيدًا لا أحد يبالي أو يهتم لأمري..

دخل علينا عنتر الوحش ثم قال ونحن منهكون تمامًا:

- خطتنا كالآتي..

مع حلول الظلام سنتوجه إلى السلوم، وسنقضي هناك أربعة أيام، بعدها سنغادر إلى ليبيا ومنها إلى إيطاليا لتبدأ حياتنا الجديدة..

- ماذا عن عائلتنا وأولادنا؟

وطأ عنتر الوحش رأسه ثم قال:

- في الغالب كل فرد من عائلتكم سيكون تحت المراقبة، لذلك علينا أن نرسل شخصًا واحدًا فقط لا يملك؛ عائلة ليرسل رسائلكم إلى عائلاتكم، أقصد شخصًا لا يمكن للأمن مراقبة أحد أقاربه.

فنظروا جميعًا إلي..

- نعم هو ماجد عبد المنصف، مع حلول الظلام ستغادر مع أحد رجالنا إلى طريق القاهرة ثم إلى الإسكندرية ومعها تعطي هذه

التذاكر إلى كل عائلة.

قاطعته:

- لماذا من القاهرة إلى الإسكندرية؟! لنتجه إلى الإسكندرية مباشرةً.

أجاب:

- لن يخطر ببال الحكومة أن أحدًا منّا سيعود إلى المدينة التي هرب منها، متوَقّع أن تشد كمائنها على الخروج من الإسكندرية وليس الدخول إليها، وعلى أي حال سيتكفّل رجالنا بالأمر وسيبقون معك خطوة بخطوة حتى يعودوا بك إلى هنا.

أعطاني التذاكر والعناوين، ثم وضع في جيبي ورقة وهمس:

- "لا تفتحها إلا بعد أن تؤدّي الأمانات إلى أهلها، لا تنسى أنك مدين لي بخدمة".

سرعة الأحداث مرعبة، أنا لم أسترح من شقاء السجن، لم أسترح من سوء المعاملة، لم أسترح من المطاردة الشرسة التي حدثت معنا، لم أسترح ولم أستوعب مقتل منعم، والآن عليّ استيعاب أني سأعود إلى عش الدبابير مرة أخرى، حيث مهمة تبدو انتحارية، في ظرف خمسة أيام عليّ إرسال الأمانات إلى أهلها، والعثور على عائلتي، والعودة من جديد سالمًا، مستحيل!

***

الإسكندرية "اليوم الأول "

ما إن وصلتُ إلى الإسكندرية حتى اتصل أحد الرجال بالسامبو كما طلبتُ منه، تحدّثتُ معه وكأنه مندوب شركة شحن ومعه شحنة ثمينة، أرسَلَ السامبو عنوانًا لا أعرفه، كانت الخطة أن يذهب هذا الرجل للسامبو ليطمئن أولًا أنه ليس مُراقبًا، ثم يخبره أنني أريد قضاء ليلتي الأولى معه، ساعة بالتمام والكمال وكنتُ قد وصلت بالفعل إلى منزل السامبو، ما إن رآني حتى اندهش!

- هربت من السجن؟!

- لا تقلق لن أقضي إلا يوم واحد فقط معك..

قال وهو يعانقني:

- حمدًا لله على السلامة يا صديقي.. اقضِ العمر كله معي.

في اللحظات الأولى من لقائي بالسامبو خارج أسوار السجن، لاحظتُ أن حياته تغيّرت تمامًا، السامبو الشاب فقير الكسب الذي يعمل يومًا بـ يوم.. أصبح يملك سيارةً فارهةً، منزلًا فخمًا، ويرتدي ماركات عالمية ويعيش في مستوى رفاهية غريب، جلسنا معًا نشرب القهوة..

- حمدًا لله على السلامة يا حبيبي.

- الله يسلمك يا سامبو، أشكرك على إخلاصك معي طوال هذه الفترة، لن أنسى ما قمتَ به أبدًا.

- يا رجل نحن أصدقاء.. لا تقل هذا أبدًا.

تأمّلتُ المنزل الفخم، فـ رَدّ مختصرًا الطريق لأسئلتي:

- الحياة فُرص يا صديقي، وجاءتني فرصة عظيمة فـ استغللتها أفضل استغلال، وربنا خير رزاق.

- بالحلال؟

- حد الله بيني وبين الحرام، هي فرصة على طبق من ذهب قسمت للعبد لله واستغللتها كما

يجب، سأخبرك فيما بعد..

- حسنًا، ماذا حدث للحي؟

قبل أن يرد سألني:

- قهوتك؟

- سادة يا سامبو.

ثم بدأ:

- قصة طويلة، في العام الأول من محنتك الشديدة اشتد عظم أخيك وبدأ في سلك طريقه للحياة، اجتمع ببعض أصدقاء السوء لطالما حذرته منهم، راقبته عن بعد وحاولت إبعاده عنهم، أظنُّ أنني نجحت في هذا. أنت تعلم الفتيان في سن المراهقة تشتد عظامهم، ويخشن صوتهم، ويشعرون بقوتهم..

أختك أميرة ما شاء الله عليها واصلت تحفيظ القرآن للأطفال في المسجد، صحيح بدا عليها التعب في أيامك الأولى لكنها استمرت فيما تقوم به، والدتك المسكينة أغلقت كشك السجائر الخاص بها، خانتها صحتها فالتزمت الفراش..

وحبيبة القلب سارة تزوجت في العام الثاني من سجنك؟

- تزوجت من؟

قال:

- حبيبك عادل النمس

- النمس!

- هو نمس بصحيح، اشترى البيت كله من صاحب البيت ورفع الإيجار خمسة أضعاف، بالطبع سارة ظلت ترفض الزيادة، لكن تَعَب والدها المفاجئ كلّفها الكثير والكثير، وفي النهاية خضعت للظروف الطبيعية وتزوجته، لكن نيّته القذرة! بعدها بعام واحد فقط باعت الحكومة الأرض كلها لأحد دول الخليج ورُحّلَ كل سكان الحي إلى شقق تابعة للإسكان، ومنذ هذه اللحظة اختفت أخبار عائلتك..

- ألم تحاول البحث عنهم في المدينة الجديدة؟

رد بنبرة يغلب عليها قلّة الحيلة:

- لم أترك شبرًا في مصر إلا وبحثت فيه، قدمت محاضر في كل أقسام الجمهورية، لكن دون فائدة، كما قلت لك اختفوا تمامًا عن الأنظار، حتى سكان الحي الذين نُقِلوا إلى الحي الجديد لم يعلموا شيئًا عنهم.

أخبار سوداء انهالت عليّ احتفظ بها السامبو طوال هذه السنوات؛ خشية من توابعها عليّ في السجن، أعطاني السامبو حقيبة بها ملابس جديدة، ابتسمت له ثم قبّلت رأسه:

- شكرًا على كل ما قدمته لي، أنا مدين لك بحياتي.

ضحك الرجل:

- نحن أصدقاء وإخوة، لا تقل هذا أبدًا.

ارتديت ملابسي ثم نزلت مع السامبو إلى المساكن الجديدة التي نُقِل فيها سكان الحي القديم، هذه المرة الأولى التي أرى فيها الحياة بعد خمس سنوات قضيتهم في السجن، في الطريق سألت السامبو..

- وكيف تعيش عائلة مرام؟

- لا أخبار عنهم، بعد الأزمة الاقتصادية التي ضربت البلاد سمعت أن والدها صفّى كل أعماله ثم غادر، ولا أخبار عن مرام وعائلتها.

دلني يا الله دلني!

لم أغب أكثر من أربع سنوات، لكن يبدو كل شيء مختلفًا، ملامح الناس، طريقتهم، أسلوبهم، حتى عاداتهم باتت أكثر جديّة وحدة، وصلنا الحي الجديد، اخترنا الجلوس عند أول مقهى، كالعادة للسامبو سيط وجاه بين الجيران، لكن ثمة أشخاص يبتعدون عنه أو يحاولون تجنب إلقاء السلام عليه، ظللت أنظر للمارة في هدوء تام وأنا أدخن سيجارتي..

- أين تسكن سارة؟

قال السامبو:

- ماذا تريد يا بن الأصول؟

قلت:

- دع هذه الأفكار الشيطانية، لن أقترب من امرأة على ذمة رجل، أين هي؟

هز رأسه:

- هي أيضًا لا أحد يعرف عنها شيئًا.

- أين عائلتها؟

- لا أثر لهم.

تنهدت:

- أيعقل أن كل الخطوط التي قد تدلني على مكان عائلتي اختفت بهذا الشكل!

قدم النادل القهوة ثم نظر إلي بتعمق شديد، سرعان ما قطعته نظرات السامبو الحادة، ثم قال في حدة:

- ينعل الكيتامين.

وبدأ في وصلة سب ولعن في المقهى وفي كل زوارها..

تركته في معاركه المعتادة منذ الطفولة وخرجت من المقهى، أمسك كتفي، فقلت:

- لن أتأخر عليك، أريد المشي وحدي.

قضيت قرابة ساعة كاملة أفتش عن شخص واحد يمكنني التحدث معه، لكنهم بشكل أو بآخر كانوا يرفضونني لسبب ما لا أعلمه..

من بعيد رأيت شابًا أشعر أني أعرفه، هذا الشاب كان أحد أصدقاء أخي الصغير "أمير"، اقتربت منه ووقفت أمامه:

- أنا ماجد بائع النظارات الشمسية.

نظر إليّ باستغراب، فقلت:

- ماجد الذي حُكِمَ عليه ظلمًا، أتذكّر أني رأيتك في المحكمة..

فكّر الولد لثوانٍ وكأنه يحاول تذكر شيء ما، ثم قال:

- أنا لا أعرفك ولا أعرف شيئًا عما تسألني عنه.

تصرُّف لم أفهمه..

رحل الشاب عني كأنه لم يرَني، ظللت أمشي في الشوارع الجديدة حتى رأيت امرأة عجوزًا، أعرف هذه العجوز هي نفسها التي كانت تبيع الخضروات لأمي، لطالما كانت أمي تقف عندها بالساعات تتحدثان عن العامة، اقتربت منها وكأن الزمن لم يتغير..

- هل تتذكريني؟ أنا ماجد بن خديجة صاحبة كشك السجائر..

تأمّلت العجوز ملامحي لدقائق دون أن تنطق حرفًا.

- ماجد بن خديجة صاحبة كشك السجائر في السيالة..

شهقت العجوز ثم قالت:

- ماجد كيف حالك يا بني؟ وكيف حال خديجة؟

تنهدت حمدًا لله:

- أنا بخير، أنتِ كيف حالك؟ هل تعرفين شيئًا عن أمي؟

صمتت العجوز وكأنها تراجع ذاكرتها، ثم أدارت وجهها عني وعادت مرة أخرى:

- من أنت؟

- يا خالة أنا ماجد بن خديجة صاحبة كشك السجائر في السيالة..

ردت مرة أخرى:

- ماجد كيف حالك يا بني؟ وكيف حال خديجة؟

- أنا بخير، أخبريني هل تعرفين شيئًا عن أمي؟

ردت:

- لقد تزوجت.

قلت مندهشًا:

- مِن مَن تزوَّجت؟

قالت:

- خديجة الغازية تزوّجت من فريد العنتبلي فتوة بحري، مسكين زوجها مات بعد زفافه بأسبوع على يد الإنجليز الله يلعنهم ويلعن الاحتلال!

- يا الله يا ولي الصابرين! يا خالة أنا ماجد بن خديجة أم أمير وأميرة في السيالة، هل تتذكريني؟

نظرت إليّ:

- من أنت؟

نهضت من مكاني، فلقد أدركت أن الخرف قد تملّكَ من عقل العجوز..

وضع يديه على كتفي:

- ميجو أنت تفتش عن إبرة في كومة قش.. هيا بنا.

كلمات أنهى بها السامبو جولتي القصيرة في البحث عن دليل واحد يدلني على عائلتي..

عدنا من حيث أتينا إلى السيارة، قبل أن تنطلق السيارة لاحظت من بعيد أن النادل يقف يتابعنا، لم أخبر السامبو بالأمر خشية أن ينصب عليه غضبًا مرة أخرى..

"سأعود إلى هذا المكان لاحقًا"

ظل السامبو معي حتى بدأت رحلة توصيل الأمانات إلى أصدقائها، للأمانة تكفل السامبو بهذا الأمر خشية من المراقبة، ثم فاجئني اتصال عنتر الوحش بكلمات معدودة.. "لا تثق في السامبو".

رددت عليه فقال:

- إن لم تتركه اليوم وترحل عنه فسيتكفّل رجالنا بترحيله عن الدنيا بما فيها

ثم أغلق الهاتف في وجهي..

طوال الطريق كان يحاول السامبو أن يعرف تفاصيل ما حدث، ثم قال:

- هل صحيح أنكم قتلتم ضابطًا؟

لم أرد عليه، فقال:

- لا أظن أنك تقدر على القتل، هذه أفعال عنتر الوحش!

سألته:

- لماذا ظننت هكذا؟

فقال:

- أنا لا أستريح لهذا الرجل، لعائلته سجل إجرامي كبير، ولا يمكن أن تُنتج هذه العائلة شخصًا جيدًا أبدًا، على أي حال لا يهم.. المهم أنك بخير الآن.

أديت كل الأمانات في يوم واحد ومع نهاية اليوم توقفنا بالسيارة ثم قلت:

- أنا لن أتحمّل أن أكون عبئًا عليك يا سامبو.

- وأنا لم ولن أشتكي.. أنت أخي وصديقي وحبيبي وأفديك بعيوني.

- من فضلك يا سامبو أنا أريد أن أتخذ قرارًا بمفردي، دعني أنفّذ ما أريد. أنا هنا في مهمة مُحددة وقد أنهيتها بالفعل.

- ماذا ستفعل الآن؟

- سأعود إلى وجهتي، أثق أنك ستعثُر على عائلتي وسأعود للتواصل معك من وقت لآخر.

عانقني السامبو بعدما شعر ألا فائدة من الجدال وقال مبتسمًا:

- لك ما تريد، كل ما في الأمر أنني أخشى عليك من الدنيا، أخشى أن تستفرد بك الحياة كما فعلت، ولن أتحمّل أن أراك مرة أخرى خلف القضبان..

السامبو هو أقرب الشخصيات إلى قلبي، في وحدتك أنت لا تنسى أبدًا من مَدّ لك يد المساعدة، لا تنسى الذي أضاء ظلماتك ودلّك على الطريق بعد سنوات التيه، أحب هذا الرجل لأنه الوحيد الذي بقي حين تخلّى عني الجميع، الذي تذكّرني حين نساني العالم، وواصل اهتمامه ووده وحمل همي في وقت كنت لا أستطيع تحمل هم نفسي..

ودّعت السامبو ثم خرجت من السيارة متجهًا إلى سيارة رجال عنتر الوحش، ومعها انطلقنا إلى السكن القاطن في حي العامرية أحد أطراف مدينة الإسكندرية، دعني أقول لك إنني ما زلت لم أستوعب كل ما حدث معي، ربما منذ أكثر من أربعة أعوام، اتّصلت بعنتر الوحش وأخبرته أنني أريد قضاء بعد مشاويري الخاصة، طلب مني أن يكون برفقتي أحد رجاله، لكنني رفضت وألححت عليه:

- أريد أن أكون وحدي يا وحش.

استجاب لطلبي شرط أن أتابعه وأتابع رجاله عبر الهاتف..

وفي الشروق حان وقت الخروج حتى لا يراني أحد، مشيت في الشارع حتى اتّجهت إلى الموقف ثم إلى الحي الجديد، ما إن وصلت حتى رأيت العمال البسطاء يخرجون من منزلهم بحثًا عن قوت

يومهم، أسرعت في خطواتي حتى لا يراني أحد، وقفت أمام المقهى الذي اجتمعت به مع السامبو، ظللت أتابع النادل الذي وقف أمامي لدقائق، تأملني مرة أخرى ثم استدار، أمسكت بيديه:

- أنت تعرفني، صحيح؟

نظر النادل حوله وكأنه يريد أن يطمئن أن أحدًا لا يرانا:

- أنا أعرف كل شيء عنك وعن عائلتك، لا يمكننا التحدث هنا.

فجأة دفع يدي بعدما دخل أحد الزبائن القهوة:

- قهوة مضبوط للأستاذ.

نهضت من مكاني، لن يساعدني أحد في هذا المكان، حاسبت النادل فأعطيته عشرة جنيهات فأعطاني مثلها، نظرت إليه:

- أعطيتك عشرة جنيهات.

قال بصوت عال:

- نصب وسرقة على الصبح، توكل على الله حسابك مضبوط..

دفعني خارج القهوة وهو يسب ويلعن، لم أفهم ما قام به، لينضم إلى قائمة الأشياء الغريبة التي حدثت لي في هذا المكان، ركبت السيارة ثم وقفت عند كشك صغيرة لأشتري زجاجة مياه، رَفَض البائع العملة وأعادها إلي:

- الفلوس المكتوب عليها لا تُستعمل.

كان مكتوب عليها رقم هاتف، الآن فهمت تصرُّف النادل، حمدت

الله أن شخصًا ما قرّر مساعدتي أخيرًا، عدتُ إلى السكن واتصلت بعنتر الوحش لأخبره بما حدث معي..

- سيكون معك أحد رجالنا.

قراره نهائي بلا أي فرصة للمناقشة، حاولتُ إقناعه أني أريد الذهاب وحدي، لكنه رفض رفضًا قاطعًا وتامًا، قضيت يوم ممتلئ بالتساؤلات.. "لماذا رفض الجميع مساعدتي بهذه الطريقة؟!" ظللت أعبث بالهاتف حتى يمر الوقت، ومع حلول الظلام خرجتُ من السكن بصحبة سيارة أحد رجال عنتر الوحش..

في رأسي فكرة واحدة "لن أعود إلا بعد أن أمسك خيط واحد يدلّني على عائلتي"، بعد منتصف الليل اتصلت بالرقم المدوّن على العملة، لكنه لم يرد فقررت التوجُّه مباشرًا إلى العنوان، ولصعوبة دخول هذه الأماكن.. خرجتُ من السيارة وطلبتُ من الرجل أن ينتظرني عند مخرج الشارع..

كان في أحد الأزقة الضيقة في "كرموز". وفي هذه الأزقة لا يمكنك التنزه إلا بعد أن يوقفك أحد الأشخاص ليسألك عن وجهتك، وقد يعرض عليك أحدهم شراء بعض المواد المخدرة، حاولت التظاهر بأنني لست غريبًا عنهم متجنبًا هذه الأسئلة التي قد تثير الشكوك حولي، خصوصًا أنني لا أعرف وجهتي من الأساس، طوال الطريق كنت أتصل بالرقم لكنه لم يرد على مكالماتي، وصلت إلى العنوان، عمارة 56 شقة رقم 8، عقار متهالك تمامًا مُعرّض للسقوط في أيّة لحظة، صعدت بهدوء حتى وصلت للشقة، وجدت الباب مفتوحًا، دفعته بهدوء:

- هل من أحد هنا؟

لم يرد أحد علي، شقة مهملة تمامًا، عبارة عن سكن لشخص عازب أو مجموعة غرّاب لا توجد فيها إلا أبسط الأساسيات..

- هل من أحد هنا؟

سمعت وكأنه صدا صوتي..

المطبخ..

الحمام..

غرفة صغيرة في الركن الأخير من الشقة..

دخلتها في هدوء تام..

فجأة وبجوار الباب..

القهوجي مشنوقًا!

صرخت من لوع ما رأيت!

سمعت أصواتًا تصعد إلى الشقة من شدة صراخي..

ثم صوت سرينة الشرطة وضجيج في الأسفل!

أصوات الأقدام تقترب أكثر وأكثر مني..

ظللت في مكاني حتى سمعت أحد الضباط يقول بصوت عال:

- أثبت مكانك وإلا أطلقت عليك النار.

- صدقني لم أقتله..

اقترب نحوي ومعه اثنان من رجال الشرطة..

- لا تتحرك..

- لم أخرج من السجن لأعود إليه

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقفز من الشرفة إلى شرفة أخرى..

ومن شرفة إلى شرفة وسطح إلى سطح. كان كمينًا منصوبًا..

أجري بين الأزقّة..

ويلحق بي رجال الشرطة..

- لم أقتله.. لم أقتله.

واصلت الركض حتى وقفت عند حارة سد..

سمعت خطوات تقترب مني..

وقفت فلا مكان للهروب الآن..

اقترب الضابط مني مشهِرًا سلاحه نحوي..

حتى أصبحت المسافة بيني وبينه لا تتعدى ثلاثة أمتار..

وفجأة سقط الضابط أرضًا!

رصاصة لا أعرف مصدرها أصابته في الحال..

في هذه اللحظات لم أجد إلا الهروب..

رآني أحد مساعِدَيّ الضابط، واصل الركض ورائي وأسرع الآخر إلى الضابط الغارق في دمائه..

خرجت للشارع الرئيسي، ووسط الزحام هربت منه!

اتصلت بالسائق الذي جاء على الفور وانطلقنا إلى العامرية، في الطريق كنت أدّعِي الثبات أمام السائق، ما إن أوصلني حتى قال:

- لن أبيت معك، ستقضي هذه الليلة وحدك وفي الصباح سأعود إليك..

كنت منهكًا حتى إنني لم أسأله عن السبب..

هذه المرة الأولى التي أنام وحدي منذ سنوات، لذلك كانت فرصة مناسبة أخيرًا للانهيار..

بعد سنوات من التخبّط والتشتت، بعد سنوات من الضغط والكبت والمجازفة، بعدما رأيت الظلم هو السائد والسب واللعن هو لغة الحوار، والافتراء وفرض السيطرة هو القانون، لحظات اللقاء سريعة وعابرة ولحظات الفراق طويلة وقاتلة، والهجر والنسيان آثارهم لا تختفي مع الوقت بل يشتد حتى يغرقك تمامًا، بعدما ضاع مستقبلي ظلمًا وتاهت عائلتي ولا أعرف سبل الطريق إليهم، وبعدما انقطع الوصل بيني وبين أحبّائي، وتغيرت، أنا المسالم الهادئ الذي لا يقوى على ذبح دجاجة لم أغد أهاب الموت ولا أخشاه..

أخيرًا حان الوقت لاستيعاب كل ما حدث معي، حان الوقت لأصرخ لأني تعرضت للظلم من عائلة تملك زمام القانون، من محقق أراد أن يحافظ على حياته ومستقبله في سبيل تدمير حياتي ومستقبلي وأحلامي..

أحلامي؟! لم أحلم يومًا بالثراء، لم أطمع يومًا بسيارة فارهة لم

أطمح بمنزل فخم على البحر أو قضاء أيامي على شاطئ فينيسيا، أردت أن أعيش حياة عادية وربما أقل من عادية، لكنني واقعي جدًا مع الدنيا، الدنيا طبقات وكل مرة ولها أولوياتها في الحياة، فلقد بدأت مرحلة الاستيعاب والمواجهة مبكرًا جدًا..

ولدت في بيت متواضع بل أقل، وفي رقبتي ثلاثة إخوة وأم قاربت على الستين، لكن المرض تملّك منها حتى إنها تتعايش بجسد وقلب كهلة في التسعين، كنت أنا الأب والأخ والمسؤول عن تلبية كل احتياجات عائلتي، التزمت في دراستي ليس حبًا فيها لكن لأنني أومن أن التعليم قد يجعلنا نعيش معاناة أقل، لم أصنع أصدقاء ليس لأنني شخص كئيب أو ممل أو لا أحب أصدقائي، لكنني لم أملك وقتًا لصنع أصدقائي، فبينما كنت أراهم يجلسون على المقهى أو يقضون أوقات الإجازة على شاطئ الكورنيش، كنت أعد عدتي للتجول وسط الزحام لاستلقاط الزبائن لشراء ما أحمله على كتفي، كنت أبيع شبابي وأحلامي عسى أن أجد مشتريًا حتى أسدد احتياجات عائلتي، إنه لأمر مؤسف أن تعيش أيامك في ضغط ومتطلبات طوال الوقت.. تلك الأيام التي ينبغي عليك فيها أن تعيش لتستمتع بها، إنه لأمر مؤسف أن تعيش أيامك في محاولات لسد كل فجوة لست مسؤول عنها، وتتحمل توابع أقدار حياتك..

ما عشته في حياتي ليس بكثير، فأنا ما زلت في مقتبل العمر لكن ما رأيته لم يمر على عجوز في السبعين، منذ اللحظة الأولى وأنا أركض، أذهب إلى المدرسة سريعًا حتى أعود إلى عملي، أهرب من الحصة الأخيرة حتى لا أتأخر على العمل، وفي العمل كنت أعود سريعًا إلى المنزل لأستيقظ وأذهب للمدرسة، أخاف أن تفوتني

الدراسة فيفوتني النجاح، وأخاف أن يفوتني العمل فيفوتني المال وتزداد المسؤوليات، وأخاف أن أقصّر في طلبات عائلتي فيهربوا مني ويحتاجوا لاحتواء من غيري، ظللت أيامًا أصارع وأحاول أن لا تفوتني أشياء، لكنني لم أحصل يومًا على شيء واحد، وكأنني كُتِبَ عليّ المحاولة دون الوصول..

غلبني النعاس فـ نمت..

للمرة الأولى منذ سنوات أستيقظ وحدي، دون إزعاج أو مهام مطلوبة، للمرة الأولى أستيقظ على مهل، أعددت فنجان قهوتي في هدوء تام وكأنني لست مُطاردًا، يحدث أن تكون في قلب العاصفة، كل شيء حولك يعيرك للغضب، للتوتر والقلق، لكنك هادئ تمامًا، هادئ ليس لأنك لا تخشى الخسارة بل لأنك لا تملك ما تخسره من الأساس، فكل شيء بالنسبة لك باهت وبارد وكأن حياتك التي تتحطم أمامك لا تعنيك..

بعد ساعة اتصلت بالسائق، الهاتف مغلق، عاودت الاتصال لكن دون فائدة، طلبت عنتر الوحش لكن الهاتف أيضًا مغلق، عاودت الاتصال بهم أكثر من مرة لكن الهاتف مغلق تمامًا، بعد دقائق أرسل لي على الواتساب مجموعة رسائل، روابط لأخبار أشهر الصحف المصرية..

دخلت على المواقع المرسلة لأفاجأ..

"مقتل خمسة هاربين من سجن برج العرب والعثور على جثثهم في قلب الصحراء الغربية، بعد خلافهم مع بعضهم".

"غموض حول العثور على جثث الهاربين من سجن برج العرب،

والأمن يُحقَّق في الواقعة".

"بدو الصحراء الغربية: فوجئنا بوجود غرباء في خيمة حول القرية وبعد يومين نَشبَت مشادة بينهم بالأسلحة".

"الجُناة كانوا يستعدون للهروب من مصر لكنهم اختلفوا على أسباب غامضة".

لم أفهم مقصد عنتر الوحش من هذه الأخبار، أنهيت قراءة الأخبار المرسلة ثم عدت لأتصل بـ عنتر الوحش، الهاتف مغلق كالعادة، فوجئت بوجود حقيبة كبيرة بجوار الدولاب، فتحتها فـ فوجئت بما في جعبتها..

"بطاقة هوية ليبيّة وجواز سفر مختوم من عدة دول إفريقية وأوروبيّة..

الاسم: عمر فتوحة.. تاريخ ميلاد مختلف.. صورَتي الشخصية".

مبلغ مالي ضخم، مجموعة أوراق باسم عمر فتوحة، هاتف جديد، لاب توب، مجموعة ملابس، ونوت فيها مجموعة أرقام بأسماء مختلفة، ثم ورقة مكتوب فيها:

"عاهدتك أن أبذل كل ما في وسعي لأجد عائلتك أو على الأقل أسمح لك بإيجادهم، خطتنا كانت مثالية حتى اللحظة التي قُتِل فيها الضابط، كان هذا خطأي لكن من قال إن القادة لا يُخطئون، كل ما في الأمر أن هذا الملعون النجس تعمّد إهانة أمي بأفظع الألفاظ، لم أتمالك نفسي إلا وأنا أقتله حتى أسترد كرامتي التي دنست به وهدأت تمامًا حين قطعت لسانه، هي مشاعري في النهاية يا ماجد

ولها حق كل الحق في التعبير عن غضبها، هذا ما تعلّمته منك.

حين رأيتك أحببت براءتك ومحاولاتك أن تكون رجلًا شريرًا، وقفت بجوارك أمام أشد الرجال قوة في السجن لأنني رأيت فيك شخصًا لا يستحق أن يكون في السجن، وحين وضعت خطتنا للهروب وضعتك أول الأسماء؛ لأنك لا تستحق أن تقضي شبابك هنا، السجن هو أقسى تجربة يمكن أن تحدث لك في الحياة، لكنه أقصر الطرق لتفهمها، وقد علّمني السجن أن أبقى وفيًا لرجالي، كما علّمتك أن تثق بقائدك، أقدر ثقتك الكبيرة وأفهمها..

لذلك حين علمت أن فرصة عودتنا مرة أخرى ستصبح مستحيلة، قرّرتُ أن أتركك هنا في مصر، لكن بعدما دفعت الملايين.. رشوةً لكل من يملك زمام الأمر؛ حتى تنعم أنت في هدوء وتستطيع البحث عن عائلتك كما تريد، ستقضي فترة قصيرة في الصعيد حتى تهدأ الأوضاع تمامًا، ثم ستتمكن من العودة من جديد إلى الإسكندرية والتنقل كيفما تشاء..

أردتُ أن أقول لك بعض النصائح وأرجو ألّا تنساها أبدًا..

1| لا تثق في وفاء شخص ليس وفيًا لعائلته.

2| الكذب والرجولة صفتان لا تجتمعان أبدًا.. لا تثق في رجل يكذب.

3| لا تتسرع في الحكم على معادن الناس.. دع المواقف تكشف لك حقيقة معادنهم.

4| لا تخبر أحدًا بما تملكه من المال، لا تكشف لأحد نقاط ضعفك، احتفظ بأسرارك لنفسك.

5| كن قويًا مع القوي وكن رحيمًا مع الضعفاء، ولا تصمت أمام حق ولو كلّفك حياتك.

6| المحامي يريد أن يزيد من أتعابك حتى تزداد أتعابه، فلا تعطِه أكبر من حجمه الطبيعي.

7| لا تشارك البخيل، ولا تجادل الغبي، ولا تختر في رجالك رجلًا غير مسؤول.

8| الصديق المحايد وقت الخلاف مع عدوك لا يختلف عن عدوك.. تخلص منه.

9| النساء حين يقعن في الحب يبذلن كل ما في استطاعتهم، لكن إياك أن تصدّق وعودهن.

10| ما دمت بدأتَ المعركة فلا تنهيها إلا منتصرًا أو مهزومًا.. لا تنسحب مهما كانت العواقب.

11| لا تطلُب من الناس الاحترام.. افرضه عليهم فالاحترام يُفرَض لا يُطلَب.

12| من يرَك قويًا لا تسمح لنفسك أن تظهر له الجانب الضعيف فيك.

13| إن تعثّرت بشخص يمكنك أن تظهر بطبيعتك معه.. تشبّث به.

ختامًا الأيام ستعلّمك معنى كل هذه النصائح، فأتمنى ألّا تنساها أبدًا".

أنهيت قراءة الرسالة..

تنهدت..

الآن إما أن أبدأ أو أنهي كل شيء..

فجأة رن الهاتف:

- ألو!

صوت هادئ جدًا:

- أهلًا ماجد، أنا أسيل وأعرف أين عائلتك، إذا كنت تبحث عن مساعدة فأنا مستعدة لهذا، إلى اللقاء!

***

دكتور كريم | القاهرة

المساء يعني وقته المفضل، أعَدّ قهوته مع سهرة الراديو المُسجّلة المُذاعة على إحدى قنوات الإذاعة المصرية المخصصة للأغاني القديمة..

أحب أم كلثوم وأحب الاستماع إليها، أم كلثوم حالة نادرة وفريدة، تستطيع وحدها أن تشعرك أنك في حالة حب وهيام حين تتغنى: "اللي شوفته قبل ما تشوفك عينيا عمر ضايع يحسبوه ازاي عليا.. إنت عمري اللي ابتدى بنورك صباحه"..

وتشعرك بالحنين حين تتمايل بكلماتها على وتر الحنين قائلة: "وحنيني لك يكوي أضلعي"، وتهزمك بحيرتها حين تتساءل: "وأهرب من قلبي أروح على فين لياليها الحلوة في كل مكان"، ثم تتألم من مرارة الانتظار والليالي الصعبة فتقول: "أسأل عن اللي يقضي الليل بين الأمل وبين الذكرى، يصبر القلب المشغول ويقوله نتقابل بكره،

وبكره يفوت وبعده يفوت ولا كلمة ولا مرسال وهو العمر فيه كام يوم وأنا بعدك عليا طال"، ثم تسأله: "يا ترى يا وحشني بتفكر في مين"..

وتنهي عاطفتها قائلة: "قولي إيه حلو في حياتي وإنت غايب عن عينيا"، ثم تستعيد قوتها وتسأله بكل حزن وكبرياء: "هو حناني عليك قساك حتى عليا ولا رضايا معاك خلاك تلعب بيا أنا يا حبيبي صحيح بتسامح إلا في عزة نفسي وحبي ولما يفيض بيا ما بعرف أسامح وآجي كتير على نفسي"، ثم تختتمها راحلة بشرط تعجيزي لم ولن يحدث أبدًا: "وعايزنا نرجع زي زمان؟ قول للزمان ارجع يا زمان وهاتلي قلب لا داب ولا حب ولا انجرح ولا شاف حرمان فات الميعاد يا حبيبي فات الميعاد"..

مع كل مقطع قصة، وكل قصة كتبها بطلان..

أحلامهم.. أمنياتهم.. دعواتهم.

مخاوفهم.. سعيهم..

لحظات الحب واللهفة والشوق.. ليالي الحنين الانتظار والاشتياق..

وقرار فراق..

قرار واحد أنهى القصة تمامًا..

طريق واحد كانا يركضان فيه معًا وفجأة قرار واحد..

فرّق الطرق..

اختلفت الحياة..

الأحلام..

وكل الأشياء التي شُيّدت وبُنيّت..

في لحظة هُدِمت واختفى آثارها كما لو أنها لم تُشيّد من الأساس..

ظللت أتحرك في غرفتي وأدندن مع أم كلثوم وفي رأسي ثورة من الذكريات..

وقفت أمام مكتبتي أتأمل عناوين الكتب المرصوصة..

لتظهر من بين الكتب ورقة دخيلة أراها لأول مرة..

أمسكت بها..

"لو قُدِر لنا وافترقنا.. إياك أن تتنازل عن أحلامك".

قرأتها عدة مرات، ورقة دخيلة تُعلن بداية ليلة جديدة من الحزن والتعاسة..

هذا خط "ميرال".. جميل وهادئ ومنسق ومنمق وشاعري تمامًا كوجودها..

فوضوي وباهت تمامًا كلحظة فراقها..

أعرف معنى أن تنتهي علاقتك بشخص ما فتختلف الحياة تمامًا بعد فراقه، شيء ما يتغير في روحك، تشعر وكأن الهواء في صدرك لا يريد الخروج، أطرافك تأبى المشي وكأنها كانت تطارد غزالة، كل الوجوه غريبة وكأنك في بلدة لا تعرف لغتها لا تعرف طرقها وأسوارها، مجبر على التعايش فيها لأن كل خرائط عقلك مصمتة تمامًا، لا تعلم وجه إلا المحبوب، ولا تعرف قِبلة إلا وجهتها، تفكر في

أحلامك فتجد أنك لم تحلم إلا بنصف حلم؛ لأن المحبوب الذي قرر الرحيل عنك يملك النصف الآخر، تفكر في أمنياتك فتكتشف أنك لا تملك أمنية إلا ونصفها يخص وجوده وحياتكما الراحلة معه..

تنظر لملامحك تتأمل فيها، فتكتشف أنك أحببتها؛ لأن المحبوب تجمّل وكتب عنها، تنظر للسماء فتكتشف أنك لم تكن تحب النظر إليها، بل كنت تحب نظراتكما وحديثكما عن الغيوم التي تغطيها، تشم رائحة وردة في البرية فتتذكر كل المرّات التي قطفت فيها الورود من الحديقة لتهديها إليها، يصادفك مكان لطيف فرغمًا عنك تتذكر تلك اللحظة التي دوّنتَ العنوان فيها لتصحبه يومًا ما إليه، أعرف معنى أن تنتهي علاقتك بشخص ما فتكتشف أنك مُطارد، تملك نصف الأشياء، أنصاف الأحلام، أنصاف الأمنيات، أنصاف الدعوات، وحياة لم تكتمل..

تقضي أيامك بحثًا عن إجابة لسؤال واحد "كل دا كـان ليه؟!"

لماذا اقتربنا ما دام أحدنا كتب النهاية قبل البدء؟

لماذا اقتربنا ما دام أحدنا لم يكن مستعدًا للتضحية من أجل الآخر؟

لماذا اقتربنا ما دام أحدنا كانت نيته من البداية أن يرحل؟

لماذا اقتربنا ما دام أحدنا صنع الحب والآخر توهّم الحب؟

هل كان حبًا أم أنني أحببت بينما الطرف الآخر كان يقترب بدافع الفضول؟

ثم ماذا لو حـاولنا مجددًا؟

ألم تكن علاقتنا تستحق المحاولة؟

ألم يكن قلبي يستحق أن يحاول أحد لأجله؟

هاجمتني الأسئلة..

كادت أن تفتك برأسي حتى فاجأتني أفكاري بتذكُّر فراق آخر، كان أول فراق مر على حياتي..

"ستبقى هكذا طوال الوقت لن تتغير أبدًا، ستعيش شخصًا وحيدًا طوال حياتك لأنك شخص أناني، مغرور ونرجسي، مريض ستظل تبحث طوال حياتك عن المفقود، ناجح جدًا عمليًا لكنك فاشل اجتماعيًا، صنعت صنمًا وسجدت له، أحببت إنسانة، وضعت الشمس على كفها الأيمن، ووضعت القمر على كفها الايسر، لكنها لم تلتفت إليك، أحبّتك لكنها لم تُحرّك ساكنًا من أجلك، ستبقى هكذا طوال الوقت شخص فارغ عاطفيًا لن يُملأ بالحب أو العاطفة ولو قُدّم له الحب كزيد البحر، ولو قُدّمت لك الحياة على طبق من ذهب لن تلتفت إليها انتقامًا مما قامت به ميرال معك؛ لأنها لم تختَرك على حساب عائلتها وأفكارها، ستعيش طوال حياتك منتقمًا بشعور الرفض، ستعيش حياتك وحدك حتى تموت ولن تجد من يبحث عنك أو يدعو لك بعد وفاتك".

هكذا كتبت في مذكراتي الشخصية، هذه هي الحقيقة التي أتجنبها بعد لحظة الفراق القاسية التي مرّت بي، في مرحلة الجامعة شاب منطوي بشكل كبير، لن تجدني في الزحام لن تجدني في التجمعات، كنت مجرد آلة إلكترونية، أذهب في الصباح إلى الجامعة ثم أعود

إلى السكن أذاكر ثم أغدو في نومي حتى الصباح، حياة بلا أصدقاء، بلا عائلة.. التي غادرتها بعد اختلاف كبير مع أبي الذي اعتاد وظن دائمًا أنني شخص سيئ طوال الوقت بلا هدف، لم يؤمن بي وحين لا تؤمن بك عائلتك لن تصدق إيمان العالم بك ولو اتفق على أنك أنجح من في الأرض، خلافنا كان في غاية الحدة رغم الود الواضح المصطنع أمام العامة، إلا أن أبي كان يرى أنني شخص أناني ومغرور وكذاب، رغم أني لم أقم بموقف واحد يثبت هذه الانطباعات.

حين تركت الإسكندرية كانت بداخلي رغبة واحدة "العودة إليها منتصرًا" لذلك كان عليّ المغادرة سريعًا، فلم أتحمل نظرة أبي القاسية عني وشعور أني فاشل طوال الوقت رغم تفوقي الدراسي عن كل أولاد عائلتي، إلا أنه لم يعترف بهذا، لطالما حاولت محو هذه الصورة الخاطئة عني بمساعدة أمي وإخوتي، لكن هذه النظرة لا تتغير إلا لساعات قصيرة، ثم وما إن أنوي القيام بأي خطوة في حياتي حتى يُذكّرني بفشلي الأول في الحياة..

كنت لاعب باسكيت في نادي الاتحاد السكندري، حينها كان معترضًا اعتراضًا تامًا على هذه اللعبة، على الرياضة بشكل عام، ومع ذلك صمّمت سلك الطريق، خصوصًا بعدما رُشّحت للفريق الأول رغم أن عمري لم يتجاوز السادسة عشر، لقد آمن الجميع بي بينما لم يؤمن بي أبي، ومع ذلك كان يبارك خطواتي بكلمات باردة غير مفهومة، كنت أستطيع التوفيق بين دراستي وهواياتي..

في هذا التوقيت كنت أعرف فتاة جميلة اسمها "ميرال" كانت في غاية الجمال والرقة، تبادلنا الإعجاب واقتربنا من بعضنا البعض،

كانت ميرال تعلم ما أعاني منه، كانت هي أيضًا تملك مشكلات كبيرة مع عائلتها المُشتّتة ما بين أب متزوج وأم تعيش في بيت أهلها، الطلاق أحد أهم الأشياء التي تُغيّر وتؤثّر على نفسية الطفل والمراهق، لذلك كانت ميرال شخصًا في غاية الحدة لا تؤمن ولا تثق في أي شخص، لكنها كانت تجاهد أن تبدو لطيفة معي لأنني أشبهها كثيرًا..

رسمنا أحلامنا معًا، ما أجمل أحلام الطفولة حيث ترى أن بإمكانك الزواج من حبيبتك، دون أي اعتبارات أو أفكار أو عوائق، سنعيش معًا ولو في عشة، بالطبع يا صديقي أنت سمعت هذه الكلمات في طفولتك مع الفتاة التي أحببتها، أنا مثلك تمامًا رسمت كل هذه الأحلام، لكنها مجرد أحلام، تحطّمت تمامًا بعد إصابتي في العمود الفقري، إصابة كانت كفيلة أن تجعلني أقضي حياتي على كرسي متحرك، لكن الله كان رحيمًا بي أنقِذت في اللحظة الأخيرة، ظللت شهرًا كاملًا على السرير ممنوع من الحركة، دعني أقول لك إني تكفّلت بمصاريف علاجي، فقد رفض أبي مساعدتي أو التكفل بي، كان بإمكاني العودة لكن كان الأمر يتطلب السفر للخارج حتى استكمال فترة علاجي، وقد رفض أبي التكفّل بي وأصر أنها مسؤولية النادي..

وفوجئت بعد خروجي أن النادي فسخ عقدي بشكل تلقائي، أخبرت أبي بما حدث وانتظرت رد فعله، أبي الذي تركني وحدي أعاني الأمر، حاولت بشتى الطرق رجاءه أن يساعدني لكنه قال نصًا: "انسَ الأمر لن أدفع جنيهًا واحدًا في علاجك لتعود إلى هذه اللعبة التافهة". لم أنسَ دور ميرال في هذه الأيام، لقد باعت بعض أشيائها الخاصة

من أجل توفير قيمة سفري للخارج، لكن مع الأسف كل ما باعته لم يكفِ حتى لشراء نصف تذكرة الطيران، لم أنسَ هذا الموقف لها يوم أعطتني أكثر من خمسة آلاف جنيه فسألتها: "مِن مَن حصلتِ على هذا المبلغ؟" فلم ترد، أصررتُ على سؤالي حتى أخبرتني أنها باعت إحدى أقراطها التي لا تستخدمها، مع بعض الكتب والملابس المستعملة..

كانت هذه اللحظة فارقة في حياتي، صحيح أني تخلّيت عن أحلامي وخططي، خيبة العالم اجتمعت في قلبي.. أن تُجبَر على أن تفقد أولى أحلامك في الحياة، كنتُ أقف خلف أسوار النادي أُتابع التمرين بكسرة نفس هي الأولى التي أشعر بها، لم يهوّن عليّ هذه الأيام إلا ميرال، كانت تقول: "لا يهم، سنعيد من جديد بناء ما تم تحطيمه". وقتها لم أكن أعرف تحديدًا معنى الحب، لكن إذا كان الحب أن ترى وردة فوق حُطامك تشعرك أن النهاية لم تأتِ بعد حتى إنك تؤمن بالفعل أن رغم حطامك الكبير إلا أنه ما زال هناك فرصة للبدء من جديد فلا أظن أن هناك أجمل من هذا الشعور..

تجاوزتُ هذه المنحة وعدتُ للتركيز في دراستي، كنّا في السنة الأخيرة من الثانوية العامة، لم يتوقف الخلاف بيني وبين أبي، لكنني لم أمكث في البيت طويلًا، في الصيف أتّجِه إلى الساحل الشمالي لأعمل في أحد المقاهي المُطِلّة على البحر، وفي فترة الدراسة أعمل أونلاين حتى أوفر مصاريفي الشخصية، أستطيع أن أقول إني انعزلت بشكل كامل عن عائلتي حتى في وجودي بينهم، ميرال في هذه الفترة بدأ التعب يظهر عليها، حركتها أقل، تتعب سريعًا، وتشعر وكأنها تحمل الدنيا على أكتافها، كانت تحلم أن تدخل

كلية الطب النفسي لتخفِّف عن الآخرين عبء وأثقال الدنيا، لطالما كنت أسخر من اختيارها:

- تريدين التعامل مع المجانين؟

لكنها كانت تضحك عليّ وتقول:

-ليسوا مرضى نفسيين وليسوا مجانين، هم ضحايا المجانين.

أتذكّر ذات يوم قالت:

- المجنون هو ذاك الشخص الذي يقسو على الناس دون أن يشعر بالندم، الذي يستحل أكل حقوق الآخرين دون أي إحساس بالذنب، المجنون هو ذاك الذي يتعمّد إيذاءك بلا سبب، المجنون هو ذاك الذي يفرض سلطته عليك ولا يسمح لك حتى بالاعتراض، المجنون هو كل أب رمى أبناءه وحدهم في مواجهة الحياة، بخل عليهم بالمودة والعطاء وحرَمهم من شعور أنه سندهم في الدنيا، المجنون هي الأم التي أهملت في حق بناتها وعنّفتهم حتى شوهتهم نفسيًا، هي الأم المشوّهة التي لا تملك من الأمومة شيء، المجنون هو كل شخص عدواني قاسي وعنيف لا يشعر بأفعاله ولا يهتم بما يحدث للآخرين، كل ما يهتم به هو إرضاء نفسه وليسقط العالم من بعده.

كثيرًا ما أخبرتني عن المشكلات الحادة التي تحدث في منزلها، وأنها تعيش تحت طائلة أب ظالم وأم لا تبالي بالدنيا، ومع ذلك فهي تسعى في حياتها للنجاة من هذه البيئة السامة، كانت تحلم وتأمل بمساعدة الآخرين، ما كان يرهقني في هذه العلاقة أنها تختفي لفترات طويلة جدًا ثم تعود شاحبة الوجه وكأنها كانت في معركة

حامية، أسألها عما حدث فتخبرني أن كل شيء على ما يرام، مرت الأيام وترابطت علاقتنا أكثر وأكثر، حتى جاء ذاك اليوم المشؤم..

ليلة نتيجة الثانوية العامة يومها كنا نجلس على كورنيش الإسكندرية، بدا عليها التوتر والقلق، كانت تُلمّح أن الغد يوم مصيري في حياتها، هو يوم مصيري في حياتنا يا ميرال هو ظهور النتيجة، لكنها لم تكن تستجيب لهذا السبب، كان في عينيها شيء آخر لم أفهمه، وفي صباح اليوم التالي ومع ظهور النتيجة كانت درجاتي تجاوزت الثماني وتسعين في المئة، وصدقًا لم تكن لديّ أحلام أو أهداف معيّنة أو كلية أستهدفها، أردتُ النجاح للنجاح، السعي للسعي، أو لأُثبت لأبي أني لست شخصًا فاشلًا، رغم الأفراح والتهاني لم أهتم إلا بنتيجة ميرال، اتصلتُ بها أكثر من عشر مرات ولم ترد عليّ، فتحت حسابها على الفيس بوك فلم أجد شيء يذكر عنها، حاولت البحث عن حساب أختها فلم أجده، لقد كانت ليلة في غاية القسوة، غلبني النوم وفي الصباح أيقظني أخي:

- ميرال ماتت!

- ماذا؟!

فتحتُ حسابها على الفيس بوك ففوجئت بعشرات منشورات النعي، ماذا حدث؟ كيف ومتى حدث هذا؟

لم أصدق ما حدث، كنت في حالة صدمة تامة، لم أشعر بنفسي إلا وأنا في مراسم الدفن في مدافن المنار بالشاطبي، كنت أمشي بينهم في حالة ذهول وصمت تام، لا أستوعب أبدًا ما يحدث، أرى إخوتها وعائلتها في حالة انهيار فلا أصدق أبدًا أنهم يبكون على صديقتي

الوحيدة، لم أتمالك نفسي ومشيت أبكي وسط الحضور..

ليس لديّ أصدقاء، هي صديقتي الوحيدة، لا أملك عائلة هي عائلتي، هي كل أصدقائي وعائلتي وحياتي، الوحيدة التي آمنت بي والوحيدة التي كانت تخشى عليّ من الدنيا، هي ملجأي حين أصبحت غريبًا عن الجميع، وهي أماني حين أنهكني الخوف، وهي لحظات قوتي حين تملّك مني اليأس.

كنت أضعف من هذه اللحظات، في لحظات الدفن لم أرَ ميرال هي من توضع في القبر بل رأيت أيامي وشبابي وأحلامي، لم تتضح أسباب الوفاة ولم تكن هناك فرصة لمعرفة الأسباب، ظللت في مراسم الدفن حتى انتهت تمامًا وعدت إلى المنزل..

ليلة وفاة ميرال أردت أن أتصل بها لأخبرها بوفاتها، فلم أكن أملك شخصًا واحدًا أشاركه تفاصيل يومي إلا هي..

عدت إلى المنزل..

طرق أخي الباب:

- أقرأ المنشور الأخير على صفحة ميرال.

بيد ترتعش وعين تملؤها الدموع..

في بداية المنشور مكتوب:

أنا أخت ميرال، لقد وجدت هذا المنشور مُثبّت ومَخفي في صفحتها مع وصية أن يُنشَر هذا المنشور يوم لن تستطيع قراءته مرة أخرى..

"أصدقائي الأعزّاء..

يؤسفني أنكم تقرأون هذه الكلمات.. أنا حبيبتكم وصديقتكم الوفيّة العنيدة التي طالما واجهت الحياة بكل قسوة وضراوة، لقد ترددتُ كثيرًا في كتابة هذه الرسالة وترددتُ أكثر في الخطوة التي حال قراءتكم لهذه الرسالة تعني أنني قُمتُ بها بالفعل..

أنا خائفة..

خائفة من الماضي الذي يطاردني في كل مكان، من الذكريات التي تحاوطني كشبح لا ظل له، خائفة من الأصوات العنيفة التي تحدُث في رأسي، إنني أُشبه رضيعًا مذعورًا في ليلة قصف منزله، أنا مرعوبة كأنني في عرض محيط مظلم محاط بالحيتان من كل مكان، أنا حزينة كمدينة مزدهرة ابتلعها الطوفان، فلم يَعُد فيها شيء قابل للحياة، أنا محطمة كشخص سعى طوال حياته من أجل فكرة ثم يكتشف بعد ضياع أيامه أنه لم يحاول في الطريق الصحيح من الأساس، هذه الأصوات تبتلع رأسي وتبتلع أفكاري وتبتلعني..

أشعر دائمًا أنني مهددة، الموت سينال مني في أي وقت، هو هناك يقف بعيدًا ويراقبني ويبتسم، أنا خائفة من الأصوات المزعجة في رأسي، خائفة من الظلام الدامس في قلبي، لا أستطيع الوثوق في أي شخص، لا أستطيع إعطاء الأمان لأي شخص، لا أستطيع تصديق أي شخص، كل العالم يطاردني، كلهم ينظرون إليّ نظرة المُتّهَمة المجرمة، أنا المحكوم عليها بالشقاء الأبدي، بالخوف الأبدي، بالرفض الأبدي، أنا المذنبة وأنا المجرمة وأنا الفتاة المتمردة التي تعصي والدها، ذات القلب القاسي، الابنة العاصية، لكن لم يسأل أحد عن

السبب، فاعذروني على الإطالة..

السبب في هذا الخوف هو أبي، الرجل المؤمن الملتزم، أول من كان من المفترض أن يحميني وأومن به ويكون سندي في الدنيا، في طفولتي وحين كانت تغيب أمي عن المنزل، كان يتحسس جسدي، في طفولتي لم أكن أعرف ما يقوم به وحين أسأله كان يقول إنه يطمئن أنني لست مريضة، كانت لمساته مُربكة لكنني كنت طفلة لم أفهم ما يقوم به، كان يؤكد عليّ كل فترة ألا أخبر أحدًا بما يقوم به وإلا سيقتلني.

في كل فرصة كانت أمي تذهب لزيارة عائلتنا كان يرفض خروجي معهم بحجة أنه لا يحب الجلوس وحده، في هذه الأثناء كان يسحبني لغرفة النوم ويمارس معي الجنس، الأمر كان مؤلمًا لكنه ليس ألمًا جسديًا بل ألمًا نفسيًا لأنني وقتها لم أفهم ما يقوم به، وبعد أن ينتهي من هذا يُشدّد ألا أخبر أحدًا بما يحدث، ظللت فترة طويلة مقتنعة أنه يطمئن على صحتي رغم كل الآلام التي كنت أشعر بها، ومع مرور السنوات بدأت أدرك وأفهم ما كان يقوم به أبي!

كانت صدمة حين تحدّثت معنا المعلمة عن العلاقات الزوجية وما يحدث في العلاقة الحميمة، كانت صدمة أكبر حين أخبرت صديقتي بما حدث فأخبَرَت المُدرسة، انقلبت الحياة واختلف كل شيء، استُدعِيَ والدي إلى المدرسة، وتحدّثت معه مسؤولة الشؤون الاجتماعية عن الأمر، بالطبع أنكر كل هذا وليلتها كسر أبي ذراعي من فرط الضرب، كانت حجته أن المدرسة استدعته لسوء سلوكي، لم أملك جراءة كافية لمواجهته، كان كابوسًا لأنني قرأت وتعمقت

أكثر في هذا الموضوع وأعيدت كل المشاهد القديمة في ذاكرتي، لا أستطيع المواجهة..

ظل أبي ساخطًا عليّ متبرأ من ذنبه الأبدي، صحيح أنه توقف حين أدرك أنني أصبحت أستوعب ما حدث، لكنني كنت دائمًا أخشى نظراته، أخشى انقلابه عليّ وتهديده الدائم، لقد احتفظت بهذا السر لنفسي لأنني أعلم أن لا أحد سيصدقني، بل إنهم سيتهمونني بالجنون، لأن أبي رجل دين ذو خلق وسمعة طيبة، حاولت التأقلم لكنني اكتشفت أنني أصبحت أخشى التلامس ولو لمجرد السلام، حين تعانقني صديقاتي أشعر وكأنني عانقت صبارًا، أشعر وكأن مسًا كهربيًا لمس جسدي وجعلني أرتجف، صحيح أن هذا الشعور لم يلاحظه أحد، لكنني كنت أشعر به، سَرَت الأمور على هذا القبيل حتى شعرت بشيء ما في رأسي، شيء ما يشبه الكهرباء المستمرة طوال الوقت، كنت أتعرض للإغماء، وحين أستيقظ وأجد أبي أمامي أفتّش على جسدي وأبكي وأصرخ، لست متأكدة أنه قام بتصرفاته القديمة، لكنني كنت أرتجف كلما رأيته..

الصدمة الثانية ليلة تشخيصي بالسرطان، رأيت مشاعر الحب والدّفء من عائلتي، لكنني كنت أصرخ كلما رأيت أبي، موقفي منه لم يتغير وهو السبب في كل هذا، ربما لو كان جاء واعتذر لخفّف على نفسي شعور الآلام، لكنه كان ينكر طوال الوقت ما قام به، من الغضب والخوف كان يبتل فراشي كأنني رضيعة، بدأت جلسات العلاج كنت آخذ جلسات الكيماوي ثم أتعمد تركيب الرموش الصناعية مع الشعر المزيف وأخرج للنادي وللدروس، كما لو أن شيء لم يحدث، هذا سبب اختفائي المستمر يا أصدقائي، لست قاسية

لكنني كنت أغيب عنكم لجلسات الكيماوي ثم أعود لأنني لا أريد أن أبدو غريبة عنكم، لأنني كنت أريد الحياة مثلما تريدونها أنتم..

ما يدفعنني للبقاء حية حتى كتابة هذه الكلمات هو حلمي الكبير.. أن أكون طبيبة نفسية، لأساعد كل شخص عانى من عائلته، كل فتاة رأت ما رأيته وتألّمت مثلما تألمت، وكتمث في روحها مثلما كتمث في روحي، ما يدفعنني للبقاء حية هو إيماني أن ما حدث معي يستحق التوثيق، ويستحق أن أمهد للآخرين الطريق حتى لا يعانوا مثلما عانيت، وحال قراءتكم لهذه الكلمات تعني أن مجموعي في الثانوية العامة لم يسعني لتحقيق حلمي، هذا لا يعني أنني فشلت، لا أخفي عليكم كنت أدخل الامتحانات وقبلها بساعات كنت أستفيق من جلسات الكيماوي، لقد رفضث تقديم تقريري الطبي للمدرسة حتى لا أشعر بالغربة أو أنني مختلفة عن أصدقائي، لذلك فأنا سعيدة بما وصلت إليه أيًا كانت النتيجة النهائية، لكن سعادتي لن تخفي أبدًا النهاية، فـ المرء ما هو إلا حلم ما إن ينتهي حتى ينتهي معه..

لـن أطيل عليكم أكثر من ذلك، هذه رسالتي لإخوتي..

لا تتهاونوا في حقوقكم مع والدكم، أنا آسفة لو كان رحيلي عنكم سببًا في حزن وضيق، لقد حاولث كل هذه السنوات من أجلكم، لقد خبئت عنكم حقيقة والدكم حتى لا تُكنّوا له مشاعر كُره ورفض، وأرجوكم أن تحملوا ضده هذه المشاعر، ربما قد أخطأ في حقي وتاب عن خطئه، لكن توبة الظالم لا تعني رد حق المظلوم، اعتنوا بوالدتكم أيضًا صحيح أنني أملك عتابًا كبيرًا، فلو كانت حاولت

فهم ما أريد إخبارها به لربما هوّنت عليّ هذه الأيام، أتفهم أن ما حدث قد لا تستطيع تصديقه لكنها الحقيقة، خفّفوا عنها صدمة معرفة الحقيقة، خففوا عنها الآلام التي تشعر بها برحيلي، واتركوها تحتويكم هي ستفعل هذا على أكمل وجه تعويضًا عن كل الأيام التي لم تحتوِني فيها..

إلى صديقي وأخي كريم..

أرجو أن تُنفّذ وصيتي لك، وارحل عن البيئة الفاسدة التي تعيش فيها، أنت شخص جميل، أجمل مما تظن عن نفسك، الأحلام التي تحطّمت ما هي إلا فرصة لبناء أحلام جديدة، ثِق.. سيعلو نجمك وستصبح شخصًا ناجحًا، أعتنِ بقلبك هو يستحق الحب، أعتنِ بقلبك وتأكّد أنني تمنيت أن أسكنه وأعيش فيه، لكنني كنت أتعمد القسوة عليك لأنني لا أريد أن أتسبب لك في وجع وحطام قد لا يُنسى طوال حياتك، أرجوك دافع عني ولا تسمح لأحد أن يتهمني بالكفر لأنني انتحرت، صدّقني كل ما في الأمر أنني لم أعد أتحمّل جلسات الكيماوي، لم أعد أتحمل وجودي في بيت واحد مع أبي، ولن أتحمل نتيجة الثانوية العامة حال تدمير أحلامي، ثق في نفسك ولا تتهاون في حقوقك، ولا تصدق أي شخص يحاول التقليل أو التشكيك في نفسك، أنت عظيم لأنك مررت بكل هذا وحدك وما زلت تسعى وتحاول، ستكون شخصًا ناجحًا، زوجًا وفيًا، وأبًا مثاليًا، هذه نظرتي لك أرجوك لا تخيّبها أبدًا..

إلى صديقاتي..

الأصدقاء هم البيوت الدافئة، أعتذر لكل صديقاتي اللاتي لم

أبادرهن العناق، لست قاسية كما كنتم تظنون عني، بل كنت في أشد الحاجة إلى عناق دائم، كنت أرتجف من الوحدة والخوف، لكنني كنت أبتعد وأرفض التلامس لأنني أتذكّر ما حدث معي في طفولتي، هذه المشاهد لم تغب عن عيني لسنوات وسنوات، هذه المشاهد التي كانت تظهر حين يلامسني أي شخص، آسفة إن كنت تسببت لكم في شعور مزعج، صدقوني حدث هذا رغمًا عني، أتمنى لكم حياة هادئة لأنني لم أرَ منكم إلا الحب واللطف رغم كل سخافاتي..

إلى أبي..

لن أسامحك مهما حدث، أنا خصيمتك أمام الله، لكن إن أردت مسامحتي فأرجوك كن لطيفًا ودودًا مع أمي وإخوتي، أرجوك لا تؤذِهم، لا تسرق حقوقهم ولا تقش عليهم، عوّض كل ما حرمتني منه، احتويهم، كفِّر عن ذنبك بمعاملتك لهم، لقد كنتَ في غاية القسوة مع الفتاة الوحيدة التي احتمت بك، لقد كنتَ وحشًا معي بينما كان عليك أن تحميني من وحوش العالم الخارجي، لقد كنتَ أنت السيئ بينما كان عليك أن تحميني من السيئين، كل ما حدث لي هو نتيجة ما قمتَ به، صحيح أنني لن أسامحك في هذه الحياة، لكن إن أحسنت معاملة أمي وإخوتي فربما سيكون سببًا كافيًا لأسامحك في حياتنا الأخرى..

إلى العالم..

أحبك رغم كل ما رأيته منك من حزن ومأساة..

أحبك رغم كل المعاناة التي عشتها فيك..

دعواتكم بالرحمة"..

أنهيت قراءة الرسالة منهارًا تمامًا، فهمت لم القسوة، فهمت أسباب الرفض وفهمت أسباب الهجر المفاجئ، فهمت بعد فوات الأوان..

بعد أسبوع من هذا الحدث وجدت نفسي في القاهرة بعدما قرّرت مغادرة أرض لم أرَ فيها إلا الهزيمة والفقدان والخذلان.

وأنا أعرف جيدًا تلك الحالة.. إن استسلمت لها فلن أنهض غدًا لمواصلة حياتي، أشعلت سيجارتي ثم أطفأت الأنور وغدوت في نومي آملًا ألا تطاردني تلك الأسئلة في منامي..

الصباح ما هو إلا رسالة جديدة يخبرك فيها أن: "لن ينتهي البؤس أبدًا"

نهضت من على سريري رغمًا عني..

فصدقًا أكثر ما كنت أحتاجه هي عزلة بعيدًا جدًا عن الناس، لا أريد التعامل مع الناس من الأساس ليس كرهًا لهم لكني مثقل بـ أفكار كفيلة أن تجعلني أجلس لأيام وربما شهور لأعرف ما أصابني..

اتجهت معلنًا أمام نفسي أنني لا أملك رفاهية الانهيار..

ما إن وصلت حتى استقبلتني السكرتيرة بابتسامتها الخبيثة التي تشير إلى يوم شاق:

- روان في انتظارك دكتور.

دخلت المكتب فكانت روان التي بدأت معها رحلة تعافيها قبل أشهر منتظرة قدومي، ما إن رأتني حتى قالت:

- في جلستنا السابقة قلتَ إن أشد الضربات لا تأتي من الأعداء الذين يكيدون لك المكائد من بعيد، إنما من أولئك الذي يقفون بجوارك لأطول وقت ممكن، هل تتذكر هذه الكلمات؟

هززت رأسي فواصَلَت:

- حينها لم أعارضك، ولم يتناقش معك أحد حول هذا الموضوع، لكن الحقيقة أنني كنتُ أريد إضافة شيء على ما قلته..

أن يكون أعداؤك هم المسؤولون من الأساس عن حمايتك من الأعداء..

ترى ممن هؤلاء المفترض عليهم حمايتك؟!

أصدقائك؟ ربما..

شريك حياتك؟ وارد..

إخوتك؟ نسبة وتناسب..

كل هؤلاء وارد جدًا حمايتك، لكنهم ليسوا مسؤولين مسؤولية كاملة عن هذه المهمة..

بالطبع إلا أمك..

كما يقولون جيشك الوحيد، أنا أضحك حين أسمع هذه الكلمات والجمل الرنانة التي تتحدث عن فضل الأم يا دكتور، أمي هي ألد أعدائي، لقد ولدتني ومن اللحظات الأولى في حياتي قرّرتْ أن تبدأ معركتها الطويلة مع جنين ما زال في ساعاته الأولى، هكذا كانت تخبرني أنها قضت ما يقارب الشهرين لم تنظر لوجهي لم تلمسني لم

تقترب مني، والسبب أنني تسببْت في آلام كبيرة لها في فترة الحمل، وفي أعوامي الأولى في الدنيا لم تهتم أبدًا حتى بأبسط احتياجاتي التي لا يمكنني التعبير عنها، كالذهاب لقضاء الحاجة أو حتى المساعدة على خَطو أولى خطواتي في الدنيا، كانت حجتها أنها مرهقة، دائمًا مرهقة ولا تقوى على تربيتي، ومع ذلك لم تسمح لأي شخص أن يقترب مني أو يساعدني على أبسط احتياجاتي، كانت حجتها:

"دعوها تساعد نفسها"..

طفلة لم تتجاوز ثلاث سنوات عليها مساعدة نفسها!

وفي يومي الأول في الدراسة لم أجد إلا عمتي توصلني إلى المدرسة، كان هذا شعورًا مريبًا حين سألتها "لماذا لم تأت أمي معنا؟" كانت حجتها أن أمي مرهقة ولا تستطيع النهوض مبكرًا، كنت حين أعود مُرهقة تبدأ في وضع مهام لتنظيف المنزل، وحين أتكاسل تقول "أتريدين أن تحزن أمك منك؟" كانت هذه الكلمة الأشد رعبًا؛ لأن حزنها لا يتوقف عند العتاب، بل تبرحني ضربًا بكل ما تملكه من قوة، حتى إن آثار الحزام تظل على جسدي..

كل هذه الأشياء لم أفهم سببًا لها، أمي كانت تكرهني أشد كره ورفض كما لو أنني ألد أعدائها، وحين كبرت وبدأت في فهم الحياة كان قرارها ألا أواصل تعليمي، لأنها ترى أن لا فائدة من التعلم، رغم تفوقي الدراسي كانت ترى أنها تستحق أن ترتاح بعد سنوات من التعب والتربية، وأفضل من يريحها هو وجودي بجوارها لأساعدها في المنزل، لا أعرف أي تعب كانت تتحدث عنه! فهي لم تكترث حتى

لأبسط احتياجاتي، وهنا كانت بداية التمرد الحقيقي على أمي، حين قررت أن أضرب عرض الحائط وأواجهها بكل ما قامت به، اجتمعت العائلة وصرخت في وجهها:

- "أنتِ لم تربِني من الأساس"

أنتِ تحقدين عليّ، تحقدين على ابنتك، تظنين أنها جاءت لتسرق مكانتك في قلوب المحيطين بنا، تربيتك على الخوف، حتى إنني أراك في كل مكان حولي، أرفض رفضًا كل متطلبات الآخرين اعتقادًا مني أنهم سيخبرونك عن الأمر، لقد جعلتي مني شخصية مطيعة من الدرجة الأولى، تخشى أن ترفض طلب لأي شخص مهما كان، أنا أدفع ضريبة الخوف والقلق..

ماذا لو ظللت تردد لطفل في بداية حياته:

"أنت قبيح"

سيظل معتقدًا طوال حياته أنه قبيح..

ماذا لو ظللت تردد لطفل في بداية حياته:

"أنت مخطئ"

سيظل طوال حياته معتقدًا أنه على خطأ حتى على الأشياء التي لم يرتكبها..

سيظل معتقدًا طوال حياته أنه على خطأ حتى إنه لن يصدق حين يقوم بتصرفات صحيحة، سيظل طوال حياته يشعر بالخطأ والذنب بلا سبب، سيظل طوال حياته معتقدًا أنه لا يستحق كل الأشياء

الجميلة التي قد تحدث وستحدث معه..

ماذا يعني أن تجلد ذاتك وتتعايش مع شعور أنك لا تستحق الحياة، أن تعيش تحت تأثير أنك دائمًا الطرف المخطئ، أن تقضي أيامك مُحمّل بذنب لا تعرفه وتريد الاستغفار والتبرؤ عنه ومنه، أن تعيش تحت رحمة الظنون والأفكار وانطباعات الآخرين عنك، أن تعاتبها أشد عتاب فترى كل يوم أنك لا تستحق الحياة، كل لحظة فرح تراودك تشكك فيها وتقول "أنا لا أستحق هذا الشعور" كل نجاح تحققه في حياتك تسمع صوت بداخلك يهمس "أنت لا تستحق هذا النجاح" حتى مشاعر الحب التي تشعر بها تسمع صوت داخلك يهمس "هم لا يعرفون حقيقتك لا يعرفون أخطاءك القديمة، أنت لا تستحق هذا الحب" يسيطر عليك هذا الشعور حتى إنك لا تعترض على الظلم؛ لإيمانك أنك تستحق الظلم، يسيطر عليك هذا الشعور حتى إنك تقبل التجاوز في حقك لإيمانك أنك تستحق كل هذه التجاوزات، ستظل هذه المشاعر تراودك طوال الوقت حتى تفقد إيمانك بنفسك وتجعل من قلبك ومشاعرك عرضة ومباحة للجميع يستغلونها لمصالحهم الشخصية والعاطفية. تريد أن تصنع إنسانًا ضعيفًا هشًا تفترسه الحياة بكل قوتها؟ اجعله يشعر بالندم والذنب واللا استحقاقية طوال الوقت...

صمتت روان أثناء كتاباتي لبعض الملاحظات..

- لقد تعبت من الحكي، لنلتقي الأسبوع القادم.

نهضت روان من مكانها ووقفت عند الباب ثم قالت قبل أن تغادر:

- يمكن للمرء أن يتجاوز كل الهزائم التي مرّت به إلا هزيمته من

عائلته لا تُنسى وقد لا تغتفر.

ثم غادرت..

تنهدت، لم أكن في حاجة للاستماع للمزيد من المشكلات والهموم، تذكرت الكثير من الأشياء المؤذية التي مرت علي، لميرال قصة وللنساء التي أحبتني ولم أحبهن قصة، الثابت فيها هو الألم والمتغير الوحيد هم الأشخاص، أظن أنني كنت فندقًا رائعًا لكل امرأة عرفتها، وقت مستقطع من ضغوطات الحياة، غرفة هادئة وجميلة، يمكنك فيها أن تتعرى وترقص وتغني وتشرب تضحك وتبكي وتمارس كل ما لا تستطيع ممارسته في حياتك العادية، أنت هنا في حرمة حريتك الشخصية، الدخول إلى هذا العالم صعب، لكن الخروج منه أسهل من الخروج من منزلك فأنت على يقين أن ما حدث بيننا سيبقى بيننا وللأبد..

من عمق ذكرياتي اتصلت بي ميادة السكرتيرة لتخبرني أن السيد مدير المستشفى مصطفى ينتظرني في مكتبه..

تنهدت ثم نهضت متجهًا إلى مكتب دكتور مصطفى أبو المجد..

دكتور مصطفى أبو المجد رئيس مستشفى الحياة، والمسؤول الأول والأخير عن كل أقسامها، هو رجل ديكتاتوري من الدرجة الأولى، أن تسأله عن أي قرار أقرّ به أشبه بكتابة شهادة وفاة لك، فهو لا يقبل أبدًا المناقشات، في جرة قلم قد تصبح أحد أهم الأطباء عنده وفي جرة قلم قد تُنقل إلى أدغال الصعيد عقابًا لك، لا يحب وهذه هي فلسفته "أترك مشاعرك عند بوابة المستشفى" فهنا إن ظهرت العاطفة عليك فستحتاج أنت والحالة التي تشرف عليها

إلى طبيب نفسي يعالج اضطرابكم النفسي، كذلك لا يحق في أي شخص ثم إنه يعطي لنفسه كل الصلاحيات في التدخُّل وفرض السيطرة بطريقته الخاصة في طرق علاجك الحالة، وربما تجد قرارًا باستبعادك عن متابعة بعض الحالات التي تشرف عليها لمجرد أن مزاجه سيئ لا أكثر ولا أقل.

حين يستدعيك للمكتب فأنت لا تملك إلا مراجعة نفسك في كل التفاصيل؛ لأنه حتمًا ولا بد قد وقعت في خطأ ما، فهو لا يحب التحدث مع الأطباء من الأساس، بل استدعاءه لك يعني قرار جديد ينتظرك، ورغم هذه الرهبة في التعامل معه إلا أنني شخصيًا أحب فكرة استدعائي؛ لأنه ببساطة شديدة شخص ملهم بالنسبة لي، خصوصًا أنني أجيد التحدث والمناقشة معه وكأنني أروّض أسد جائع يريد أن يفرض سيطرته عليك لـ يلتهمك..

دخلت المكتب فوجدته كالعادة يقرأ في بعض الملفات، دون أن يلتفت إليّ قال:

- كريم، نتائج الحالات عندك سلبية، أرى أنك في حاجة لإجازة.

لم أرد عليه، فأنا لست من هؤلاء الذين يملكون مبرر لأخطائهم..

التفت إليّ وقال:

- المشكلات الشخصية لا يجب أن تؤثر على مهامك العملية، تفهم جيدًا ما أقوله لك، بالأمس أحد الأطباء التقط لك صورة وأنت خارج من إحدى الحانات القريبة من المستشفى، وقبل أن تقول إن هذه حياتك الشخصية ولا دخل لنا بها، أنت تعلم جيدًا أنك واجهة

للمستشفى ولا يصح أن يراك أحد بهذه الصورة.

بدأت أشعر بالغضب من كلماته، لكنه واصل:

- انظر لنفسك، ملابسك، لحيتك، عينيك، وجهك الشاحب، أنت تُشبه المدمنين يا كريم، هذه ليست الواجهة الرئيسية للمستشفى ولن أسمح أبدًا أن تهتز صورتنا أمام مجلس الأطباء، أنت لا تقدر الوضع والمسؤولية التي على عاتقك.

تنهدت محاولًا أن أعبّر له عن غضبي من طريقته التأديبية معي، لكنه واصل بعدوانية:

- هذه المستشفى وهذا الاسم الكبير الذي تتشرف بالعمل فيه صنعه أهم وأكبر الأطباء في مصر، ورئيس قسم الصحة النفسية حمله أسماء لها ثقل ووزن في مصر والعالم كله، ولن أسمح أبدًا أن يُدنّس من شاب مراهق مثلك تهزمه امرأة، فيسلك طرق الحانات ويهمل في عمله ويضيع مستقبله.

وقفت أمامه ثم قلت معترضًا:

- أستأذنك دكتور مصطفى.

وخرجت..

غدت إلى المكتب في حالة ثورة عارمة..

التدخين بشراهة..

كدت أحطم المكتب بكل ما فيه..

حتى طرق الباب أحدهم. كان دكتور علي..

جلس وعلى ملامحه شيء من الشماتة والسخرية، متسلط من أيام الجامعة، يراني أحد أعدائه، وقد صنع في مخيلته خصومة لا أعلم سببها، ولسوء الحظ أننا اجتمعنا في عيادة واحدة، علاقتنا تبدو أمام الآخرين جيدة ومستقرة، إلا أن في الباطن أعلم أنه يكرهني، وهو يعلم أنني لا أثق به..

جلس على الكرسي ثم قال ساخرًا وهو يضغط على علبة المعطر:

- رائحة السجائر شنيعة، كيف تتحمل البقاء هنا؟ تحتاج لمهدئات..

- ماذا تريد؟

- أهكذا كان يستقبل رئيس قسم الحالات النفسية زواره في مكتبه؟!

لديّ بعض الملحوظات على هذا المكتب..

أرى أن ألوانه كئيبة..

هذه المكتبة قديمة وعتيقة لا تناسب ذوقي..

وأحتاج إلى التهوية لأنني لن أستطيع الجلوس هنا دون تكييف..

قلت محاولًا ألا ألكمه في وجهه:

- أرى أنه يناسبني..

قال وهو يضحك:

- صحيح، أفهم هذا لكنه لن يعد كذلك بعد الآن..

قلت:

- ماذا تريد يا علي؟

قال وهو يضحك:

- دكتور علي، رئيس قسم الصحة النفسية في مستشفى الحياة للأمراض النفسية والعصبية والإدمان، ألم يصلك بعد قرار عزلك من الرئاسة؟

- ماذا تقول؟

قال وهو يقترب من الكرسي الذي أجلس عليه:

- من فضلك أعطِ السكرتيرة كل الملفات التي لديك، مسموح لك بالعودة إلى المنزل لكن من صباح الغد عليك أن تأتي مبكرًا.

- أنت لا تستحق هذا المكان يا علي.

- أُقدِّر خوفك وحرصك على المكانة التي وصلت إليها، لكن صدقني لن أكون أكثر سوءًا من رئيس عُزل بسبب صورة أُلتقِطت له في حانة قريبة من المستشفى.

لم أتمالك أعصابي ولكمته بالفعل، فضغط على زر استدعاء السكرتيرة التي حضرت على الفور:

- استدعِ الممرضين فورًا فـ لدينا حالة انهيار عصبي.

وقفت السكرتيرة بيننا..

وجهت نظري نحوه:

- القصة لم تنتهِ هنا

قبل خروجي من المكتب قال:

- دكتور كريم، لا أقبل اللحية الطويلة، ومن فضلك اعتني ببشرتك جيدًا، أنت تعرف أن الواجهة العامة للدكتور مهمة جدًا.

أغلقتُ الباب بقوة كدت أن أكسره..

أدرتُ محرك السيارة وعدت إلى المنزل..

في رأسي فكرة واحدة "كيف لشخص واحد أن يغادر حياتك فتشعر أنك غادرت العالم كله؟!"

العودة إلى المنزل مهزومًا هي واحدة من أصعب اللحظات التي يعيشها المرء، بين جدران غرفته لكنه يشعر بالغربة، ممدد على سريره لكنه يشعر أنه ممدد على حقل من الأشواك، يشم هواء المنزل لكن صدره لا يستقبله، بل يرفضه رفضًا تامًا، يحمل معه خيبة الآلام والآمال..

كلما رأيت علي تذكرتُ جميلة وعلاقتي بها، لقد كان أكثر الناس رفضًا لهذه العلاقة، يغار مني ومن درجة القرب التي بيننا، حتى إنه كان يتعمّد التقليل من شأني أمامها، لقد كانت جميلة بمثابة طوق النجاة التي استطاعت أن تخفف عني ما رأيته في الإسكندرية، لقد أحببتها من كل قلبي، لكن أحلامنا لم تكن متوافقة، كانت تحلم بالمجد والحرية والثراء، وكنتُ شخصًا يبحث عن السكينة والاستقرار، أنا المهذب الجميل وهي المتفتحة الجميلة الشقية، هذه العلاقة التي غيّرت كل ما فيّ من صفات اعتززتُ بها في نفسي، فرغم الحب لكنني كنت مجرد ولد مهذب بالنسبة لفتاة ترى الحياة

بمنظور المغامرة والتجربة والجنون، ربما ما يحذ في الرجل أن ترفضه فتاة لمجرد أنه مهذب، أتذكر يوم اعترفتُ لها بمشاعري، ضحكت ضحكة ربما سمعتها الجامعة بكل ما فيها، اعتذرَت عنها لكنني فهمت معناها تمامًا، هي لم ترفضني، بل سخرت حتى من الفكرة..

- اسمعني يا كريم، أنت شخص جيد لكنك لا تناسبني أبدًا، أنا فتاة مختلفة عنك، أنا أرى الحياة رحلة تستحق المغامرة، بإمكاني القيام بكل شيء من أجل التجربة والحرية، أنت شخص محافظ جدًا، أنا أستطيع تجاوز كل شيء سريعًا، أنت شخص متيم بالتفاصيل والاستقرار، أنت شخص جيد لكنك بالنسبة لي مجرد شخص تعاطفت معه، شخص متربي أربع مرات لن أقبل أن يُلوّث بامرأة متحررة مثلي.

لا أخفي عليكم لقد ساعدتني كثيرًا هذه الفتاة أن أتعافى من حطام الماضي، تعلّقتُ بها وأحببتها من كل قلبي، أنا لست شخصًا سريع الهوى لكنني أحس الحنية، تأسرني الحنية واللين في التعامل، الود واللطف، أعطي نصف عمري لمن يحنو علي ويعاملني بلطف ولين، عشت صدمة قاسية في هذه الفترة، لقد كنت وفيًا جدًا معها، وفيًا حتى إنني كنت أخشى النظر للنساء الأخريات خوفًا أن تشعر بالحزن أو الضيق، كنت أتجنب كل فعل قد يتسبب في إزعاجها، لقد كنت حريصًا على كل تصرفاتي حتى لا تزعجها، كنت أراها طوق الأمل الذي أنقذني أنا الغريق في بؤسي وتعاستي، لقد رتّبَت الفوضى التي جئت بها من الإسكندرية، بالنسبة لها أنا شخص وصديق جيد وبالنسبة لي كانت تمثل العالم..

ماذا يعني الفراق؟ أن يتهشم ثم يتحطم قلبك تمامًا وأنت في قمة ثباتك وهدوئك..

ماذا يعني الفراق؟ أن تبتسم وفي قلبك سكاكين مسمومة تسلخ في قلبك بكل هدوء..

ماذا يعني الفراق؟ أن تشعر بغصة في حلقك.. وكأن العالم كل العالم يقف في حلقك..

ماذا يعني الفراق؟ أن تشعر أن أقدامك مبتورة وتتحسسها كأنها لم تعد موجودة..

ماذا يعني الفراق؟ أن تفقد السيطرة على رعشة جسدك، كل ما فيك يرتجف..

ماذا يعني الفراق؟ أن تشعر أن قلبك ينخلع من بين صدرك..

ماذا يعني الفراق؟ أن تشعر أنك لم تعد أنت..

شهادة وفاة لك وأنت على قيد الحياة..

انتهت العلاقة لكنني لم أستطع تجاوز شعور الرفض منها وسرعان ما تغير كل شيء في حياتي..

ركزت في استكمال تعليمي لكنني أصبحت أكثر شراسة، اعتدت الحانات واعتدت السهر ومعاشرة النساء، هذا التغيير القاسي الذي أردته لنفسي لأتبرأ من الشخص المهذب، كنت أتجنب أي شخص يراني شخصًا جيدًا، كنت أميل أكثر لكل شخص يتحدث عن مساوئي كرجل زير نساء عربيد من الدرجة الأولى، الكحوليات

التي رفضتها لأسباب دينية كانت بالنسبة لي كالمياه المعدنية في الثلاجة، النساء التي كنت أخشى النظر في أعينهن أصبحت أنسى كم امرأة عاشرتها اليوم، السجائر التي كنت لا أطيق رائحتها أصبحت لا أشربها إلا بالمخدرات..

ليلة واحدة في حياة الإنسان كفيلة أن تغيّر كل شيء، الحقيقة أن التغيير الذي حدث لم يحدث بسبب رفض جميلة، إنما هو رفض للحياة كلها، اعتراضًا مني على كل ما حدث معي، شعور أنك تقوم بكل شيء مثالي لكنك لا تحصد إلا الفشل والعجز والفقدان، نتيجة لهذه المثالية كفيل أن يجعلك شيطان، ليلة واحدة في حياة الإنسان كفيلة أن تُظهر أسوأ ما فيه، اليأس وفقدان الأمل والخيبة كلها أشياء تجعلك ترفض ما أنت عليه، ولو كنت ملاكًا ستقص أجنحتك بنفسك حتى تصبح عاديًا، إنه واحد من أكثر الأسئلة الجنونية التي أعاني منها "أقوم بكل شيء بطريقة مثالية، لماذا أحصد كل هذه الهزائم؟" هذا السؤال الذي لا إجابة له كفيل أن يجعلك تتمرد على نفسك بلا أي رحمة، كفيل أن يشوه كل ما فيك بنفسك وإرادتك، أردث الانتقام من نفسي ومن هذه النسخة الرئيسية التي لم تحصد نتيجة واحدة تستحقها..

أنا آسف يا ميرال لم أستطع الحفاظ على العهد الذي عهدته بيني وبين نفسي عليك، بل أهملت أشد إهمال في حق نفسي، صحيح أنني واصلت الذهاب إلى الجامعة والتزمت بعدد ساعات التمرين، إلا أنني كنت أقوم بكل هذا حتى لا أثبت لأبي نظرته عني "الفشل"، لذلك كنت أسعى لمجرد السعي، والسعي لمجرد السعي هي فكرة سخيفة لأنك تركض في أكثر من طريق، وقد تحقق الكثير من

الإنجازات والخطوات المهمة إلا أنك لا تشعر بقيمة ما حققته ولو بلغت عنان السماء.

مر أكثر من عشر سنوات من هذا الرفض، حققت الكثير من الأشياء، لا بل حققت كل الأشياء الممكنة التي يمكن لشاب مثلي أن يحققها، كنت أكفأ الأطباء في المستشفى، تدرجت حتى أصبحت مساعدًا ومديرًا للقسم النفسي في مستشفى الحياة، عرفت الكثير من الفاتنات الجميلات، لقد أحبني العالم، هذا ما لا يمكن إخفاؤه أبدًا لكنني لم أحبه قط، ظل أبي يراني شخصًا سيئًا بلا سبب، ساعدت إخوتي في تأمين مستقبلهم، ارتفع شأن حياتي العملية بشكل ملحوظ، لكنني ظللت أسير نظرة أبي الغاضبة عليّ، لكنني ظللت فاشلًا اجتماعيًا، فرغم كل من عرفتهن لم أقع في غرامة امرأة واحدة، هجرت الحب أو هاجرني الحب لا يهم، المهم أننا لم نتفق أبدًا، ما أحبه في نفسي أنني كنت شخصًا صلبًا عمليًا لا يمكن أبدًا هزيمتي أو جعل الحياة الاجتماعية تؤثر على حياتي العملية..

دعني أقول إن بدأ بداخلي شعور أنني لن أوفَّق في حياتي الاجتماعية، رغم أنني لا أستسلم بسهولة، لكنني لم أجنِ ما أردته، على العكس في حياتي العملية أظن أنني حققت الكثير من الخطوات المهمة، وما زلت أومِن أنني لم أحقق شيء بعد، لذلك أخوض المعارك الاجتماعية بقلب محطم وخذلان عظيم لأنني تذوّقت مرارة الخيبة، الفقدان، العشم، وأن تحب نجمة في السماء، تقترب منها وتصبح بين قبضة يديك، ثم فجأة تهرب من بين أناملك لترى نفسك بعيدًا، بعيدًا جدًا عنها، أو تصبح على وشك الوصول إلى خط نهاية مشوارك الطويل ثم تعيدك الدنيا إلى نقطة البداية،

أو تقضي سنوات وسنوات تزرع في أرض، ثم تكتشف أنها ليست أرضك، أن تحارب في معركة أنت الخاسر الوحيد فيها، تحارب لأجل كل أعدائك لأنك لا تملك من الأساس ما تدافع عنه، لكنك مجبر على الحرب وعليك أن ترضى بالنتيجة الحتمية ألا وهي الهزيمة..

ما حدث اليوم في المستشفى ما هو إلا إنذار أن هزيمتي قد اقتربت، راودتني الأفكار السلبية مرة أخرى، إنه الاكتئاب، ذاك الذي يتملك منك كلما أعطيت له فرصة، خصوصًا في الأوقات الحرجة، الاكتئاب أسوأ تجربة تمر على الإنسان، الاكتئاب أشد وأقسى الاضطرابات النفسية، أن تصاب بـ الاكتئاب يعني أنك مصاب في جسدك وروحك معًا، فأنت لا تستطيع النهوض من على فراشك لأنك لا تملك الشغف والطاقة للنهوض، فـ أنت لا ترى قيمة للنهوض من الأساس، لا ترى معنى للأشياء، لا ترى هدفًا للعيش من الأساس، الاكتئاب هو مفسد كل اللحظات السعيدة لأنك ببساطة لا تشعر بها، إحساسك متبلّد وصلب بينما يبتهج العالم حولك، أنت في حالة خمول كأن كل مشاعرك.. كأن السعادة التي أنت صاحبها لا تعنيك، وفي لحظات الحزن فـأنت لا تتأثر كثيرًا، فحزن العالم في قلبك، جثة هامدة لكنها تتنفس مجبرةً على التعايش والتأقلم حتى في أشد وأحلك الظروف، وفي الحقيقة العالم السرمدي الفوضوي لا تسكنه بل يسكن كل ما فيك..

لقد عزلت من منصبي وعُيّنَ علي مكاني، ألد أعدائي وأكثر الناس بغضًا لقلبي، هذا ما أستحقه لطالما راهنت أن حياتي الاجتماعية لن تؤثر علي، لكن الحقيقة أن الوقت أثبت فشل رهاني، اتصلت بهند صديقتي الجديدة والتي تُحب الذهاب معي إلى البرازيلي..

اليوم هو الأحد وهذا اليوم هو التجمّع الأسبوعي لأولى الأصدقاء الذين تعرّفت عليهم في القاهرة، كانوا بمثابة عائلتي التي احتضنتني في أيامي الأولى في القاهرة، طلبتُ أحداهم وأخبرته أنني في الطريق إليهم، الشقة تقع في حي حدائق القبة، شقة بسيطة وعادية جدًا لكن المميز فيها أنك لا تحتاج لأي مجهود حتى تندمج بينهم، هي تشبه شقتي بنفس الحالة إلا أن هذه الشقة تحديدًا أشعر بالانتماء إليها؛ لأنني لست مطالبًا أن أكون كريم فـأنا صديقهم القديم الذي عمل معهم في المصنع لاثني عشرة ساعة حتى أحصل على مرتب بسيط يكفيني لقضاء احتياجاتي الشهرية في الكلية، ربما أغلبهم لا يعرفون وظيفتي من الأساس، وصدقًا أنا لست مهتمًا للتعبير عن ذلك، فعلى عكس ما يشاع عن الناجحين أو المؤثرين أو أصحاب الكليات والمكانة المرموقة في المجتمع، فأنا لا يستهويني تعريف نفسي للعامة، يكفي أن تعرف اسمي وإن ناديتني باسم آخر فـ هذا لا يزعجني، على العكس أنا أيضًا لا أهتم بوظائف الناس ومكانتهم الاجتماعية، لا أهتم بما يحملونه من شهادات وخبرات، لا تبهرني إنجازاتهم ولست مهتمًا بما يقدمونه للعامة، كل ما أهتم به وأركز عليه هو طريقة معاملتك معي، وصلتُ الشقة بعد فترة غياب استمرت أكثر من ستة أشهر، لكن وكأنني كنت معهم قبل دقائق، كل شيء في مكانه وكل شخص يقوم بمهامه الذي اعتاد عليها..

البرازيلي أهم رواد هذه الشقة وصاحبها، أُطلق عليه هذا الاسم لأنه وبلغة الشارع "حرّيف" لكن ليس في كرة القدم بل في إدارة السهرة، يميز الأشخاص بفهلوته وذكائه الفطري وخبرته التي اكتسبها من التعامل مع الحشاشين والسكارى..

- أهلًا أهلًا يا دكتور تعالى بيتك ومطرحك.

نفض بيديه الكرسي ثم نادى على رزاق الكالح:

- الشاي لكريم يا كالح

جلست دون أن أكترث للبقية، فهنا لا يرحبون ببعضهم البعض، بل يتركون للحشيش القيام بهذه المهمة..

بدأ البرازيلي في تجهيز السهرة..

الحشيش..

الحلويات..

الشاي..

السجائر..

ثم أشعل سيجارة الحشيش الأولى، تتساوى الرُتب والأفكار والتوجهات والوظائف والمكانة الاجتماعية، أمسك بها ثم مررها لـ نبيل أحد الأصدقاء القدامى هنا، رجل شرطة له ثقل ووزن في العاصمة، لكن كما قلت حين تشتعل السيجارة فلا فرق بين نبيل الضابط والبرازيلي الهجام السجين في قضايا مخدرات، مرّرها نبيل لـ الأستاذ شريف مدرّس التاريخ مربي الأجيال الذي سحب نفسًا عميقًا من سيجارته ليقطع دخان السيجارة سؤال البرازيلي:

- صحيح يا شريف متى اكتُشِفَ الحشيش؟

أجاب ساخرًا:

- كان هذا قبل ثلاثة آلاف قبل الميلاد، تحديدًا في الصين..

رد البرازيلي:

- الصينيون لم يتركوا للعالم شيئًا، حتى الحشيش صيني..

ضحكنا جميعًا.

مرّر شريف السيجارة لـ سلمى فتاة الليل التي تعمل في أحد النوادي الليلة المعروفة في شارع الهرم ثم قالت:

- الحشيش صيني، الأكل صيني، الشرب صيني، الحب صيني، الناس صيني، كل شيء حولنا مزيف..

في هذه الأثناء أعطى البرازيلي سيجارة الحشيش الثانية لمن كانوا على يساره، أولهم الشيخ عبد الشكور مدرس اللغة العربية في إحدى المدارس الثانوية الأزهرية، وما إن أمسك بها حتى واصلت هياتم:

- حتى التدين صيني يا شيخ عبد الشكور.

لم يرد عليها الشيخ عبد الشكور الذي كان يسحب أنفاسه بعمق، ثم قال موجهًا كلماته لأحد أصحاب المشاريع في مصر ميشيل سالم:

- أصبحنا في زمن حتى العاهرات يتحدثن عن القيم والمبادئ..

وقفت هياتم غاضبة وقبل أن ترد عليه قال البرازيلي وهو يشعل السيجارة الثالثة:

- لن أسمح لأي شخص أن يعكّر صفو ليلتنا، حدثنا يا دكتور عن أحد المجانين الذين تعالجهم.

قلت:

- لا أعالج مجانين ولا يوجد ما يسمى مجنون من الأساس، هم مضطربون نفسيًا، بعض الاضطرابات تحتاج إلى علاج نفسي وبعضها يحتاج إلى علاج سلوكي، وهكذا.

ضحك عبد الشكور ثم قال:

- أنت دجال يا كريم، لا يوجد شيء اسمه علاج نفسي، العلاج الوحيد هو التقرب إلى الله.

عادة لا أرد على مثل هذه المهاترات، لكن رأيت أن البعض شغوفًا بـ ردي، فقلت:

- هذا خطأ شائع بين الناس، التقرب إلى الله خطوة من ضمن عشرات الخطوات للتعافي، لكنه لن يكون الخطوة الوحيدة أبدًا، حين تتعب تضطر إلى الذهاب إلى المستشفى لا المسجد، التقرب إلى الله لأنك تؤمن به ولأنك تعبده، لكنه لن يحميك من التعب ما دمت لا تحافظ على صحتك النفسية والجسدية، ولن يساعدك في الشفاء إن كنت لا تهتم بـ شفائك من الأساس، الأمراض النفسية لا تختلف عن الأمراض العضوية الجسدية، فهي تلزم علاج ومتابعة وإلا هلك الناس بأمراضهم..

رد ميشيل سالم أحد رجال الأعمال المعروفين:

- صحيح، أعرف الكثير من الأصدقاء يتابعون مع دكاترة ومختصين نفسيين، وأراهم ينجزون ويحققون خطوات مهمة في حياتهم..

رد البرازيلي:

- اعذرني يا دكتور لكن صدقني لا أرى في الحياة راحة نفسية أكثر من لقمة هنية وامرأة جميلة وابن يتربى بين يديك.

ضحكت سلمى:

- يقطعك يا برازيلي، إلا صحيح لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

ضحك البرازيلي ثم قال وهو يجهز السيجارة الثالثة:

- الزواج يعني المسؤولية وأنا لا أريد تحمّل مسؤولية شخص آخر في الوقت الذي أنا لا أستطيع تحمّل مسؤولية نفسي، أنا أوفّر مصاريفي الشخصية بعد عناء وحرب يومية من أجل لقمة العيش، اليوم سآكل وجبتين غدًا وجبة بعد غد ربما لن أجد ما يطعمني، لكن الحياة مستمرة، تخيّل أن يكون في رقبتك شخص آخر، لماذا عليّ تحمل هذا العناء؟

ردت سلمى بدلال وكأنها تذكرت شيء ما:

- مساكين والله، الحب أجمل ما يمكن أن يحدث في حياة الإنسان، المسؤولية التي تخشاها لن تشعر بها لأن بجوارك شخص ما يتحملها معك، الأيام الصعبة تهوّنها كلمة لطيفة من شخص أحبّك بصدق، حتى اللحظات والأيام الصعبة على الأقل ستجد من يشاركك فيها، فلن تشعر بصعوبتها..

رد ميشيل:

- الحب جميل يا سلمى لكن لكل شيء منفعة، ولن يقترب منك

شخص إلا لمصلحة شخصية منك، والبحث عن ضمانات لمصداقية الحب كأنكِ تبحثين عن إبرة في كوم القش، الناس طماعون يريدون منكِ الشيء مقابل الشيء، لذلك أنا لا أومِن بالحب.

رد مدرس التاريخ:

- كل شخص يملك من الحياة شيء يظن أن الآخر يطمع فيه، هذه هي الفلسفة التي يتبعها الجميع منذ بداية الخلق، الأسوأ من هذه الفلسفة هو شعور أن حال سمح لك الشخص الذي يملك ما تريده ويعطيه لك، فـ عليك أن تبقى ممتنًا له طوال حياته وإلا قد كفرت بالنعمة، وهنا سينقلب عليك.

أثناء حديثنا أخرج ميشيل زجاجة فودكا من حقيبته..

بحزم شديد قال البرازيلي:

- إلا الخمرة يا ميشيل!

ضحك الجميع فـ سأله ميشيل:

- لماذا يا رجل؟

قال البرازيلي:

- حرام!

رد مدرس التاريخ:

- حرام! أنت آخر شخص تتحدث عن الحلال والحرام يا برازيلي.

هنا شعر البرازيلي هادئ الطبع بشيء من الإهانة من رد مدرس

التاريخ، فقال بنبرة يغلب عليها كسرة النفس:

- ربما، لكن على الأقل لا أغلق كل الأبواب بيني وبين الله.

هنا رد ضابط الشرطي نبيل:

- يا رجل أي باب تقصده! حشيش! نساء! طاولة قمار! وسجل إجرامي ما بين البلطجة والسرقة والتعدي على المارة! سوبر هاتريك كفيل أن يؤدي بك إلى الجحيم، وتعترض على الخمر؟

قال وكأنه يدافع عن راية الإسلام:

- نعم أعترض عليها، وأخبرتكم من قبل لن أسمح بالخمر في المكان.

شعر ميشيل أنه افتعل أزمة، فاعتذر وأعادها إلى الحقيبة.

قلت:

- تعرفون رغم سخريتكم من البرازيلي إلا أنه أفضل من أغلبنا، على الاقل هو عنده مبدأ يتعايش به ويسعده، لولا هؤلاء لـ عشنا في غابة، تخيّل أن يكون إنسانًا بلا قيم أو مبادئ أو لا يخشى قانون أو لوائح، أو حتى لا يؤمن بأن هناك إله يراقبه ويراقب تصرفاته، لعَمّ الفساد في الأرض أكثر مما تعم بالفساد، الإنسان الذي يعيش بلا قيم أو مبادئ هو إنسان متوحش، حتى الحيوانات لها مبادئ وأعراف صنعتها فطرتهم الأولى، أنا لا أخشى القاتل الذي يُفرّق بين الأعزل والمسلح، لكنني أخشى المسالم الذي ينتظر فرصة للنيل من الجميع بلا تفرقة، أنا لا أخشى السارق الذي يرفض سرقة المساكين والمحتاجين ومال اليتامى، لكنني أخشى رجل بإمكانه أن يأكل

الميراث ويشرّد عائلة ولا يتهاون في الضرب من حديد في مقابل أن يجني أكبر قدر ممكن من الثروة، أنا لا أخشى الشيطان الذي يخبرك أنه شيطان بكل بساطة، لكنني أخشى المدّعي الذي يتظاهر بعكس ما فيه، العاهرة التي تعمل في الحانات أفضل عندي من زوجة تدّعي أنها شريفة وهي تخون زوجها، الشيخ الذي يقول قال الله وقال الرسول لكنه يختلس بين الحين والآخر نظرات شهوانية للنساء، أو في خلوته يشرب ويلهو ثم يصعد على المنبر يدعو الناس للتوبة والصلاة، هذا أشد عندي من سكير لا يفارق الحانات، البرازيلي سلوكيًا وأخلاقيًا ليس أفضل حالًا، لكننا جميعًا نشبهه، كل ما في الأمر أننا لا نريد رؤية هذه الحقيقة ونتبرأ منها ونجاهد لينصلح حالنا، لكن الإثم الحقيقي أنه حين تأتي فرصة للسخرية والهزء من البرازيلي نتهافت عليه وننال منه وكأننا لسنا شركاء في الشقة، على رغم أننا ننتظر دورنا في السيجارة، هذه هي حقيقتنا نحن البشر حين تأتي فرصة للنيل من غيرنا لا نتهاون أبدًا، الحرام بيّن والحلال بيّن، لكن التحايل على الحلال لإرضاء شهوتك في الحرام والتحايل على الحرام لإرضاء رغبتك في الحلال كلها أشياء قذرة ودنيئة يا أصدقاء.

ابتسم البرازيلي الذي شعر بلذة أن أحداهم دافع عنه، فـ أعطاني السيجارة الثالثة:

- هذه هديتي إليك.

ثم نهض البرازيلي، الآن حان وقت اللعب، نهضنا جميعًا من مكاننا متجهين إلى طاولة البوكر..

كالعادة يبدو عبد الشكور متحمسًا جدًا في اللعب، عكس هند التي ترى أنها مجرد لعبة للترفيه، بينما يخوض شريف الجولة وكأنه يصارع لحماية أرضه، بينما كانت تلعب سلمى من أجل هزيمة الآخرين، في المقابل يلعب الضابط نبيل من أجل فرض إثبات أنه لا يُهزم أبدًا..

سحبتُ كرسيًا وبدأت في متابعة الجولة..

شعرتْ هند أن شريف يقاتل في اللعب، فقالت له:

- أهدأ لا يمكنك أن تفوز دائمًا..

لم يعِر شريف اهتمامًا لكلمات هند وواصل اللعب، فضحكت سلمى:

- هو لا يحب شعور الهزيمة أبدًا، يلعب وكأنه يلعب على روحه لكنه حتمًا سينهزم، مع أنها ليست أولى هزائمه.

نظر شريف لـ سلمى نظرة حادة ثم قال:

- على الأقل أعرف ماذا أريد من الجولة يا سلمى وأدافع عن ما أريد، لم أضيّع عمري بحثًا عن فوز واحد يرضي شعوري بالانتصار.

تغيرت ملامحها سلمى وبدت وكأن كلماته أثارت مشاعرها، فقالت:

- أن تحارب في طرق مختلفة حتى تنتصر أفضل من أن تضيّع عمرك في طريق واحد ثم تكون المحصلة صفر.

ضحك شريف ثم قال:

- لم أضحِ بأي شخص، لم أوذِ أحد من أجل الفوز، لم أتسلق أكتاف أحد للصعود، لم أكن سلطويًا.

قالت سلمى في هدوء:

- أنت ترى الأمور بهذه النظرة لأنك تشعر بالاستحقار من نفسك، أنت مستعد للتضحية بنفسك في سبيل سعادة ومكاسب الآخرين، عمرك الضائع يشهد على ذلك.

قاطعها:

- أليس أفضل من الاستحقاق؟ على الاقل لم أضحِ بأعز ما أملك من أجل مكاسب وضيعة.

وقفت سلمى معترضة على استفزاز شريف الذي أشار لها بالجلوس ليثير غضبها أكثر.

كنت أجلس بينهما صامتًا تمامًا، أتابع اللعب في هدوء مُنصتًا لكلماتهم العدائية ضد بعضهم والتي للوهلة الأولى تشعر أنهم أعداء بالفعل، لكن الأمر ليس كذلك، هذه الحدة الموجعة والتي تنبش في الماضي واحدة من أساليب الطرفين لتشتيت التركيز حتى يفوز أحدهما بالجولة..

ألقت هند أحد الاوراق ثم قالت:

- ها أنا فُزت من يحتاج المال أكثر فهو له، أنا لا أحتاجه، كفاكم صراعًا..

سحبَنا البرازيلي للرقص، اشتد حماس الشباب وبدأوا يرقصون ويتمايلون مع الأغاني، ظللت في مكاني أراهم من بعيد وبقيَت جواري هند..

اقتربت لتجلس بجواري ثم سألتني:

- كل شيء على ما يرام؟

- نعم، لماذا أعطيتي لهم المال؟

قالت:

- هم يتصارعون طوال الوقت من أجل الفوز، أنت تعرف أن الفوز ليس غايتي، أنا ألعب لأستمتع، الحياة أبسط من كل هذه الصراعات التي يخوضونها من أجل مكاسب وهمية..

- صحيح صحيح يا هند.

أحب فلسفة هند في التعايش مع الحياة، ما أعرفه أن هذه النظرة ما هي إلا نتيجة تجارب حقيقية مرت بها..

غريب.. رغم أني دكتور والصحة النفسية واحدة من أهم اهتماماتي في الحياة، إلا أنني لم أحاول يومًا التقرب من الصحة النفسية للمقربين مني، عائلتي الصغيرة أقصد أصدقائي، أحيانًا يكون المرء مشغولًا مع الجميع، مهتمًا بهم، حريص أن يكونوا في أفضل حال، إلا عائلته وأصدقائه..

تنهدت وأنا اقول لنفسي: "أنت مشغول عن نفسك يا كريم"..

ضحكت واستأذنت منها، ثم اقتربت من البرازيلي وسألته عن كاترين، فقال إنها في منزلها، كما تركتها منذ ستة أشهر..

- حسنًا سأصعد إليها.

كاترين امرأة مسيحية في بداية السبعينات، تشبه نساء إيطاليا

حين يكبرن في السن..

جميلة، مثقفة، ووحيدة..

أحب الذهاب إليها لأستمع لها وآخذ آراءها في بعض مواضيع حياتي، والأجمل من كل هذا أنها تعرف أغلب علاقاتي النسائية وترشدني من حين لآخر عما عليّ القيام به..

طرقتُ الباب فـ استقبلتني بضحكتها الجميلة وعناقها الدافئ:

- كريم طال غيابك..

قبّلتُ جبينها:

- فاتنة حدائق القبة، كيف حالك؟

ضحكَت:

- كل امرأة تجاملها وكأنك لم تغازل غيرها، وأنت ذئب لا تفرق بينهم، تفضل تفضل.

جلستُ على الأريكة بينما جلسَت هي وكعادتها عند طاولة القهوة تواصل إعداد قهوتها على أنغام أم كلثوم وهي تدندن:

"الزمن هيدوقك في البعد ناري، الزمن هو اللي هيخلصلي تاري..

كل هجر كل ليل سهرتهولي..

كل غدر كل جرح تركتهولي..

كله هترده الليالي الليالي عليك بدالي..

والزمن..

اشكِ مش هسأل عليك..

أبكِ مش هرحم عينيك..

يا اللي مرحمتش عينيا لما كان قلبي في إيديك..

دارت الأيام عليك".

ظلّت تُرددها وهي تنظر إليّ نظرات خاطفة:

- مسكين حبيبها الذي تتحدث عنه، سيظل ذنبها يطارده طوال حياته، ولن ينعم أبدًا في حياته، مهما حاول لن يجد موطنه، سيظل مُشتتًا تشتت آل يعقوب في الأرض، لن يجد مرسى لقلبه أبدًا.

نظرت إليّ ثم سألتني:

- كيف الفتاة المراهقة التي صاحبتها الفترة الأخيرة، ذكرني باسمها؟

- جميلة!

- نعم جميلة، كيف حالك؟

- لا أعرف شيئًا عنها..

ضحكت:

- كما توقعت تمامًا..

نظرت لها:

- لماذا؟

- لأنك لم تعش معها طويلًا حتى تحبها، لقد تَوهمت الحب أو ربما أردت أن تكتمل قصتك في الحب.

تقدّمت نحوي ثم قدّمت القهوة وقالت:

- أنت لا تريد تكرار تجربتك القديمة يا كريم وهذا حقك الطبيعي، ومع ذلك لا تستطيع السيطرة على رغبتك في الحب، وما إن يقترب منك حتى تنفر وتبتعد عنه، مُشتّت بين رغبتك في الحب ورغبتك في الابتعاد عنه، في المقابل يدفع الآخرين ثمن هذا التشتت..

أشعلت سيجارة وفي يدي اليسرى فنجان القهوة:

- أنا لست بهذا السوء الذي تظنينه عني يا كاترين..

لم أعِد فتاة بالزواج أو الحب، كل ما كنت أفعله أنني أمهد لهذا، لكن وقبل اللحظة الأخيرة وبشكل ما ينتهي كل شيء رغمًا عني، صدقيني أنا لست بهذا السوء، لقد كنت بالنسبة لهم فندقًا مريحًا، لم أصاحب امرأة متزوجة، لم أعاشر فتاة عذراء، لم أزرع أفكارًا تصب في مصلحتي ولخدمتي مع فتاة ترى الحياة وردية، لم أعِد وأعطِ آمالًا ووعودًا لفتاة في عرض كلمة واحدة حتى تعطيني وتقدم كل شيء، كل هذا لم يحدث..

كنت بالنسبة لهم فندقًا جميلًا يستريحون فيه من أعباء الحياة، ثم يخرجون منه في قمة الرفاهية والسعادة...

قاطعتني:

- لكنك لم تكن سعيدًا بما تقدمه يا كريم..

كنتَ تقدّم عسى أن تشعر بالسعادة، تعطي عسى أن تجد ضالتك في العطاء، أو تضع الفتاة تحت ضغط حتى تقدم أفضل ما لديها، ولأنك لا تشعر بالحب، تخبرها أنك لا تشعر بالراحة، ومن ثم يبدأ البرود يتسلل إلى علاقتكما حتى ينتهي كل شيء بينكما.

- كاترين، لدي الكثير من العلاقات الاجتماعية الناجحة، أرجوكِ توقفِ عن قول هذا، أنا لست بهذا السوء!

ردت:

- أبدًا أنت لست سيئًا في علاقاتك الاجتماعية، أنت لست ابني لكنني لا أثق في رجل مثلما وثقت فيك أنت، أراك ابني وحبيبي وصديقي، وهذه الثقة لم تكن لولا أنني أعلم تمامًا كم أنك تحمل قلبًا جميلًا، أنت سيئ في علاقتك مع نفسك يا كريم..

أنت أفضل شخص رأيته يجيد التعامل مع نفسه عمليًا، قوي ومغوار وعنيد جدًا مع الدنيا، ولا تقبل الهزيمة، تعرف نقاط قوتك وتستطيع استغلالها بشكل صحيح، حتى نقاط ضعفك تعرف كيف تُخفيها وتفاديها عن الآخرين وتتجنب المغامرة بها في معاركك، مثال يُقتدى به تمامًا كما تعرف وتمامًا كما يقال عنك، لكنك هش جدًا اجتماعيًا يا كريم، هش جدًا فـأنت رغم كل الزحام المحيط بك إلا أنك وحيد جدًا، شخص بلا روح، شخص بلا شغف، شخص بلا مشاعر، آلة عملية حادة من الدرجة الأولى بإمكانك تدمير وتحطيم كل شيء إلا المساس بعملك، المؤسف رغم أن هذا المبدأ الذي يبدو مؤذيًا للناس إلا أنك لم تؤذِ إلا نفسك.

مشكلة هذه العجوز أنها تفهمني جيدًا..

واصلَت:

- كيف حال المستشفى أما زال علي يواصل سخافته عليك؟

ضحكتْ:

- لقد أزاحني من مكاني واستولى عليه، سلّط أحد مساعديه لمتابعتي ومراقبتي حتى التقط صورة لي وأنا ثمل في إحدى الحانات المجاورة للمستشفى، ومن ثم أرسلها إلى دكتور مصطفى...

قاطعتني:

- وبالطبع كان قراره بعزلك من الإدارة حتى لا تهتز الصورة المثالية عن المستشفى..

ثم ضحكت:

- أحب هذه الطريقة في التفكير، رغم خلافي معه في بعض النقاط، لكن هذا التفكير هو المناسب للتعايش مع الحياة.

- هذا الرجل لا يرى الأمور إلا بمنطقية.

ردّت:

- لا هذا الرجل يملك ما يدافع عنه، تمامًا كما يدافع علي عن رغبته في الانتقام منك، لا تحارب شخصًا يحارب من أجل أمله الأخير في الحياة، فحتمًا سيكون مستعدًا للتضحية بكل شيء في سبيل الفوز والنجاة، لأنه حتمًا سيقاتل بكل ضراوة من أجل نجاته، وحين تصبح دوافع الحرب هي النجاة، فلن يقدر عليه أحد مهما أشتد قوة عنه.

- أنا لا أرى الحياة تستحق كل هذه المعارك يا كاترين دعكِ مما أقوله للمرضى، أنا حقًا لا أرى الحياة تسحق كل هذه المعارك..

قالت:

- وأنا كذلك أومِن تمامًا أن الحياة لا تستحق كل هذه المعارك، لم نُخلَق لنصارع من الأساس، لكنك من وضعتَ نفسك في هذه البيئة وهذه الصراعات، أو حتى فُرِضَت عليك لكنك قبلت البقاء فيها، فعليك أن تخضع أنت لقوانينها، إن قررت البقاء في الغابة فلن تستطيع فرض قانون يحميك من التهام الأشود، هذه مسؤوليتك الخاصة، أو أن تبادر أنت بالتهامهم.. قمة العدل والمساواة..

على أي حال لا تسمح لهذا الوغد أن ينال منك.

اتصلت بي هند لتخبرني أنها تجهز للرحيل فاستأذنت من كاترين، لقد تأخّر الوقت بالفعل، وعدت إلى منزل البرازيلي..

انطلقت بالسيارة وكالعادة تحب هند أن تسيطر على الأغاني التي ترافقنا الطريق، ظلت تردد مع الأغاني الغريبة التي تسمعها:

"عينيك بتقول عكس الكلام..

وكلامك عكس اللي في بالك..

بالك بيصارع حالك..

وحالك مش عارف مالك..

ابعت أغنية تحلي السكوت..

الوحدة أنانية دايمًا بتفوز..

احجزلك جمبيا..

تشوف الغروب".

ضحكَت وأشعلَت سيجارتها بعدما فتحت النافذة لتترك الهواء يقتحم السيارة وصرخَت:

- زوّد السرعة.

ثم صرخت مع الأغنية وهي تتمايل:

"واهو ولا كان في حب ولا نيلة..

قلوبنا اداس عليها في الطينة..

اتقالي الحب كلمة هتصيبك..

كدبة يا معلم.. الحب ده مصيبة..

صور الليلة

وقلوبنا مليانة بدموعنا..

الدنيا بتتكسر بسيرة رجوعنا..

ما إحنا اللي مشينا ولعني في الصعب..

في الآخر اتباع بيكيا"..

ظلّت تُردد مع الأغاني ثم قالت:

- أنا حزينة لأن كل الحلو في شخصيتي لأسوأ الأشخاص الذين مروا على حياتي.

قلت محاولًا ادعاء أنني أواسيها:

- أفضل نسخة منك لم تظهر منك، لأنها حين تظهر لن تسمح لأي شخص أن يشوّهها..

ردت:

- النسخة الأفضل يعني المزيج ما بين الحب والعقلانية، صحيح؟

هززتُ رأسي فواصَلَت:

- أنا لا أريد هذه النسخة، لا أريد النسخة التي تحكم بعقلها أولًا ثم تترك لمشاعرها تحكم من حيث التوافق والتفاهم والمناسب وغير المناسب، ثم تسقط وتغرق في الحب، النسخة الأفضل يعني تلك القوية التي تصنع مساحة آمنة في الحب، حيث لا تندفع بكل مشاعرها تجاه من تحب، لا تبادر بالعطاء، ومن حين لآخر تُعطي لنفسها حق مراجعة العلاقة حتى يقرر الطرفان إما المواصلة أو الرحيل..

قلت ساخرًا:

- أنت ممتنة لأن جلوسك الطويل معي جعلك تصفين مشاعرك بطريقتي.

ردت:

- لكنني لا أريد هذه النسخة يا كريم رغم أنها الأفضل..

أريد النسخة البريئة الأجمل، تلك التي تندفع في الحب بكل طاقتها ومشاعرها، لا تعرف معنى المسافة الآمنة التي تتغنون

بها، هو حيث عالمها وهي حيث عالمه، لا تحكم بالأمور بمنظورها العقلاني، بل يقودها قلبها للحب لتتقبل كل شيء جميل، أريد النسخة الجميلة التي لا تضع للخذلان اعتبارًا؛ لأنها لا تعرف معنى الخذلان من الأساس، ولا تتخيّل أن يخذلها شخص وعدها بالوفاء، أريد النسخة التي تصدق الوعود ويحمر وجهها لكلمات الحب والغرام، أريد النسخة التي لا تعترف بالنصيب وبقوة الدنيا في فراق الأحباء، بل ترى الحب يعني البقاء الأبدي، نكون أو لا نكون فلا مكان بيننا للهجر في علاقتنا، النسخة التي ترى الحياة وردية وجميلة ومستعدة للتضحية بكل شيء في سبيل من تحب..

النسخة الأفضل مثالية ويمكنها أن تحمي نفسها من الوجع والخذلان، لكنني لا أريد حبًا عقلانيًا، أريد النسخة الأجمل والأكثر براءة وسذاجة في دنيا حتى الحب وضعته تحت طائلة العقل والمنطق.

- هذه النظرة كفيلة أن تصيبك في مقتل، فالحب العقلاني لا يعني أن تكون جافًا.

ردت وهي تواصل الغناء:

- أنت لا تملك طاقة للشرح وأنا لست مستعدة للاستماع، استمتع بالطريق يا كريم لكن دعني أقول لك واعتبره من أختك الصغيرة..

"أجمل ما في الحب أن تحب بكل عفوية وتلقائية، أن تغرق في الحب يا كريم".

أوصلتها إلى منزلها ثم غدث إلى منزلي استعدادًا لما ينتظرني بعد

ساعات قليلًا..

حاولت أن أغفو في نومي لكن طاردتني الأسئلة..

أنا من هؤلاء الذين يتمددون لساعات طويلة على السرير وفي رأسهم سؤال واحد "كل دا كان ليه؟!"

لست خائفًا من التغيير الذي حدث في حياتي، فأنا أعرف نفسي جيدًا وأعرف قدرتي على التكيُّف والتعايش مع أي تغيير في حياتي، أعرفني وأعرف عنادي مع الدنيا، هي مجرد معركة جديدة في الحياة لكنني لست مستعدًا لها أبدًا، ليس لأنها أقوى مني أو لأنني لم أتوقّعها، لكن لأنني وقبل بضعة أسابيع خسرت معركتي الطويلة من أجل الفوز بفتاة أردتها بكل ما أملك، ليس لأن أبواب المعركة تدق في كل مكان وتُعلِن بداية الحرب، بل لأن الأرض التي سأدافع عنها بداية من الغد كانت موجودة من الأساس من أجل معركتي الأولى في الحب، هل تفهم معنى أن تبدأ رحلة في صراعك للحفاظ على أرض زرعتها من أجل أن تشيّد بيت لعائلتك وفجأة رحلت العائلة فـ انهدم البيت ولم تعد للأرض قيمة أو معنى، لكنك أصبحت مجبرًا أن تحارب وتصارع من أجلها، هذا بالضبط ما يحدث معي، هزيمتي في الحب كانت قاسية، كلفتني أن أهمل في عملي وحياتي الخاصة، لكنني لم أهمل تعمدًا بل كان إهمالي لأن حياتي، كل حياتي كانت من أجل أن يبقى الحب..

النوم سلطان لا يحب أن يشاركه أحد خصوصًا إن كان التفكير هو الضيف، لا يتفقان أبدًا فإن هاجمتك الأفكار فلن يخوض النوم الصراع من الأساس، بل سيعلن تركك للتفكير ليلتهم رأسك

ومشاعرك..

دعني أخرج عن النص وأقول إني تعبت..

تعبت من الدنيا بكل ما فيها، ومن شعوري أنني طوال الوقت أحارب وأصارع، لا أظن أن رغباتي في الحياة تستحق كل هذا العناء، لا أظن أن رغباتي في الدنيا تستحق كل هذا العناء، ما أردته لنفسي ليس بالضبط الذي تحقق، الطرق التي سلكتها ليست نفسها التي أردتها لنفسي، والجبل الذي أقف على قمته شامخًا لم أكن أريد منه إلا أن تستظل رأسي وأمدد جسمي في كوخ صغير مستريحًا من عناء التسلق..

"كلما ضاقت بك الدنيا تذكر ما مررت به، حينها ستندهش من قوتك على النهوض سريعًا"..

أغلقت الهاتف وغدوت في نوم عميق مستعدًا ما ينتظرني في الصباح..

في الصباح أستيقظث لأواجه العالم الجديد الذي ينتظرني، حاول علي استفزازي خلال اليوم لكنني لم أستجب لمحاولاته، ليس ضعفًا مني لكنني أعرف أنني في مرحلة أبسط طرق التعبير ربما ستكون القتل، لذلك تجنبث الصدام معه، ذهبت إلى المكتب المتواضع الذي انتقلت له بعدما غزِلت من منصبي، فاجئني الحزن، لكنني لا أعرف على أي الأشياء أحزن! هل أحزن أنني ما زلت طوال هذه السنوات لم أتجاوز فقدان ميرال، أم أحزن لأنني لم أستطع تحقيق حلمي القديم، ربما عليّ أن أحزن أنني لم أكن الشخص المناسب لجميلة، ربما لأنني اكتشفت طوال هذه السنوات أنني لم أجنِ ثمار ما حصدته، ربما لأن

هذه القناعة نفسها خاطئة لأنني حصدت ما أسعَ إليه، ربما لأنني لا أملك أصدقاء وكل من حولي مجرد علاقات عابرة، ربما أحزن لأنني لم أقدّر جيدًا كل امرأة حاولت التضحية من أجلي وأحبّتني بكل ما فيها من حب وشعور لكنني كنت مشغولًا بغيرها، ربما لأنني افتقدت حبًا صادقًا من إحداهن، ربما لأنني لم أرَ ما في يدي ولم أحصل على ما أريده، ربما أحزن لأنني طوال هذه السنوات لم أتزوج، ربما أحزن لأنني لم أحافظ على منصبي، ربما أحزن لأنني في عداء مع صديق لا أعرف لماذا يكرهنني بهذا الشكل، أم أحزن أنني أرشد التائهين وأنا أشد الضالين، لا توجد أسباب حقيقية للحزن، لكن في لحظة ما يتملك الحزن منك بكل ما فيك، فيكفيك أن تقول إنك حزين، وكأن كل حزن العالم اجتمع في قلبك..

أحب الاستماع لرياض الصالح الحسين تحديدًا حين قال:

"أمك بجانبك تنحني عليك كـ يمامة وأصدقائك يأتون في المناسبات، وأنا أدفئك في ليالي تشرين الباردة، وأرسل لك الأحلام الشاسعة والمكاتيب، فـ ماذا تطلب غير ذلك؟ أتريد أن تفجر النبع؟ أم تود أن تحرث المجرة؟

وقالت المرأة القاسية:

ابتكر لك الدنيا خمسة جدران بيض وسرير أبيض ووردة بيضاء في كأس، وكان يمكن أن أبتكر نعشًا، أنا الرجل السيئ، نزيه الخائف، البحر التعيس، للأقفال الكريستالية السوداء، للأغاني الممزقة في سلة المهملات...

أنا الرجل السيئ كان عليّ أن أموت صغيرًا"..

ما زلت أتحمّل ذنب أنني لم أقف بجوار ميرال، دعني أكون صادقًا معك، ما زلت أرى أنه كان بإمكاني الاستماع لها بشكل أفضل، كان بإمكاني تخفيف أثقال الدنيا عليها، كنت طفلًا لا أستطيع تقديم المساعدة لكنها على الأقل كانت تساعدني بالاستماع، حتى الاستماع ميزة لم أقدّمها معها، أكثر من عشرة أعوام من شعور الندم والذنب، عشرة أعوام أراها أمامي تبتسم ثم تعاتبني لأنني لم أنقذها، عشرة أعوام تأتي في أحلامي وتهمس "لـم أمت" ولولا أنني أثق كل الثقة أنها ماتت لصدّقت الرؤى، بعد وفاتها اختفت كل أخبارها، اختفت عائلتها اختفاءً تامًا، لم يعد لها أثر من الأساس، لقد غادروا إلى بريطانيا حسبما علمت، حاولت البحث عن أيّة طريقة للتواصل مع عائلتها، لكنهم اختفوا اختفاءً تامًا..

بعد دقائق اقتحم علي مكتبي، جلس متأملًا مرة أخرى لكن في مكتبي الجديد، امتياز في الجامعة ويجلس في مكتب لا يليق بمسجون!

- صحيح كيف حال جميلة؟ هل ما زلت متأثرًا برفضها لك؟ ترى على أي أساس كانت ستوافق بك، كنت شابًا مهذبًا لا يناسب فتاة متحررة بهذا الشكل...

قاطعته:

- ماذا تريد يا علي؟

قال:

- دكتور علي إذا سمحت، لا تنسى أبدًا أني مديرك المباشر، ربما

عليك أن تتحلى ببعض الاحترام، على أي حال هذا ليس موضوعنا، أريد أن أقول لك خبرًا ربما لن يعجبك..

"دكتور مصطفى افتتح عيادة جديدة في أسيوط، وسيُنقَل الأقل كفاءة هنا للفرع الجديد".

اقترب مني ثم همس:

- بعد شهر من الآن سترفَع التقارير العملية، صدّقني لن تتحمل الأجواء في صعيد مصر، ولن تجد صحبة مثل الشمامين والسكارى الذين تسهر معهم كل يوم.

وضع يديه على كتفي:

- أنا أثق في رجلي.

دفعتُ يديه بعيد عني ثم سحبت المعطف وخرجت من المكتب.

قال ساخرًا:

- بلا إذن!

أغلقت الباب بقوة: اللعنة عليك وعلى أذوناتك!

ركبت السيارة وانطلقتُ إلى حي الزمالك، كانت الساعة الخامسة عصرًا، جلستُ بمفردي في أحد الأماكن المُطلّة على نهر النيل، اتَّصلت بي "ريحانة" صديقة جمعتني بها ورشة تدريبية في مجال إدارة الأعمال، لكننا لم نلتقِ أبدًا، تعرّفنا على بعضنا البعض صدفة وبدأت علاقتنا من خلال التواصل الإلكتروني، لم أرَها أبدًا ولم أسمع صوتها إلا نادرًا ولطالما رفَضَتْ مقابلاتنا..

تشاركنا بعض الموسيقى، الكتب والروايات، وبعض الأحاديث المهمة والتافهة، أنا أكبر من أتعلّق بمجرد فتاة لا أعرفها إلا من خلال بعض المكالمات الهاتفية، لكنني أعجبت بفكرة أن تكون فتاة مختلفة عما أعيشه في يومي، شخص هادئ يمكنني التعزي أمامه بلا خجل أو خوف أو أحتاج لأكون مثاليًا معه، أو كوني طبيب نفسي يعني أن أكون ناجحًا في كل شيء، كنت حقيقيًا معها، وربما هذا أبسط مفاهيم العلاقات السوية في الحياة، بالصدفة أخبرتني أنها في محيط الزمالك، هذه هي المرة التي تطلب رؤيتي، سألتها عن السبب فقالت:

- صوتك منهك جدًا، لم أعتد سماع هذه النبرة منك.

الحقيقة أنني كنت منهكًا بالفعل، كنت في حالة حزن وفي حاجة لمن يربت على كتفي أو يواسيني بكلمة عابرة..

بعد دقائق وصلت إلى الحديقة..

يـا روعتها!

ملابسها بالنسبة لشخص مثلي كانت غريبة، خمار، ملامح هادئة، طلة جذابة، ابتسامة رقيقة، ورِقّة في كل خطوة، نظرَت إلى الطاولة ثم للأجواء حولي وقالت:

- لن أجلس هنا!

نظرت حولي ثم سألتها:

- لماذا؟

- ربما لا يليق بك أو يليق بي الجلوس في هذه الحديقة الوضيعة، لن أتحمَل كل هذا الكم من المتسولين والضجيج ودخان السجائر.

قلت:

- صدقيني أنا لا أبالي بمن حولي.

- أنا أبالي، من فضلك لنخرج من هنا.

اندهشت من طريقاتها الصارمة الحادة، حتى إنها لم تُلقِ عليَ السلام..

طوال الطريق لم نتحدث حتى وصلنا إلى أحد الأماكن المشهورة وجلسنا..

- اطلب لي "موكا فرابيه".

- يا لسخافتك!

- هل من المروءة أن أقف أنا وأذهب للكاشير وأطلب بنفسي الطلبات!

تنهدتْ:

- تملكين طاقة كبيرة في الجدال والمناقشة، حسنًا لحظات.

طلبتُ ما أرادت ثم عدت..

كانت صارمة لكنها تحاول إخفاء سذاجتها وبراءتها، أثناء حديثنا لم تنظر لعيني أبدًا، كنا نتحدث عن أشياء عامة لكنني لا أخفي عليك كنت أشعر بالسعادة أو على الأقل الهدوء، أخرَجَت هاتفها ثم قالت:

- دعنا نلتقط صورة.

فاجأتني جراءتها رغم خجلها وجِدّتها، فجأة سحبت علبة السجائر مني وقالت:

- لن تدخّن وأنت معي.

- لا أحد يجرؤ على سحب علبة سجائري.

- أنا لا أحد، دعك من هذه الشعارات لنتمشى قليلًا.

دقائق ثم وقفت عند ساقية الصاوي وقالت:

- لنلتقط صورة هنا..

ثم واصلت المشي..

كانت بشكل أو بآخر تحاول السيطرة على اللقاء، وكنت سعيدًا أنني للمرة الأولى في حياتي أتقبل أن يقتحم أحد حياتي بهذا الشكل، لم نتحدث عن شيء مهم، لكنها كانت تقول بأفعالها كل شيء مهم، واصلنا المشي في شوارع الزمالك المحبّبة لقلبي، وأثناء المشي قالت:

- يعيش الإنسان مرة واحدة يحتاج فيها أن يكون طبيعيًا، آسفة إن كنت سخيفة معك، أردت أن أكون طبيعية، أرجوك لا تظن أنني فتاة سيئة السمعة أو مثل التي تقابلهم كل يوم.

قاطعتها:

- أنا أفهم ماذا تريدين، على أي حال "الدار أمان".

ابتسمت ثم ردّدت ورائي:

- أنا أثق أن "الدار أمان".

الحقيقة أن هذا الشعور وهذه الرغبة لم تختلف أبدًا عن كل فتاة عرفتها في حياتي، كلهن بلا استثناء كانوا يبحثون عن لحظات عابرة في حياتهن يمارسن طبيعتهن العادية دون أي تصنُّع، ربما الفرق الوحيد هنا أنها الفتاة الوحيدة التي شعرت أنني يمكنني أن أكون طبيعيًا معها..

مر الوقت هادئًا جدًا، حتى وصلنا لنهاية اليوم وقبل أن تودّعني قالت:

- لا أعرف ماذا يحدث لك، لكنني معجبة بما تقوم به وأثق أنك لن تسمح أبدًا للحياة أن تهزمك.

انتهى اليوم، واحد من ألطف الأيام التي عشتها في حياتي..

سألتني هند عن اختفائي طوال اليوم فقد أغلقت هاتفي منذ لقائي بريحانة، فأخبرتها أنني التقيت بريحانة..

- الفتاة المُعقّدة لا أحبها، متعالية ومغرورة وطريقاتها في الكلام متعجرفة، غير أن ما أعرفه عن حياتها لا يشبهنا أبدًا..

قلت في نفسي: "نعم هي لا تشبهنا، هي مجرد فتاة عادية جميلة، لا تحتاج أكثر من أن تكون عادية حتى تكون جميلة".

ضحكت:

- هي أجمل من أن تحبيها يا هند.

وأنهيت المحادثة.

جلست على سريري أسمع عبد الحليم يُدندِن:

"زي الهوى يا حبيبي زي الهوى..

وآه من الهوى يا حبيبي آه من الهوى..

وخدتني من إيدي يا حبيبي ومشينا..

تحت القمر غنينا وسهرنا وحكينا..

وفي عز الكلام سكت الكلام..

وأتاريني ماسك الهوى بإيديا ماسك الهوى"..

فجأة ظهر إشعار من الماسينجر:

- مساء الخير كريم، أتمنى أن تكون في أفضل حال، لا أعرف أثر هذه الرسالة عليك لكنني أردث أن أطمئن عليك، وأعتذر لك عن هذا الغياب الطويل، أتمنى ألا تكون نسيتني بالفعل..

أنا ميرال!

الفصل الثالث

ماجد عبد المنصف

قرأتُ الرسالة أكثر من مرة، ثم دخلتُ على الحساب، ليظهر أمامي أنه حساب جديد، لا توجد أيّة معلومات، لا توجد صورة، لا يوجد أي شيء يدل على صاحب الحساب، أسيل؟! في حياتي لم تمر عليّ فتاة بهذا الاسم من الأساس، ظللتُ أقرأ الرسالة لدقائق ثم قلت:

- أين هم؟

- لا يمكنني الإجابة على هذا السؤال بشكل مباشر قبل أن تنفّذ بعض الشروط والخدمات، وعندما تنتهي من تنفيذها سأدلك عليهم..

- أظن أن هذا ليس الوقت المناسب للألاعيب..

ردت:

- ألاعيب! حسنًا لا يهم أعتذر لك عن وقتك، وأتمنى أن تعثر عليهم قريبًا، وداعًا.

بعد دقائق أرسلت إليّ صورة فتاة..

تأمّلتُ الصورة، منار -أصغر إخوتي- تجلس في بار وخلفها رف ممتلئ بالكحوليات، ترتدي جيب قصير جدًا وشراب طويل وقميص كاشف للخصر..

- هذه منار!

ردت:

- أتمنى لك ليلة سعيدة يا ماجد تمامًا كتلك الليالي التي تقضيها أختك في هذا المكان.

ثم أغلقت الحساب تمامًا!

عشت ليلة هي الأسوأ في حياتي ربما أسوأ من الليلة الأولى التي قضيتها في السجن، راودتني الأفكار مرة أخرى، كيف أصبح مصير عائلتي، منار ويبدو أنها اتّجهت إلى الطريق الأسوأ، الحانات والفجور، لم أربها على هذا، لكن من كان مسؤولا عن تربيتها من الأساس، ربما أميرة لكن أميرة نفسها كانت مُشتتة، يوم ترتدي الحجاب ويوم تخلعه، يومًا تقسو على أمي ويومًا تحنو عليها، كانت لا تشعر بالانتماء لنا وتسخط على شكل حياتنا، ويومًا ترضى وتتعايش، لم تكن مستقرة ربما هي من قادتها لهذا الطريق، ربما هي من أرشدتها إليه، وربما ماتت أمي ولم تتحمل ما رأته عيناها، أشعلث سيجارتي وجلسث أنتظر أن يُفتح الحساب مرة أخرى..

مر يوم..

يومان..

ثلاثة أيام..

في اليوم الرابع سمعث دقات على الباب، فزعت من نومي ثم خطوت خطوات بطيئة ناحيته، لم أر أي شخص يقف في الخارج، فتحث الباب بهدوء تام ففوجئت بظرف كبير.

لا حياة عندي أكثر من أن الهاتف لم يغادرني، أنتظر أن تفتح الحساب، وفي اليوم الرابع طرق أحدهم الباب، فتحت الباب

فوجدت ظرفًا، فتحت الظرف بلهفة حتى صُعِقت مما كان بداخله..

صور لمنار عارية، صورة لأمي على الفراش وهي منهكة، صورة لسارة حبيبتي القديمة، صورة تجمع منار مع أختي الكبيرة أميرة، ثم ورقة صغيرة مكتوب فيها: "هم يحتاجون مساعدتك، لا تتردد في البحث عنهم".

انخلع فؤادي من الصور، أدركت أن عائلتي بخير لكن وضعهم لا يبشر أبدًا، عدت لأمسك الهاتف منتظرًا أن تفتح الحساب مرة أخرى..

دقائق وفُتِحَ الحساب، فأرسلت لها:

- ماذا تريدين مني؟

ردت بعد ساعة:

- أنت الذي تبحث عن مساعدتي أنا لا أحتاج منك شيئًا..

- حسنًا دعينا نلتقي ونتحدث.

- سنلتقي في الوقت المناسب، هل ما زلت تحتاج للمساعدة؟

قلت على الفور:

-نعم نعم..

صمتت لدقائق ثم قالت:

- حسنًا انتظرني خلال الأيام القادمة سأعاود محادثتك في أي وقت، لا تتوقع أن رسالتي ستنتظر أوقات فراغك، سأرسل لك وحال عدم الرد عليها بعد دقائق سأحذفها على الفور.

- لن أتحرك من مكاني، لكن سؤال!

أرسلت علامة استفهام.

فقلت:

-من أنت؟

ردّت:

- فتاة تريد مساعدتك فقط لا أكثر، ثم ليطمئن قلبك خلال هذه الأيام ستتأكد أكثر أنني مجرد فتاة تريد مساعدتك للوصول إلى عائلتك، شرط أن تُنفّذ بعض طلباتها البسيطة..

- لا أملك مالًا!

- المال الذي استطاع به صديقك أن يزوّر شهادة وفاتك ويزور به كل الأوراق التي في حوزتك الآن، أستطيع بأضعافه شراءك أنت وصديقك شخصيًا!

صُعقتُ مما قرأته، هي تعرف كل تفاصيل حياتي البسيطة والتي لم تتجاوز أيام منذ هروبي من السجن.

واصلتُ حالة الانتظار الطويلة.

في السجن كان الانتظار أقل قسوة لأنك تعرف تمامًا متى ينتهي هذا الانتظار، ترى تاريخ أمامك فتبدأ في رحلة العد حتى وإن كانت طويلة، لكن الانتظار وأنت لا تعرف إلى متى تنتظر هو واحد من أكثر الأشياء المرهقة التي تحدث لك، تخيّل أنك تعيش وتقضي أيامك تنتظر ميعادًا لا تعرفه، تنتظر قدرًا مجهولًا، وانتظار المجهول لا يعني

رسالة من محبوب غاب عنك، أو صديق هجرك وتنتظر رسالة منه، بل هي عائلتك، هل تعلم قسوة أن تنتظر من يطمئنك على عائلتك!

بعد ساعات بدأت المحادثة بيني وبين أسيل..

- أسمع يا ماجد، المهام التي سأطلبها منك بعضها صعب وبعضها سهل عليك، لكن أولًا عليك أن تلتزم بعدة شروط، ومع نهاية كل مهمة سأتمكّن من تقديم بعض الدلائل للعثور عليهم..

الشرط الأول..

ألا تخبر أحدًا بما يحدث بيننا.. مهما كانت مكانتك به.

الشرط الثاني..

ألا تحاول معرفة أكثر مما أسمح لك بمعرفته.. مهما كان فضولك.

الشرط الثالث..

ألا تترك أفكارك ورغباتك تتحكم في انفعالاتك.. مهما كان الموقف.

الشرط الرابع..

ألا تثق في أي شخص، حتى الذين سأخبرك أن تثق بهم لا تثق بهم.

الشرط الخامس..

ألا تتسرع وإلا ستدفع ثمن هذا التسرّع.

وأخيرًا..

ألا تسأل عن أي شيء أطلبه منك مهما كان السبب..

اتفقنا؟

- اتفقنا.

بدأت أسيل في الكتابة:

- ستغادر الآن إلى القاهرة، سأكتب لك عنوانًا تفصيليًا في العاصمة الإدارية الجديدة، هناك ستنتظرك وظيفة رجل أمن في إحدى العقارات، سيكون معك أحد رجالي ليخبرك بطبيعة العمل وخلافه، لا تتحدث كثيرًا معه وحاول أن تتلعثم كثيرًا أمامه، ستقضي فترة في أمن أحد العقارات المهمة الحساسة لبعض المستشارين، خلال هذا الشهر سأتواصل معك بشكل يومي كل يوم بعد الثانية عشر مساءً، لا تصاحب أحد، لا تصدق أحد، لا تثق في أي شخص..

- أين هي المهمة؟

ردت:

- ألم أخبرك ألا تسأل عن أي شيء مهما بلغك الفضول..

- الساعة الآن الحادية عشر صباحًا..

- عليك أن تصل إلى العاصمة الإدارية في السادسة مساءً..

لا تتأخر..

وصلت إلى العاصمة الإدارية الجديدة في السادسة مساءً، استلمت مهامي على الفور حتى إن الرجل الذي استقبلني لم يرحب بي، مرّت الليلة الأولى هادئة أنا لست حرًا كعادتي، ولدت أسير الضغوطات والالتزامات، قضيت النصف الأول من شبابي أسير سجاني، وها أنا

أقضي النصف الأخير منه أسير محادثة إلكترونية، استلمث مهامي في صمت تام، لم تتواصل معي أسيل الا برسالة واحدة:

- حمد لله على السلامة، في العمارة رجل أعمال اسمه ممدوح أبو الدهب، لا تجعله يغفل عن عينيك.

- من هو؟

- ستعرفه وحدك..

وأنهت المحادثة..

لم أكن في حاجة لمزيد من المناقشات..

أغلقث الهاتف مستعدًا لما سيحدث في صباح اليوم التالي..

كل يوم كنث أقف أمام باب العمارة، ملامحي تختفي خلف نظارتي الشمسية، جسدي مشدود قليلًا من الخوف، أو ربما من الحذر، بدأنا من هنا، البداية الجديدة..

صهيب، كان هذا اسمي الآن، لا ماضٍ فيه، لا ذكريات. فقط الاسم الجديد الذي اخترته لنفسي، أو ربما اختارته لي أسيل، مع أنني في أعماقي لا أستطيع أن أهرب من اسمي الحقيقي ماجد، لكن مع مرور الأيام اكتشفت أنني لا أملك رفاهية العودة، اسمي الآن هو صهيب، نقطة النهاية لعالم قديم، وبداية جديدة لآخر غامض.

في الأيام الأولى، كانت الحياة هادئة، بلا مفاجآت، أو على الأقل هذا ما كُنث أظنه، كنت مجرد مراقب، الشخص الذي يراقب من بعيد، لم يكن لديّ هدف سوى متابعة تحركات هذا الرجل، "ممدوح أبو

الدهب"، حتى تصبح التفاصيل كلها واضحة كما لو أنني أراها في مرآة أمامي، لكن ما كنت لا أدركه، هو أنني كنت أراقب نفسي أيضًا. الحياة هنا لا تشبه أي شيء عشته من قبل، المبنى الفاخر، الناس المترفين، والوجوه المبتسمة التي لا تبدو حقيقية، كل شيء مزيف ومصطنع وغير واضح، الناس هنا يتّسِمون بكل شيء إلا الوضوح، أنت لا تعرف ما تخفي نواياه هذا المجتمع المُرفّه، لا تعرف من أين تأتي الضربة..

ورغم محاولاتي للتأقلم، لكن في أعماقي كان هناك شيء آخر يتربص بي، كان قلبي يصرخ في صمت، الصراخ المزعج الصامت الذي يلتهمك كل ليلة، بعد أن يغلق الجميع أبوابهم خلفهم، كنت أجلس في مدخل العقار أشعل سيجارتي وأفكر في عائلتي، خصوصًا منار، كانت تلك الفتاة التي نشأت معها، والتي كانت في طفولتها حكاية من البراءة، لكنني كنت أعرف أنها أصبحت شيئًا آخر الآن، شيء لا أستطيع أن أصدقه، أختي الصغيرة، التي أصبحت فتاة ليل، ضحية لما لم أستطع حمايتها منه. كل لحظة كانت تلاحقني ذكرى وجهها الطفولي الضائع في تلك الحياة التي لا أعرف عنها شيئًا، في لحظة، كان كل شيء حولي يتلاشى، وأسمع صوتها في عقلي، سؤالها الصامت: "سيكون كل شيء على ما يرام، صحيح؟"

وفي وسط هذه الزوبعة من الأفكار والهموم، سمعت خطوات تدخل العقار، هذا ميعاد ندى، كانت من سكان المبنى، فتاة غامضة، هادئة جدًا، وكأنها جزء من السكون الذي يلف المكان، كان وجهها يشع بملامح خفيّة وحادة، تبتسم فجأة لي ثم تكشر عن أنيابها فجأة، لم أكن أستطيع فهمها تمامًا، ولكن كانت هناك لحظات تظهر

فيها عيناها مثل نافذة لعالم آخر، عالم ممتلئ بالأسرار، شعرها الداكن كان يتناثر برقّة على كتفيها، في حركة بطيئة كما لو كانت الرياح نفسها هي من تحركه. عندما تمشي بين الممرات، كانت خطواتها خفيفة، كما لو أنها كانت تخشى أن تزعج الصمت الذي يحيط بها أو يسكن في قلبها..

في تلك اللحظات التي كنت أراها فيها، كان كل شيء حولي يختفي، كانت نظراتها تتسلل إلى قلبي بشكل غير مباشر، وكأنني أرى فيها مرآة لجزء مني كان مفقودًا، كنت أشعر بجاذبية غريبة تجاهها، خليط من الحزن، والهدوء، والأسرار التي ربما كانت تخفيها عن الجميع. لم تكن تبتسم كثيرًا، لكنها كانت تحمل في عيونها شيئًا ما، شيء يشبه الشوق، أو ربما الألم الذي شعرت به في أعماقي.

كلما اقتربت منها، شعرتُ أن هناك حاجزًا غير مرئي بيننا، حاجز من الزمن والماضي. كانت تسرح في أفكارها، وكأنها لا تبالي بمن حولها، لكنني كنت أعرف أن هناك شيئًا مختلفًا في داخلها، شيء يمكن أن يكون مماثلًا لتلك العواصف التي كانت تجول في قلبي، وفي كل مرة كانت تمر أمامي، كنتُ أرى جزءًا من حياتها يتناثر في ملامح وجهها، وكأنها تخبئ سرًا عميقًا في عيونها الداكنة الغامضة..

كثيرًا حاولت التحدث معها أو على الأقل لفت انتباها، هي الوحيدة التي لم تقف معي ولو لثوانٍ لتتحدث عن أي شيء، تكتفي بالابتسامة فقط فأبادلها الابتسامة وينتهي الأمر عند هذا الحد، هي الرغبة في التحدث معها..

لكنني كنت أخشى أن أقترب، كنت أخشى أن أسقط في ذلك

الجمال الغامض الذي لا يمكن تملُّكه، الذي يمكن أن يبتلعني. كانت ندى بالنسبة لي، تلك الفتاة التي كنت أرغب في الاقتراب منها، لكنني كنت أعرف أنه لا يمكنني، كنت خائفًا من الحقيقة التي قد تكشفها لي، الحقيقة التي قد تجعلني أرى نفسي كما لم أكن أريد أن أرى.

وفي كل مرة كنت أراها، كان شعور داخلي يزداد، كأنني أريد أن أقترب، ولكنني عاجز، لم أكن قادرًا على تجاوز الحواجز التي بنيتها حول نفسي، ومع ذلك، كنت أتمنى لو كنت في مكان آخر، لو كنت أستطيع أن أكون شخصًا آخر، شخصًا قادرًا على أن يعيش الحياة التي لم أستطع أن أعيشها، خلال هذه الفترة كنتُ معجبًا بها في الوقت نفسه أنا هنا لستُ لأقع في الحب، بل لأؤدي مهمة معينة حتى هذه اللحظات لا أعرف خفاياها..

ثم جاء ذلك اليوم..

في تلك الليلة الباردة، كان الهواء يحمل في طياته بريقًا غير مألوف، وكان السكون يعم المكان، كأن المبنى كله قد تجمد في لحظة واحدة، وفي تلك الساعة المتأخرة، حينما كنت أجلس وحدي في مكان بعيد عن الأعين، شعرت بشيء غريب، شيء ما دفعني للنظر إلى السطح. كان هناك حركة، رفعتُ عيني، فإذا بها ندى، كانت على حافة السطح، واقفة هناك مثل شبح، عيناها تُشعّان خذلان، هزيمة، لست طبيبًا نفسيًا لأفهم تلك الحالة لكنني شخص يعرف معنى الوجع والخذلان، وتلك النظرات التي لاحظتها في عينيها، أعرفها..

أعرفها عن ظهر قلب..

خفق قلبي بشدة، وكانت قدماي تنقلبان إلى الصمت. تردّد عقلي في لحظة، كأنني أشهد حدثًا خارج الزمان، ربما النهاية، أو ربما بداية شيء لم أكن أستطيع حتى تخيّله، لم أستطع تحريك يدي، لم أستطع أن أصدق أن ما أراه أمامي هو حقيقة..

"ندى!" همست بها، صوتي كان ضعيفًا، وكأن الكلمات تخرج من مكان بعيد..

لكنها لم تسمع، كانت تتطلع إلى الأرض، عيناها لا ترياني.

وفي لحظة، اندفعتُ إليها، ركضت بكل قوتي، دون أن أفكر في شيء سوى إنقاذها..

"لا تفعلي ذلك، ليس الآن!"

كان الصوت يخرج مني كصراخ في الظلام.

اقتربتُ منها بخطوات ثقيلة، وكل خطوة تزداد قسوة على قلبي، شعرتُ أن كل شيء في داخلي يتحطم في تلك اللحظة، أنني لا أستطيع تحمل أن أرى النهاية على هذا النحو..

لكنها كانت ثابتة، غير مكترثة بما حولها. في لحظة جنونية، تمسكتُ بها، وقلت لها بصوت يغلب عليه الخوف:

- لن أتركك للموت أبدًا.

تجمّدت لحظة طويلة، وحينما نظرت إلي، كانت عيونها ممتلئة بالعجز والضياع..

فجأة، بدأت تسقط دموعها، دموع كانت مخفية طوال الوقت.

تنهّدَث تنهيدة كفيلة أن تحطم قلبي:

- تعبت.. لم أعُد أتحمّل كل هذا..

في تلك اللحظة، وعيناي تلتقي بعينيها، شعرت بشيء غريب، شيء لم أكن أتمناه، ولكن كان لا مفر منه "أنا هنا من أجلك، لن اتركك للموت"..

كانت أول مرة أسمح لنفسي أن أشعر بأنني أنقذت شيئًا، ليس فقط ندى، بل جزءًا مني كنت قد فقدته أيضًا، لا أعلم أكنتُ أنقذها أم أنقذ نفسي، أربّت على كتفيها أم أنني أعوض نفسي عن شعور المواساة الذي افتقدته طوال حياتي، كنت جالسًا إلى جانبها، أو بالأحرى كنت موجودًا هناك بجانب جسدها الهزيل الذي كان يترنح بين الألم والصمت. شعرتُ بأن السكون الذي يلف المكان هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث، فهذا الصمت كان محملًا بالأسرار الثقيلة التي لا أستطيع فهمها. كان الليل قد تغشى به المدينة بأسره، بينما ظلّت ندى جالسة متكومة على نفسها، وكلما اقتربت منها، زاد هذا الشعور الغريب الذي كنت أحاول تجاهله لكن لم أستطع..

"لماذا يا ندى؟ لماذا فعلتِ هذا؟"

قلتها بصوتٍ كان يخشى أن يتكسر قلبي في أعماق سحيقة تحت ضغط تلك الإجابة التي كنت أعرف أنني لن أستطيع تحمّلها، فأنا مثلها تمامًا فكرت كثيرًا في الانتحار، لكنني لم أجرؤ على الخطوة، أنتظر كلماتها المبعثرة التي ستكشف لي شيئًا عن تلك الظلال التي تعيشها.

التفتت ندى إليّ ببطء، وعيناها كانتا مليئتين بالدموع، وكأنها ترى كل شيء من وراء حجاب، وكأن العالم أمامها مشهد ضبابي، كان وجهها غارقًا في الحزن، وعيناها محاطتان بكآبة لا تنتهي، شعرت بأن هناك شيئًا في داخلها يحترق، شيء لم أستطع أن أراه من قبل..

قالت بتنهيدة حزن:

- أنا تعبت يا صهيب.. أشعر أن العالم قد تقلص حتى لم يعد يسعني. كل شيء.. كل شيء ضدي.

كانت كلماتها تتسرب من بين شفتيها، ضعيفة، متكسرة، كأنها تقاوم شيئًا أكبر منها. كنت أستمع إليها، وكأنني أشاهد معركة في عقلها، معركة لا أستطيع التدخل فيها لكنني أخسر فيها كل شيء..

- ماذا تعنين؟

همست، لكن صوتي كان يتسلل بصعوبة، وكأنني أخشى سماع الإجابة. كانت أصابعي تتوق إلى لمس يديها، لكنني تراجعت، وكأنها كانت تحيط بها جدران غير مرئية تمنعني من الوصول إليها. كنت أعرف أن هناك شيئًا عميقًا يخبئه قلبها، شيئًا يعجز أي شخص عن فهمه..

ثم فجأة، وكأنها لم تكن تسمعني، تابعت ندى، وقد امتلأت عيناها بالدموع:

- أشعر وكأنني غريبة في جسدي، غريبة في عالمي، كل يوم أستيقظ وأنا أرتجف.. وأتساءل: متى ستقبض هذه الأشباح على روحي؟

كانت كلماتها تجرحني ببطء، وتزيد من ذلك الصمت الموحش بيننا، حاولت أن أتمسك بشيء ما، حتى بكلمة أو حتى بنظرة، لكنني كنت أختنق في فوضى مشاعري، عاجزًا عن تقديم أي نوع من العزاء، كيف يمكن لإنسان أن يحمل هذا الكم من الغربة داخل نفسه؟ كيف يمكن للظلام أن يكون أقوى من أي شعاع؟

في تلك اللحظة، لم أكن أعرف ماذا أفعل. كنت أرغب في أن أكون قويًا لها، أريد أن أقدم لها إجابة تقطع هذا الفزع، لكنني كنت أغرق معها في عمق هذا الوجع، كان هذا هو الألم الحقيقي؛ أن تكون موجودًا بجانب شخص ما، وتريد مساعدته، لكنك تجد نفسك عالقًا في مكانٍ لا تستطيع الخروج منه..

ماذا يمكنني أن أقول لها؟ هل يمكنني أن أقدم لها الأمل الذي لم أكن أملكه حتى لنفسي؟

واصلَت:

- أنت لا تعرف ما أخبئه.. لا تعرف ما أعيشه.. أنا أعيش مع شخص...

فجأة سمعت خطوات قوية..

- ندى ماذا يحدث!

للمرة الأولى وقف أمامي ممدوح أبو الذهب بهيبته وشخصيته وقامته الطويلة وشاربه الكثيف..

ظل يتأملني لثواني ثم قال بصوت خشن:

- هذه ليست المرة الأولى التي تقومين بمثل هذه الأفعال، حسابنا عسير يا ندى، أما عنك فأشكرك على ما فعلته.

أخرج من جيبه مجموعة أوراق من فئة المائتي جنيه وأعطاها لي..

رفضتها: لا أحتاج للمال، هذا دوري.

ثم خرجت من السطح إلى أسفل العقار لأترك أفكاري ومشاعري وقلبي وعقلي معهم، عدت إلى المكتب الخاص بي في مدخل العقار، في تلك اللحظة، بينما كانت أفكار تتشابك في رأسي، وبينما كان قلبي لا يزال ينبض في قلق على إخوتي، أخرجت الهاتف من جيبي، كانت رسالة من أسيل تنتظرني، كما لو كانت نوعًا من الإغاثة، للمرة الأولى ظللت أنظر إليها من الخارج قبل أن أفتح صندوق الرسائل، حاولت التشبث بالهدوء قدر المستطاع..

أمسكث الهاتف بيدي المرتجفتين، وقرأت رسالتها، كان مجرد سؤال عابر:

- كيف حالك؟

تصارَعَت الأخبار في رأسي، هل تسأل لأنها تريد أن تسأل أم تسأل لأن ثمة أمور جديدة سنقوم بها، الرد على سؤالها سيوقف تلك الاسئلة، محادثة بين صهيب وأسِيل.

رددت:

- أنا لا أفهم شيء هنا، كل شيء غريب عني، حياتي في هذا المكان كأنها جزء من حلم تائه وظيفة لا تناسبني، المراقبة المستمرة

لكل شيء حولي، هذا الرجل ممدوح أبو الدهب، الذي أراقبه بكل تفاصيله، أصبح ظلًا يلاحقني في كل زاوية، هذا المبنى، هذا الحي، والوجوه التي تبدو مألوفة لكنها في نفس الوقت بعيدة جدًا عني.

كتبت أسيل:

- صهيب، أسمعني جيدًا، لا تستهلك وقتي في تفاصيل فارغة، هذه ليست مشكلتك. مكانك هنا لا يتجاوز تنفيذ أوامري، إذا لم تكن مستعدًا للانصياع لقراراتي، فلا تَعُد إليَ مطلقًا".

قلت:

- لكن كان هناك شيء غير متوقع. من بين هذه الوجوه، كان هناك شخص واحد، ندى كنت أراها كل يوم، أراقبها من بعيد، وكأنها تمثل شيئًا غير مفسر في حياتي. كانت تعيش في عالمها الخاص، وحين اقتربث منها، اكتشفث أن هناك شيئًا بداخلي انفجر، في لحظة غير متوقعة، كادت أن تفقد حياتها، كنت هناك في اللحظة المناسبة.. أنقذتها.

ردت:

- لا تحاول أن تبرر لي أفعالك، إذا لم تتوقف عن التورط في هذه المواقف، سأتخذ قرارات قد تكون ضدك، التزم بما أقوله لك، ولا تكرر هذا الخطأ مرة أخرى، أنت هنا لتنفيذ أوامري فقط.

قلت بتنهيدة يغلب عليها اليأس:

- لكنها كانت على وشك الانتحار. أسيل، شعرت أنني لا يمكنني البقاء بعيدًا، كنت هناك في اللحظة التي احتاجت فيها إلي.

قالت بكل وضوح:

- لا يهمني ما شعرت به، لا تظن أن لديك الخيار هنا، الخيار الوحيد هو أن تنفذ أوامري دون اعتراض، إذا لم تفعل، ستكون العواقب وخيمة، وأنت تعرف ما أقصد.

قلت:

- لكنني شعرت أنني لو فعلت ذلك، كنت سأخسر جزءًا من نفسي.

فردت:

- أنت تخسر نفسك الآن، وأنت لا تعرف ذلك، ولا يهمني أن تخسر جزءًا من نفسك، ما دمت تلتزم بما أقوله، لا تلعب دور المنقذ، هذا ليس دورك، ولن أسمح لك بتكرار هذا الخطأ، ولأنك لا خيار لك سوى أن تتبع قراراتي. لا تسألني عن أشياء لا تخصك، ولا تتوقع مني أن أكون في مكانك، ستفعل ما أمرتك به، هذا هو كل ما يهم. وإذا لم تفعل، سأسحب يدي من كل شيء وأضع مكانها أساور السجن، لا تنسى هذا أبدًا.

نظرتُ للشاشة صامتًا، شعرت كما لو أن كلماتها تجزني إلى نقطة اللاعودة. كنت أعلم أن قراراتها قاسية، حازمة وقوية لدرجة أنني لم أستطع الرد عليها..

أغلقت الهاتف وفي صباح اليوم التالي عادت الحياة إلى طبيعتها، كما لو أن ما حدث بالأمس وتلك الليلة القاسية التي مرت عليّ وعلى الجميع، لم تحدث، كل شيء عادي وطبيعي جدًا حتى أبو الذهب خرج في ميعاده الصباحي اليومي وألقى عليّ نظراته الباردة، ربما

الشيء الوحيد المختلف في هذا أن في نظراته شيء من الترقب، كان وكأنه يعرفني جيدًا أو يعرف كل شيء عني..

مر اليوم وفي رأسي كل تساؤلات الدنيا في عقلي، طوفان حول سؤال واحد يتكرر في ذهني، كيف لفتاة مثل ندى التي تعيش حياة مستقرة في حياتها أن تفكر في إنهاء حياتها؟ كيف يمكن لإنسان أن يصل إلى هذا الحد من اليأس وسط حياة قد يراها الآخرون مثالية، يراها ويتمناها الآخرون طوال الوقت..

هل تعاني من الوحدة لهذا الحد؟ للحد الذي يجعلها تلجأ لهذا الحل المصيري والنهائي، ألا يوجد شخص واحد في الحياة قادر على إعطائها الأمل، شخص واحد تشعر معه بالراحة والأمان، يفتح لها قلبه لتفرغ فيه ما يثقل صدرها؟

ضحكت مما فكرت فيه فأنا مثلها تمامًا لا أملك شخصًا يمكنني اللجوء إليه في لحظاتي الصعبة، لا أملك شخصًا واحدًا يمكن أن يمدني بالأمل وأعبر له عما يضيق في صدري، لكنني على الأقل لم أولد في بيئة مرفهة بهذا الشكل، تخيلت مثلًا كيف ستكون شكل حياتها لو عاشت في الحي الفقير الذي ولدت فيه، هناك حيث الناس بإمكانهم قتلك من أجل بعض المال، يتصارعون ويحتد الصراع بينهم من أجل طوابير العيش، وقد تحدث جرائم قتل من أجل الفوز بكيلو سكر أو زيت مدعم، ماذا لو عاشت تحت خط الفقر مثلما ولدت ونشأت، ثم كم مرة فكّرت في الانتحار؟ كم مرة فكرت هذه المسكينة في الخلاص لتنهي حياتها؟ كم مرة شعرت بالوحدة والغربة، وكم مرعبة هي الأسرار التي تحملها في عينيها حتى تصل

إلى هذه المرحلة، ظلت الأسئلة تطاردني طوال اليوم حتى توقّفت في المساء حين وقف أمامي ممدوح أبو الذهب، أشار إلى زملائي في الأمن بالخروج من العقار، لنبقى أنا وهو فقط، ظل يتأملني لدقائق ثم سحب نفسًا عميقًا من سيجارته وبكل حزم قال:

- هذه ليلتك الأخيرة هنا، من الغد ستصبح المسؤول الشخصي عن منزلي..

قلت وأنا أتلعثم:

- لا أفهم!

بنظراته الأكثر حدة قال:

- لن تصبح حارس للعقار بل ستصبح حارس لمنزلي وستصبح أحد رجالي.

لم أرد عليه، فقال:

- أبو الذهب لا يقترح أبو الذهب يأمر، لقد بلّغت شركة الأمن بهذا القرار، هذه آخر ليلة ستنام فيها هنا ومن صباح الغد سيتكفل أحد رجالي بأمرك.

صعد للمصعد ليتركني وسط سيل من الأسئلة، أمسكت الهاتف لأتواصل مع أسيل وفي رأسي لست مستعدًا أبدًا لسيل من الهجوم والضغط قد لا اتحمله، وقد تُقرّر فجأة الوشاية بي، دقائق عصيبة مرت بي انهيتها فور إرسالي لها:

- أسيل حدث أمر ما..

ردت بعلامة استفهام.

لقد أمر ممدوح أبو الذهب بنقلي من حراسة العقار إلى حراسة منزله الشخصي، وأخبرني أنني لا أملك رفاهية الرفض..

توقعت أن تنهال علي، لكنني فوجئت بردها:

- رائع! اقتربَت مهمتنا الأولى، نفِّذ كل ما يطلبه منك لكن لا تنسى، إياك أن تصدق أو تثق في أي شخص مهما كان.. وداعًا!

بهذه البساطة لم أفهم بالضبط ما يدور في رأس هذه الغامضة المزعجة، توقعتُ أن تنهال عليّ، لكنها حتى لم تخبرني ما عليّ القيام به، ثم أيّة مهمة تنتظرني في منزله!

قضيتُ الليلة والتساؤلات في رأسي، لم أنم من قسوة التفكير والتساؤلات حتى جاء الصباح، أيقظني أحد رجال ممدوح أبو الذهب، كنت في حالة توتر لا أفهمها، ركبت سيارة من تلك التي أراها في الأفلام، انتقلت إلى أحد الأماكن التجارية الضخمة، طوال الطريق لم أنطق حرفًا، حتى الحارس والسائق لا يتحدثان مع بعضهما البعض، اختارا بعض البدل والملابس ولم يسألاني حتى عن رأيي، وفي ظرف ساعتين وأنا لا أفهم ما يحدث معي، عدتُ إلى العقار، صعد معي أحد رجاله، زادت ضربات قلبي بسرعة جنونية، دخلتُ المنزل، أشبه بقصر، الديكورات، الأثاث، الإضاءة، تشعر وكأنك دخلت الجنة، في الشرفة هناك كان يجلس ممدوح أبو الذهب، وقفت أمامه، نظرَ إليّ من أسفل لأعلى، كان وكأنه يعريني بنظراته، ثم أشار بيده للرجل ليأمره بالخروج، ظللتُ واقفًا لدقائق كانت طويلة جدًا ثم قال:

- أنت هنا لا تسمع إلا عندما آمُرك أن تسمع، لا تتكلم إلا حينما آذَنَ لك بالكلام، لا ترى إلا بعد أن آذَن لك أن ترى، أنت هنا لا تنتمي إلا لأوامري، لا توجد حياة خارج هذا المنزل إلا بعد أذني لك بالحياة، وإن أمرتُك بالموت فلن أكلّف نفسي إلا جرة قلمك لتنتهي قصتك، لا مناقشات، لا اقتراحات، لا أفكار، أنت هنا أحد رجالي، حتى أفكارك الداخلية لا تسمع لها، أنا شيطانك وأنا ملاكك وأنا الآمر وأنا الناهي الوحيد هنا، مجرد خطأ ولو بسيط سيكلّفك حياتك..

أشار إلى أحد الغرف ثم قال:

- لا تخرج منها إلا بعد أن آمرك بالخروج.

لهذا الشخص قدرة هائلة على السيطرة علي، شعرتُ أنني تحت تأثير النوم المغناطيسي، اتجهت إلى الغرفة في صمت وهدوء تام، ارتميت على السرير الذي حتى لم ألاحظ شكله، وغفوت في نوم عميق لا أفهم سببه، استيقظت وكأنني كنت في معركة طويلة جدًا ممتدة لسنوات، لكن ما أيقظني كانت حركة خفيفة على السرير..

ندى!

الفصل الرابع

كان الوقت يمر ببطء شديد، كل ثانية تثقل كاهلي وكأنها ساعات لم أكن مستعدًا لما حدث بعدها، ولا يمكنني وصف الدهشة التي اجتاحتني وأنا أنظر إلى شاشة الهاتف، رسالة واحدة كانت كافية لتجميد كل أفكاري، لتعطيل كل ذرة في جسدي عن الحركة.

- مرحبًا، أنا ميرال!

قلبي تسارع نبضه بشكل مخيف، كل ضربة منه كانت تحمل في طياتها ذكرى قديمة، ذكرى دفنتها قبل سنوات، صحيح أنها ما زلت عالقة هنا في رأسي، لكنها فعليًا وواقعيًا انتهت. كيف يكون ذلك ممكنًا؟ لقد رأيتها تُدفن بأم عيني، حضَرتُ عزاءها، وسمعت الهمسات الحزينة من أقاربها وهم يتلون آيات الرحمة، كانت الحقيقة واضحة كالشمس، ميرال رحلت عن عالمنا، أو هكذا كنت أظن.

لكن الآن.. الآن، ومع كل حرف من حروف هذه الرسالة، كان الشك يزحف إلى عقلي كوحش ينهش هدوئي، هدوئي المزيف من الأساس، من الذي يجرؤ على اللعب بجرح قديم كهذا؟ من يمكنه أن يعيد فتح باب الألم الذي أغلقته بيدي منذ خمسة عشر عامًا؟ ومع ذلك، كان هناك جزء مني لا يستطيع تجاهل الحقيقة، مهما كانت مستحيلة..

- من أنتِ؟

ردت:

- لا أظن أنك نسيتني، أنا ميرال صديقتك القديمة.

لم أرد عليها بل بدأت في الدخول على حسابها بشكل مباشر، تبدو وكأنها تقضي حياتها بشكل عادي وطبيعي جدًا جدًا..

ردّت:

- أعرف أنك مندهش من هذه الرسالة، وأستوعب أثر الصدمة عليك، وأتفهّم تمامًا شعورك الآن، لكنني كنت مجبرة على الكذب والغياب طوال هذه السنوات لأسباب لا تعرفها، لكن ما ينبغي عليك أن تعرفه هو أنني من اللحظة الأولى وحتى عشرة أعوام كنت أنتظر هذه اللحظة، اللحظة التي أتحدث معك وأخبرك أنني ما زلت بخير، وأن كل ما حدث كان رغمًا عني.

لا أعرف وقتًا أثقل من مثل هذه اللحظات التي مرّت بي، لم يتأثر قلبي بكلمات أكثر من هذه الكلمات، ظللت قرابة ساعة في حالة انهيار تام، حتى فوجئت أنها اتصلت فيديو!

رددت على الفور..

- ميرال!

تأملت ملامحها.. حركاتها..

نظرت لها طويلًا.. طويلًا جدًا..

تغيرت كثيرًا، تغيرت جدًا..

ملامحها أصبحت أكثر حدة ووضوح..

ردت وهي تبتسم ابتسامتها الباهتة:

- يومًا ما سأخبرك بكل شيء.. ثق بي.

أغلقت المكالمة وفي رأسي كل الذكريات التي حدثت في عشر سنوات..

عشر سنوات، كل يوم منها كان جرحًا يفتح في صدري، وكل لحظة كانت شاهدة على انحداري البطيء نحو هاوية لم أدرك قاعها حتى الآن، ربما تسلّلَت أيامي مني حتى ضاع عمري، كانت الذكريات تقتات من روحي، تأكلني حيًا وأنا أتمسك بصورتها في ذهني، أرفض أن أتخلى عنها وكأنها كانت طوق النجاة الوحيد الذي يمنعني من الانهيار التام، كل التحديات التي خضتها في حياتي كانت من أجلها فقط؛ لأُثبت لها أني كنت أسترجع صوت ضحكتها، رائحة عطرها، تلك النظرة التي كانت تمنحني الأمان.. كل ذلك كان يتلاشى أمام حقيقة "ميرال رحلت، ولن تعود".

حاولث أن أكمل حياتي، أن أجد في علاقاتي الجديدة شيئًا من الأمان، الطمأنينة، لكن كل محاولة كانت تصطدم بحائط ذِكراها، كنت أرى ملامحها في وجوه الأخريات، أسمع صوتها في همساتهن، فأهرب، لكن وكما كانت تتساءل أم كلثوم دائمًا: "أهرب من قلبي أروح على فين"!

كُنت أعيش في سجن من صنع يدي، سجن من الحنين والندم والأسى، كسرت قلب الكثيرات، وهن لا يعلمن أن القاتل الحقيقي لم يكن سوى شبح امرأة رحلت منذ زمن بعيد.

ولم تكن لحظات النجاح سوى محطات فارغة، بلا معنى، ما قيمة التصفيق والتهاني إن لم يكن بين الجموع وجهها وضحكتها؟ ما

طعم الفرح إن لم يشاركها قلبي؟ تحوّل كل شيء إلى ركام من الذكريات المؤلمة، أصبحت أتعمد الوحدة، أغرق في صمت مُطبق، لا يقطعه إلا سؤال واحد: "لماذا؟ لماذا كانت الحياة قاسية إلى هذا الحد؟"

والآن، بعد كل تلك السنوات، أجد نفسي أمام رسالة تحمل اسمها، رسالة تهز كياني وتعيدني إلى نقطة الصفر، هل يعقل أن يكون كل هذا الحداد كان نفاقًا وكذبًا؟ أن تكون كل دمعة، كل ليلة أمضيتها أبكي في ظلام غرفتي، مجرد وهم؟ كيف يكون كل هذا الألم الذي سكنني خديعة؟

ظللت قرابة ساعتين في حالة صمت شديد، صمت وغربة من كل شيء حولي..

سألتها:

- متى سنلتقي..

- أريد هذا أكثر منك، لكن لا بد أن نتحدث أولًا، هناك الكثير من الأشياء التي حدثت وأريد إخبارك عنها..

- لماذا انتظرت كل هذه السنوات؟

ردت:

- لأنني كنت انتظر الوقت المناسب، أنت لا تعلم أي شيء عما حدث ويحدث معي، ربما عزائي الوحيد أنك سلكت كل الطرق التي يمكنك من خلالها مساعدتي، أنا فخورة بك..

للمرة الأولى أشعر بقيمة ما حققته، تخيّل كل هذه السنوات من الإنجازات والخطوات المهمة، لم أشعر يومًا أنني حققت شيء يُذكَر، على عكس كل ما حققته كان لا يسوى عندي عقب سيجارة، للمرة الأولى أشعر أنني شخص ناجح، كيف لـ شخص واحد أن يبث فيك ما لم يبثه فيك مئات وآلاف الأشخاص، الحقيقة البشرية أننا ننتمي لمن نحبه ويحبنا، ننتظر منهم الحب والدعم والمساندة دونًا عن العالم، فما أعرفه أننا لا نحب الحياة، إنما نحب ما نحققه في الحياة حبًا فيمن نحب..

في هذه اللحظات أرسلت إليّ ريحانة، تشكرني على تفاصيل اليوم، الحقيقة أن فاجعة ميرال كانت أنستني اليوم اللطيف الذي عشته مع ريحانة. أخبرتها أنها إنسانة في غاية الرقة واللطف، ثم عدت للتحدث مع ميرال التي كانت قد كتبت:

- اسمع يا كريم، لا أريد أن تتوقف حياتك عند التواصل بيننا، صدقني أنا أعرف كل ما يحدث في حياتك وأعرف تمامًا أنها تسير بسرعة جنونية، أعرف أيضًا عن النساء اللاتي كسرت قلوبهن، والنساء اللاتي عاهدتهن ولم توفِ بعهدك، أعرف الكثير من الأشياء عنك، لذلك أرجوك لا تتوقف عن السعي والركض، وسأكون معك حتى النهاية.

ضحكت:

- هل تظنين أني أثق بك؟

- نعم، والأيام ستثبت لك أنني جديرة بالثقة والحب الذي قضيت سنوات تحبني به، أخيرًا أرجو ألا تخبر أحدًا بحديثنا، هذا سيهدد

حياتي تلك التي أجاهد الآن لأحافظ عليها.

لم أستطع أن أتمالك نفسي، غلبني النعاس، وفي اليوم التالي اتجهت إلى المستشفى، كان رأسي مشغولًا بثلاثة مواضيع أشدهم قسوة صراعي مع علي، وأكثرهم صداعًا وغموضًا ظهور ميرال، وريحانة تلك الوردة البنفسجية الجميلة، التي تعطي رائحة ولون لغابات شاسعة من البلّوط الأسود الكئيبة الحزينة، طوال اليوم لم يفارق الهاتف يدي عسى أن ترسل إلي ميرال رسالة جديدة، مر الوقت ببطء شديد، خلال اليوم كنت أتحدث من حين لآخر مع ريحانة، إنني منجذب لهذه الفتاة بطريقة غير مبررة، حين أراها أنسى العالم، تتلاشى أحزاني وهمومي كضوء الشمعة في النهار، أشعر وكأن أثقال الحياة فجأة تحولت إلى جناح فراشة، جميل ومنمق وخفيف، أحس بالراحة في روحي تلك المثقلة بالهموم، وتتلون نظرتي السوداوية الكئيبة للأشياء إلى ألوان وردية جميلة، حين أتحدث معها أنبهر أنا الذي ملّ من مشاهدة الجمال، أنبهر بمجرد حديثنا، حين تحكي تفاصيل يومها أسمع وكأنها تحكي لي عن قصص الأساطير، في رأسي كل الفوضى، أعجز عن شرح كل هذه الفوضى مع الآخرين، أفكّر في المعاني والكلمات، ومعها أتحول إلى طفل صغير، طفل أبله وساذج لكنه صادق، كل فتاة عرفتها كان يجمعني بها شيء مُدنّس، ربما شيء من الشهوة، شيء من المنفعة، شيء من الرغبة، إلا هي، فقد كنت أعلم أن الطريق لها مسدود تمامًا، ومع ذلك قررت الخوض لا من أجل الفوز بالرغبة فيها، بل لأنها بجواري، لهذا الطفل الساذج الذي يظهر معها وكأنه يستكشف العالم من جديد، أن تعيد عجوزًا في السبعين لأيام طفولته، أشعر معها بكل

المشاعر التي لم أشعر بها منذ سنوات عجاف..

الحب، الشغف، الانتظار، الدهشة، والبراءة..

المثير أن هذا الشعور لم يتغير رغم عودة ميرال، ربما لأن عقلي إلى الآن لم يستوعب ما حدث، ورغم إيماني التام أنني لم أحب في حياتي مثلما أحببت ميرال، إلا أنني أومن أيضًا أن لريحانة شيء مختلف في قلبي، شيء لا أريد فهمه أو البحث عما يدور فيه، لكنني أثق كل الثقة أنه شعور صادق وبريء.. أظن أنها تستحق.

يوم آخر وفي رأسي أسئلة أخرى جديدة، يوم آخر وقد طرأ على حياتي ضيف قديم، ضيف وجوده محل شك ما بين أن يزيد خراب كل شيء أو يعيد ترميم كل الأشياء التي دمرها رحيلها، تخيّل رسالة ميرال أعادتني لنقطة الصفر من الجديد، وزَرَعَت الشك في كل خطواتي التي خطوتها، ثم إنني لم أعد ذاك الطفل الذي أحبّته وكانت بجواره، تغيّرت، تغيّرت كثيرًا، الحياة معركة قد تخوض معارك طويلة فيها، احتمالية النجاة منها ضئيلة تمامًا كـ احتمالية الموت، لكن الشيء المؤكد الوحيد في تلك المعارك هو أنك لن تعود كما كنت قبل أن تدق طبول الحرب..

مر اليوم ظاهريًا في غاية الهدوء والبرود، لكن في رأسي اجتمعت كل أسئلة العالم، كل الأسئلة التي أريد الهروب منها، واجهتني بكل ضراوة، كيف لي أن أصدق أنكِ أمامي الآن؟ عشرة أعوام، مرت كالعمر بأسره. عشرة أعوام ظننت فيها أنني فقدتكِ إلى الأبد، وأنني أصبحت شيئًا آخر، لا ينتمي إلى تلك الحياة التي كنتِ فيها. كيف يمكنني أن أتقبل أن الزمان قد خدعني؟ كيف للغيب أن يسرق مني

وجودكِ في لحظة، ثم يعيدكِ إليَّ، وكأنَّ لا شيء قد حدث؟ هل كنتُ أعيش في غفلة عن الحقيقة طوال هذه السنين؟ هل كنت أبحث عنكِ في اللامكان، بينما كنتِ تقفين هنا، خلف جدران الزمن؟

عشرة أعوام من العمر، أعيش فيها وكأنني متشابك مع هذا العالم المظلم. هل كانت كل تلك اللحظات الضائعة التي عشتها بلا معنى؟ أم أنني كنت في رحلة طويلة للبحث عن نفسي، لم أدرك فيها أنني كنت أهرب من شيء واحدًا فقط: من الندم، من الذكريات التي لا تكف عن السعي خلفي؟ كلما حاولت أن أتناسى، كانت صورتكِ تظهر لي، كما لو كانت روحكِ ترافقني في كل خطوة أخطوها. ولكن الآن، لماذا أنتِ هنا؟ لماذا عدتِ بعد كل هذا الوقت؟ هل كنتِ تنتظرين لحظة معينة لتعودي، أم أن الزمن نفسه هو من قرر أن يعيدكِ إليَّ في هذا الوقت تحديدًا؟

هل التغيير الذي مررت به طوال هذه السنين قد قلبني إلى شخص آخر؟ كيف لي أن أجيب عن هذا السؤال؟ هل كنتُ أفضل حين كنتُ معكِ؟ هل كنتُ شخصًا مختلفًا في تلك اللحظات التي كنا نعيشها معًا؟ أم أنني كنت في حالة من الضعف، في حالة من التماهي مع وجودكِ الذي كان يغمرني، بينما الآن، أجد نفسي وحيدًا في هذا الكون اللامتناهي؟ كيف للزمان أن يعيدنا إلى نقطة معينة ونحن قد تغيرنا إلى الأبد؟ هل يمكن أن يعود حب ما بعد سنوات من الغياب؟ أم أن ما بيننا أصبح شيئًا آخر، ذكرى أو خيالًا؟ هل سيكون اللقاء هذه المرة كما كان سابقًا، أم أنني سأسعى لأفهمكِ كما لو كنتِ شخصًا غريبًا عني؟

ولكن السؤال الأهم الذي يعذبني، هو هذا: "ماذا لو أنني لم أعد نفس الشخص الذي كنته؟ ماذا لو أنني فقدت شيئًا جوهريًا في هذه السنوات؟ هل كان هناك شيء ما في هذا التغيير يمكن أن يجعلني غير قادر على العودة إلى الماضي؟ هل كان من المفترض أن أعيش حياتي كما هي، أم أنني كنت مجبرًا على التغيير بسبب غيابكِ، أو ربما بسبب فقدان الأمل؟"

وماذا عنكِ، ميرال؟ هل غدتِ إلى ذات المكان الذي كنتِ فيه، أم أنكِ أيضًا قد تغيرتِ، صارت لديكِ حياة جديدة، وأفكار جديدة؟ هل أنتِ ما زلتِ تلك الفتاة التي كانت تهيم بأحلامها، أم أنكِ قد تحوّلتِ إلى شخص آخر يحمل ذكريات غيري، لحظات ومشاعر لم أكن جزءًا منها؟

كل شيء يبدو ضبابيًا الآن. في هذا اللقاء الذي لا أعلم كيف أصفه، بين ما كان وما هو كائن، أسأل نفسي: هل تلتقي الأرواح حقًا بعد سنوات من الشتات؟ أم أن اللقاء هو مجرد خيبة جديدة، مجرد تعبير عن الفشل الذي لم نره في البداية؟

هل يمكن أن نحب مرة أخرى كما كنا؟ أم أن الحب بيننا قد أصبح شيئًا آخر، ليس بحبه القديم ولا بجوهره الذي كان في البداية؟ وهل يمكن لهذا الزمن الذي مر، بكل ما مر فيه من أحداث، أن يمحو ما بيننا، أو يجعلنا نرى الأشياء بشكل آخر، كما لو أننا ننظر إلى مرآة مشوهة؟

إذا كانت العودة إلى الماضي ممكنة، فهل نحن مستعدون لأن نعيش فيه مجددًا؟ أم أننا مجرد شبحين في عالم لا يعرف كيف

يربط بين الأزمان؟

لم أتحمل كل هذه الأسئلة، لم أجد إلا هند لأتصل بها، سألتها عن مكانها فقالت في المنزل، أخبرتها أنني في الطريق إليها..

- لا تنسى الشيبسي..

- حاضر..

- بالكباب.

- حاضر.

وصلت الشقة، منزلها هادئ وبسيط، أضواؤه خافته وزينته خشبية، هي شقة مناسبة لفتاة تعيش وحدها في زايد، استقبلتني بعناق طويل ثم اتجهت إلى المطبخ لتقلّب السجق وهي تدندن..

"روحولوا واسألوه قولوله وفكروه

وأديكو سمعتو مني يا ريت لو تسمعوه

شوفوا الحقيقة فين ومين اللي ابتدى

آخرة صبر السنين اسمع من ده وده

مين يرضى بكده اسمع من ده وده

روحولوا واسألوه قولوله وفكروه

عينه لسه في عينيا وكلامي أوله

بيجيب اللوم عليه والحق يبدّله

بيخلي الناس تلومني غلطان وبيتهمني
واحترت فيه ولا أعرف آخره من أوله
شوفوا الحقيقة فين ومين اللي ابتدى
آخرة صبر السنين اسمع من ده وده
مين يرضى بكده أسمع من ده وده
روحولوا واسألوه قولوله وفكروه
روحوا اسألوه وتاني حاولوا تستفسروا
هتقولوا قلبي جاني من غير ما تفكروا
وأكيد هتغلطوني وتحاولوا ترجعوني
علشان كذاب وظالم ولا حاجة تغيره
شوفوا الحقيقة فين ومين اللي ابتدى
آخرة صبر السنين اسمع من ده وده
مين يرضى بكده اسمع من ده وده
روحولوا واسألوه قولوله وفكروا"..

ظللت أدندن مع الأغنية التي يملأها الحيرة، التساؤلات، الحزن، والندم، والظلم. وضعت هند الطعام على الطاولة:

- السجق رائع؟

- لا.

- لا هو رائع لا عليك، أنت لا تفهم في الطعام مثلما لا تفهم في النساء..

ضحكتُ ولم أرد عليها، فقطع عبد الوهاب الصمت القاتل وهو يقول:

"قالوا لي هان الود عليه ونسيك وفات قلبك وحداني

رديت وقلت بتشمتوا ليه هو افتكرني عشان ينساني

أنا بحبه وأراعي وده إن كان في قربه ولا في بُعده

وأفضل أمنّي الروح برضاه ألقاه جفاني وزاد حرماني

هو اللي حالي كده وياه كان افتكرني عشان ينساني

ليه يلوموني وياه في حبي ولا يلوموني على صبر قلبي

هو اللي شفت في حبه الويل ولا رحمني يوم ورعاني

وسهرت وحدي ونام الليل كان افتكرني عشان ينساني"..

ترددتُ لثوانٍ أن أخبرها بما حدث مع ميرال، لكنني عاهدتها ألا أخبر أحدًا..

- هند، ماذا لو عادت ميرال؟

نظرت للنتيجة المعلقة على الحائط:

- نوفمبر؛ موسم عودة الإكسات.

ثم واصلت:

- لحظة! الأموات لا يعودون..

- دعينا نتخيل أنها لم تمت مثلًا وأنها عادت بعد كل هذه السنوات.

أنهينا الطعام وبدأنا في شرب الشاي ونحن نشاهد التلفاز، لم ترد على سؤالي، لكنني رأيت أن سؤالي ما زال يداعب عقلها، ظلّت تشرب الشاي ثم واصلت حكيها عن قصتها وكأنها لم تبالِ بسؤالي:

- شهاب كان رجلًا مثاليًا، هكذا بدأ معي، أنا ابنة الاثنين والعشرين، لم أحب في حياتي، لم أومن بالحب، فقسوة أبي وحدها كانت كفيلة أن تجعلني أتجنّب كل الرجال، ما زلت أتذكّر قسوة أبي تجاه أمي، الليالي التي كانت تقضيها وهي تصرخ وتتألم من جنونه حين تقول رأي يخالف رأيه، ربما تنسى وضع الملح في الطعام، كان يخلع الحزام وينهال عليها، وأحيانًا يمسك الكرباج وينهال عليها حتى تنسل دمائها من كل مكان، كان أب في غاية القسوة، ينظر لعيوننا وهو يضرب، وفور أن يجد منا من يتعاطف ولو بنظرة واحدة ينهال علينا جميعًا، لم أكره في حياتي مثلما كرهت أبي، كان بخيلًا معنا، لا أقصد البخل المادي فهو أبخل مما تعتقد، بل كان بخيلًا عاطفيًا، بل كان يسخر من كل رجل يراه يتعامل مع زوجته بحنية ولين، يتهمه بالخوف والضعف، وربما الدياثة؛ لأنه يدلل امرأته، هكذا كان مفهومه عن الرجل، أن يكون قاسيًا غليظ القلب واللسان ويترك أثر قبضة يديه على جسد زوجته، المقرف في القصة أمي، التي لم تعترض يومًا على هذه التصرفات بل إن أحيانًا كانت تتحمل أكثر وأكثر خوفًا من أن يتحطم بيتنا..

رائعة يا أمي، أرادت ألا يتحطم منزلنا السعيد، فحطمت طفولتنا

بذكريات لا تُنسى..

كل هذه الأشياء كان يمكن التغافل والتنازل عنها، إلا تلك الليلة التي لم ولن أسامحه عليها، كنا نعيش في منزل العائلة في مدينة المنصورة، منزل عائلي ومن لا يعلم معنى أن تعيش في منزل عائلي لن يفهم ما سأقوله تحديدًا، في المنازل العائلية لا مجال للخصوصية، خصوصيتك هي ملكية عامة لكل أفراد العائلة، للغرباء، للأقارب الغرباء عنك، كل أوقاتك مستباحة لهم، قد تجد نفسك تجلس على طاولة طعام مع أشخاص تراهم للمرة الأولى، وترى نفسك تخدم أشخاصًا لا يعرفون حتى اسمك ولا تعرف أسماءهم، حياة قميئة جدًا كلها تدخلات وشروط وقوانين لا تعرفها، كان كل شيء عاديًا، عاديًا بالنسبة لهم مزريًا بالنسبة لي، كانت أمي امرأة مطيعة من الدرجة الأولى، كان إخوتي يشبهون أمي كثيرًا، وبنات الأعمام والعمات يناسبون أيضًا حياتهم الريفية العادية، أما عني فقد كنت فتاة حالمة، أحلم بالمدينة وأضواء وسهر المدينة، وكان اختلافي لافتًا لكل أفراد العائلة، لطالما حاول أبي كبت هذا التفرُّد الفكري الملحوظ، لكنه كان يظهر رغمًا عني.

وذات يوم وقبل امتحان الثانوية العامة بأسبوع، كنت في المنزل وحدي، سمعث صوت طرق على الباب، فكان عمي ابن الخامسة والأربعين عامًا، في العادة يُحب معانقتي، عانقني لكن هذه المرة لم يرِحني عناقه، كانت لمساته جريئة جدًا في العناق، سألني عن أبي فأخبرته أنه في الخارج هو وأمي وإخوتي، فاقتحم الباب ثم جلس على الأريكة، فوجئت من تصرفه، طلب الشاي، فأعددت له الشاي ثم دخلت الغرفة، بعد دقائق فوجئت بوجوده في غرفتي،

سألته عن أن شيئًا ما قد حدث، لكنني رأيت في عينيه شيئًا خبيثًا، شيئًا من الشهوة والرغبة نحوي، دفعته بعيدًا عني، حاول بشتى الطرق التعدي عليّ لكنني قاومت، تحسس جسدي رغمًا عني، وأنا لا أستوعب، عمي القدوة.. الرجل الذي يقتدي به كل شباب عائلتي، التهم شفتيّ وأنا أدفعه بعيدًا عني، هدّدته بالقتل وحين سمع صوت بالخارج، تمالك نفسه ثم عاد للأريكة، تركني في غرفتي في حالة انهيار تام وأنا لا أستوعب ما حاول القيام به، جاء أبي فسمع بكائي وسأل عمي عن السبب، دقائق ودخل أبي!

ترى ماذا فعل أبي؟

أمسك كرباجه وانهال على جسدي بلا رحمة، انهال على جسدي حتى إن صراخي سمعه كل سكان المدينة، فجأة أصبحت المدينة بأكملها في منزلنا، هربت منهم وجريت حافية الأقدام في شوارع المدينة الريفية الملطخة بالطمي والطين، كنت أصرخ كالمجانين بينما يركض ورائي أبي وعمي، حملوني ثم عدنا إلى البيت، واصل أبي الضرب..

أنا أضرب على شيء لا أعرفه..

واصل أبي الضرب المبرح:

- يا عاهرة تقفين مع رجل غريب بعد الدرس في الشارع الجانبي..

يا عاهرة!

بدأت أفقد الوعي..

بينما رأيت عمي يسحبني بين يديه ويطلب من أبي الهدوء، كان

يواصل تحرشه بي، كنت أشعر بيديه وهي تلمس المناطق الحساسة في جسدي، بينما أمامهم كان يحاول تهدئتي، لن تفهم أبدًا ما أقصده لكنني كنت عاجزة عن النطق، أنت لا تتصور أبدًا حجم الأذى النفسي الذي حدث لي بعد هذا اليوم، كلما لامَسَت نظراته عيني، كان شعور غريب يداهمني، شعور ثقيل، كأنني غارقة في مستنقع لا أستطيع الخروج منه، كان هناك شيء في تلك النظرات، شيء يلتهم قلبي ببطء ويتركني بلا نفس، بلا قدرة على التحرك أو الهروب، كنت صغيرة، ضائعة، لا أملك الكلمات لأعبر عما كان يجري في أعماقي، كيف يمكنني أن أصف شيئًا كهذا؟ كيف يمكنني أن أخبر أحدًا بما يحدث لي في كل مرة يقترب فيها مني؟

كنت عاجزة عن الهروب، وعاجزة عن قول شيء، وكأنني أسير في طريقٍ مظلم لا نهاية له، وكلما حاولت الهروب، كانت تلك النظرات تلاحقني، تلتهمني، ولا أستطيع الفكاك منها. في كل مرة يقترب فيها مني، كانت يديه تتسرب إلى المكان الذي لا ينبغي لها أن تكون فيه، لكنني كنت صامتة، عاجزة عن التصدي أو حتى الصراخ. كان كل شيءٍ حولي يتلاشى، كل شيء كان يتغير إلى شيء آخر مظلم، وكل كلمة كانت تتراكم في حلقي لتخنقني أكثر.

كنت في عالم لا صوت فيه إلا همسات الشر التي كانت تخرج من بين شفتيه. كانت يديه لا تعني لي إلا الألم، وكانت ضحكاته تتسلل إلى أذني كدقات مطر ثقيلة في ليلة عاصفة، كانت يده تلمسني بطرقٍ لا أستطيع فهمها، ولا أستطيع أن أوقفها. كنت أرى نظراته المشبعة بالخبث، وكلما حاولت الهروب منها، كانت نظراته تلاحقني، تزداد سخونة، تتعمق في قلبي وتخنقني أكثر.

كنت أريد أن أصرخ، أن أخبر أحدًا بما يحدث لي، لكنني كنت أخشى ألا يصدّقوني، أخشى أن يقولوا لي: "أنتِ تبالغين، لا يمكن أن يكون عمك هكذا". كان يخبرني دائمًا أنني يجب أن أكون ممتنة، أنني يجب أن أكون هادئة، وألا أخبر أحدًا بما يحدث، كان يبدو كأن هذا هو الواقع الوحيد الذي يجب أن أعيشه، وأنا لا أستطيع الهروب منه. كنت أعيش في خوفٍ دائم، في ظل تلك النظرات الساخنة التي لم تكن تعني لي سوى الوعيد.

كنت أكره نفسي لأنني لم أستطع أن أوقفه، ولم أستطع أن أواجهه، كان يشبعني بالخوف، وكان يشبعني بالذنب، وكأنني كنت السبب في كل شيء، وكأنني لم أكن قادرة على التوقف أو الهروب، كان كل شيءٍ يتحول إلى كابوسٍ بلا نهاية، كانت نظراته تلاحقني حتى في أحلامي، حتى في يقظتي، وأنا لا أستطيع الهروب منها، كنت أعيش في سجنٍ من صمتٍ مرير، سجنٍ لا أستطيع فيه أن أتحدث، ولا أن أصرخ، ولا أن أجد من يساعدني، كنتُ وحيدة، وكنتُ أعرف أن أحدًا لن يصدقني إن قلتُ الحقيقة.

في كل مرة كان يقترب فيها مني، كنتُ أذبل أكثر، كان يضغط عليّ أكثر فأكثر، ومع ذلك كنتُ أخشى أن أظهِر أيّة مقاومة، لأنني كنت أعرف أن ذلك سيعني النهاية بالنسبة لي، كانت نظراته تحمل في طياتها تهديداتٍ خفية، وأسرارًا مظلمة لا أستطيع تحمّلها، كنت أعيش في دوامة من العجز والتخبط، في خوفٍ دائم من لحظةٍ جديدة يقترب فيها مني، وكلما أغمضتُ عيني لأستريح، كانت ذكريات تلك اللحظات العفنة تعود لتغزو عقلي، فتجعلني أعيش في

جحيمٍ لا أستطيع الفكاك منه.

كنتُ أريد أن أصرخ، أن أقول لهم، لكنني كنت أعرف في أعماقي أنني لن أكون سوى فتاة سخيفة في أعينهم. كيف لي أن أواجه عائلتي بتلك الحقيقة؟ كيف لي أن أقول لهم أنني كنت ضحية؟ لا، لا أحد سيصدقني، لا أحد سيراعي ما مررت به. كنتُ أريد أن أفر من هذا الواقع، أن أهرب إلى مكانٍ بعيد، حيث لا يوجد أحد ليتحكم في حياتي. لكنني كنت محاصرة، محاصرة بين جدران من الخوف والصمت، لا أستطيع أن أرى مخرجًا، ولا أستطيع أن أواجهه، ولا أستطيع أن أستمر في الحياة كما كنت من قبل..

استمر الوضع أكثر من ثلاثة سنوات، فشل حلمي في الالتحاق بكلية الهندسة، وأصبحت أنا الفاشلة الوحيدة في عائلتنا، بالطبع قضيت ثلاث سنوات لا يتخللهم ليلة واحدة إلا وفيها أنال كل أنواع العقاب الجسدي والنفسي، فشل حلمك الأول ليس بالأمر الكارثي وإن كنت وقتها أراها كارثة لا يضاهيها أي كارثة، لكن الأزمة الحقيقية بالنسبة لي وقتها كانت في الصمت، أنني لا أستطيع الاعتراف بسبب الفشل، بسبب ما حدث ويحدث معي بشكل متكرر ولا أستطيع التعبير عنه، مع عائلة يرجمونني على ذنب لا أعرفه ولن يصدقونني لو أخبرتهم أن عمي القديس المسالم، شيخ الجامع الذي لا يتأخر في أداء فريضة واحدة هو نفسه الشيطان الذي يتحرش بابنة أخيه، تحولت الفتاة الحالمة المشاكسة الطموحة إلى فتاة مهملة، بلا حلم، بلا هدف، بلا روح، موقف واحد في حياة الإنسان يا دكتور كفيل أن يُطفأ إنسان، أن يحطّمه تمامًا ويجعله كـ ورقة في قلب عاصفة تعصف بها أينما وكيفما تشاء، أهملت كل شيء، انتهت

قصتي قبل أن تبدأ، وسقط خريف عمري قبل ما أن يبدأ الربيع..

أشعلَت هند سيجارتها، نفخت في الهواء بشراهة ثم واصلت:

- حياة بهذا الملل كان ينقصها خطوة روتينية بحتة، وفي العام الرابع تزوّجتُ من ابن عمدة بلدتنا الصغيرة، بعدما أنهيت تعليمي الجامعي في السنة الدراسية الثالثة، فلا جدوى من العلم، لا جدوى من الحلم، لا جدوى من الحب، لا جدوى من العائلة، عليّ أن أعيش حياة عادية، فلتسقط أحلام الطفولة، فليسقط طموح الشباب، فليسقط كل ما قرأته وكل ما حلمت به.

في العام الأول من الزواج قضيت حياتي في منزل ضخم، أنتظر العمدة المنتظر، أعد له العشاء، ثم أعد له الفراش لقضاء ليلة ساخنة جدًا بالنسبة له، باردة جدًا بالنسبة لي، لا أعرف كيف تحمّل كل هذا البرود مني، ربما هو لا يعرف شيء عن الأنثى من الأساس أكثر من مجرد علاقة شرعية، كانت علاقة في غاية البرود والجفاء في كل شيء، هذا ليس ما حلمت به وما أردته، لكنني لم أحصل يومًا على ما أردت وما أريد، فلما الغضب والاعتراض، كان عليّ التأقلم، هكذا قرأتُ في كتب علم النفس، وهكذا ترددون أنتم رجال علم النفس، ما دُمتَ لا تملك القدرة على تغيير وضع سيئ فعليك أن تتأقلم..

كل شيء كان باهتًا وعاديًا ومملًا..

نظرَتْ إليّ هند ثم واصلَت:

- العمدة يريد الحفيد، وابن العمدة يريد الابن، والبلد تريد أن تفرح بالعمدة وابن العمدة، وعائلتي تريد أن تفرح بحفيدها ونسلها

الجديد من عائلة العمدة، وكل هذا يتوقف عليَ أنا، وبدأ الضغط مرة أخرى، صممت على الرفض لفترة طويلة، وكل يوم يزداد الضغط، من زوجي، من عائلته، من عائلتي لكنني لا أريد الإنجاب..

قلث:

- أنتِ لا إنجابية؟

ضحكَث:

- نعم، لماذا عليّ أن أنجب طفلًا في هذه البلدة، وهذا المستنقع العفن الذي نعيش فيه، تخيّل أن يولد ابني في هذا الريف الوضيع، يعيش مع هؤلاء المتطفلين الحمقى أولاد الكلب، لماذا عليّ أن أكون سببًا في شقاء شخص آخر لا ذنب له..

استمر الوضع لأيام ثم أشهر ثم انتهت محاولة المفاوضات الكلامية، فلقد فاض الكيل بهم جميعًا، وبدأ توعد بالضرب والاغتصاب، أنتِ مجرد بطن تحملين ولي العهد، العمدة الجديد، وبدأ عامي الثالث والعشرين، بينما من هن في سني، يعشن أجمل أيام حياتهن، كنت أنا أعيش مأساة جديدة في زواجي..

20 نوفمبر..

ليلة عيد الميلاد، طوال حياتي لم أحتفل بيوم ميلادي؛ لأن عائلتي ترى أن هذه بدع لا يجوز الاحتفال بها، بينما أصدقائي كانوا لا يفهمون من الأساس معنى الاحتفال بيوم الميلاد، وسط كل هذا الضغط أردث أن أفعل شيئًا مختلفًا، لا أعرف تحديدًا ما هو هذا الشيء لكنني أردت تخليد ذكرى مختلفة، في هذا الوقت كنت

أتحدث مع بعض الفتيات والشباب في ورشة لتعلم اللغة "أونلاين"، وبالصدفة في هذا اليوم قرروا أن يجتمعوا في القاهرة، المسافة بيني وبين القاهرة تبعد حوالي خمس ساعات، اتصلت بزوجي لأخبره أنني أريد الذهاب إلى القاهرة لأمر مهم، بالطبع رفض رفضًا قاطعًا، لم يفاجئني رفضه، لم أخرج منذ زواجي من الأساس، حتى زياراتي للعائلة منعها منع قاطع كان يسمح لهم بالمجيء للدوار فقط، رغبتي في تحقيق شيء ما يذكر كانت مسيطرة علي، لذلك لم أتردد، ارتديت ملابسي واتَّجهت إلى موقف المراكز، ثم إلى المدينة، ومن ثم إلى القاهرة وعندما خطت قدماي القاهرة لأول مرة، كنت أشعر بمزيج من الفضول والخوف. كنت قد سمعت كثيرًا عن المدينة الكبيرة، وعن زحام شوارعها وأضوائها الساطعة، ولكنني لم أكن أتصوّر أن الحياة فيها ستكون بهذا الشكل المختلف تمامًا عما اعتدت عليه في الريف.

في الريف، كانت الحياة عبارة عن روتين ممل. كانت الأيام تمر ببطء، وكل شيء كان ثابتًا وثابتًا جدًا، في الصباح نخرج إلى العمل في الأرض، وفي المساء نعود لننعم بهدوء لا يتغير، لا يوجد جديد، لا شيء يحفزني على التفكير أو يحرك داخلي شيئًا من الحلم. الناس في الريف يعيشون في فقرٍ مستمر، ولكنهم يظنون أن هذه هي حياتهم الوحيدة الممكنة، لا شيء يغير من أحوالهم، لا أُفق يتسع أمامهم، ولا فرصة حقيقية للإبداع أو التجديد.

لكن، عندما وصلت إلى القاهرة، شعرت كما لو أنني دخلت عالمًا آخر تمامًا. المدينة كانت مليئة بالحركة والطاقة، الشوارع كانت تعج بالناس الذين يسيرون بسرعة وكأنهم في سباق مع الزمن، المباني

العالية التي تكاد تلامس السماء، والأضواء الساطعة التي تملأ الأفق، جعلتني أشعر بأنني في قلب عالم من الأحلام، في الريف، كانت السماء ضيّقة، والعالم أشبه بثقب إبرة، في القاهرة، شعرت أن العالم واسع، وأن الفرص أمامي لا حصر لها.

في الريف، كنت أعيش في أجواء من الأمان الزائف، كان الجميع يعرف بعضهم، وكان الجميع يراقب حياة الآخرين، هناك، لم يكن لديّ أيّة خصوصية، وكل حركة كنت أقوم بها كانت تحت المراقبة، أما هنا في القاهرة، شعرث بشيء من الحرية لم أختبره من قبل، الناس هنا لا يهتمون بمن تكون، بل بما تفعله، الكل مشغول بحياته، وكل شخص يسعى لتحقيق هدفه الخاص. كان هناك شعور غريب بالأمان، رغم الزحام والفوضى لكنني أشعر بالأمان والحرية..

التقيت بأصدقائي الذين أراهم للمرة الأولى، بدا وكأنني أكبُرهم بعشرة أعوام مثلًا، كلهم لا يفكرون إلا في السفر والرفاهية والحرية، ومن هم أكبر مني بعشرة أعوام أشعر وكأنني أكبُرهم بمثلهم..

لم يتوقف الهاتف عن الرّن، هنا علمتُ أن أمري قد انكشف وقد عرفوا أنني غادرت الدار، أغلقت الهاتف لأستمتع بلحظاتي المعدودة هنا، كنا مجموعة من الشباب والبنات، تناقشنا في أمور عدة، كنت أتحدث معهم بحياء وتوتر، أخشى أن أتحدث كثيرًا معهم فينكشف أمر أنني طوال هذه السنوات كنت في عزلة تامة، وأنني فقدت القدرة على التواصل مع الآخرين منذ سنوات عدة..

حتى جاء شهاب..

كان شابًا في بداية الثلاثينات.

تنهدت هند وكأنها لا تريد تذكُّر أحداث اللقاء الأول..

ثم قالت في هدوء تام:

- ظللنا نتحدث لمدة ساعتين، حديث مع شخص واحد يلائم أفكارك وحياتك وطموحاتك، كفيل أن يمر عليك كـ دقائق، شعرت أنني أتنفَّس بعد سنوات من الكبت والضغط، كنت أعيش حلمًا لا أريد أن أستيقظ منه، حاول شهاب أن يسألني عن حياتي الخاصة لكنني كنت أجيد التهرب منه بمهارة، للمرة الأولى منذ سنوات أتحدث عن أحلامي وطموحاتي في الحياة، تلك التي لم أتحدث عنها منذ زمن بعيد، أوشكت الدنيا على الغروب، واقترب الحلم على نهاية المطاف، وبدأ الكبت والعنف يلوحان من بعيد للحرية التي عشتها، طلب شهاب أن يوصلني إلى موقف السيارات، حاولت الرفض لكنه كان مُصرًّا، وفي الطريق لم أشعر بنفسي إلا وأنا أخلع الحجاب وأترك لشعري الحرية، كانت الموسيقى عالية والأجواء جميلة والهواء شديدًا جدًا لكنه كان ممتعًا، كنت تحت تأثير الأدرينالين، المتعة والحب والحرية، لا أبالي بشيء أكثر من الاستمتاع، وصلنا الموقف لينتهي فصل الحرية السعيد، وقبل أن يودعني قَبّل يدي، شعرت بقشعريرة لم أشعر بها حتى مع زوجي أثناء علاقتنا الشرعية، هذه هي الحياة التي أريدها منذ زمن بعيد..

لكن أسدِل الستار فوق وصولي إلى المركز، هنا استفقت وأدركت أن الحلم الذي حلمت به سيختمه كابوس، رأيت كل سكان البلدة يقفون عند دوار زوجي، قدمت نحوهم بخطوات ثابتة، لا أعرف بالضبط ما ينتظرني لكنني أرى الهمزات واللمزات، لَم أفهم سر هذا

التجمع، أعرف ما ينتظرني، حتمًا سأنال عقابًا في غاية القسوة، لكن بالتأكيد هذا التجمع لا يخصني، اقتربت في هدوء تام، رأيث زوجي يقف بجوار أبي وأبيه وإخوته وإخوتي بينما أتقدم أنا نحوهم بهدوء تام، رأيت الشر في أعينهم، ما إن باعد عني وعنهم خطوتين حتى فوجئت بامرأتين يمسكاني من يدي ويسحباني..

صرخت:

- إلى أين؟!

هنا تفسح التجمع:

- للمصلبة!

المصلبة يا فاجرة..

سمعت صوت أبي وسط الحشود..

المصلبة! المكان الذي يصلب فيه الزناة واللصوص، غير معقول..

في هذه اللحظة ضحكَت هند بهيسترية وكأنها تحاول إخفاء ذكرياتها الحزينة بضحك هيستري:

- وقف زوجي أمامي ممسكًا بعصا الكرباج، وعينيه لا تترك لي مجالًا للهروب. وراءه، كان أبي واقفًا، على وجهه صرامة وعيناه تشتعلان غضبًا، أمي كانت تراقبنا من بعيد، صامتة، والأمر يبدو كما لو أنه محكوم عليه بالحدوث، كان ذلك اليوم هو لحظة الحسم بالنسبة لهم..

"إنتِ فاكرة إنك هتهربي من غير ما تتحاسبي؟" قال زوجي بصوت

غليظ، بينما خطواته الثقيلة تتقدم نحوي. وأنا، على الرغم من أنني كنت متأهّبة لما سيحدث، إلا أن جسدي كان يرفض الاستجابة، كأنما كان يراوغ الألم القادم.

لم أتمكن من الرد. ضربني أبي أولًا على وجهي وأنا مصلبة، وكأنما كان يطلب مني الاعتراف بذنب لم أرتكبه، كانت اليد التي رفعها تلوح في الهواء ثم تسقط على خدي بعنف. كنت أرتجف، ولكن لم يكن لي أي حق في أن أتملّص من الجريمة التي ارتكبتها في نظرهم.

"هتتعلمي الأدب" قال زوجي، وهو يرفع الكرباج، ويضربني في جسد عشرات الضربات، كان الألم يشتعل في كل مكان، وكان الضرب على جسدي وكأنما يعصر كل ذرة من وجودي، الجلدة الأولى كانت على ظهري، فكأنما سحبت روحي من جسدي، كانت عيناي تغلقان، وكل ضربة تزلزلني بشكل أعمق..

ولكن الضربة التالية كانت أشد، حيث جاء الكرباج ليضرب ساقي. شعرت بالنار تشتعل في جسدي، وكان جسمي مفرودًا أمامهم والدماء تسيل من ظهري الذي مزق سترته الكرباج، عيناي مغلقتان من شدة الألم، وحركاتي غير قادرة على الدفاع عن نفسي..

"جبتي لنا العار يا فاجرة" قال أبي وهو يقترب مني، ويبدأ هو أيضًا في ضربي. كل ضربة كانت تهزني بشكل غير عادي، وكأنني معلقة في السماء لا أستطيع الهبوط، فقط أسقط كلما ضربتني يدهم..

كان جسدي معلقًا في صليب من الضرب، بين يديّ زوجي وأبي، كل ضربة من الكرباج تزيد من الألم وتزيد من وحشة المسافة بيني

وبين نفسي، شعرت بأن كل ضربة كانت تحطم شيئًا داخلي، وتخلّف وراءها صمتًا رهيبًا..

وفي تلك اللحظة، كان بنات القرية يتابعن المشهد من بعيد، كُنَّ جالسات على الحواف، يضحكن بصوت خافت، وعيونهن تتنقل بين بعضهن، وبين جسدي المعروض أمامهن وهو سائل في دمائه. واحدة منهن قالت بصوت واضح: "اللي تهرب لازم تتعاقب". كانت كلماتهن تؤلم أكثر من الضرب نفسه، وكأنهم يضيفون خنجرًا جديدًا إلى جسدي المكسور.

لقد كنت معلقة بين الألم والتهم، بين الأيدي التي تضرب، والعينين اللتين تشمت. الكرباج كان يطير في الهواء بلا توقف، وكان جسدي لا يستطيع تحمله، كل ضربة تجعلني أعيش في عالم من الجروح والدماء، حتى أصبح الكون كله يبدو ضبابيًا أمامي..

لا أعرف متى توقف الضرب، لا أتذكر تفاصيل ما حدث بعد الضربة العاشرة تقريبًا، لكنني أعرف جيدًا أن هذه الليلة كانت نقطة فارقة في حياتي..

ساد صمت طويل بيننا، صمت وكأنها حكت أكثر مما ينبغي، أفهم جيدًا تلك الحالة التي تصيبك فجأة بعد ساعات من الحكي، حالة من الفاجعة وكأن كل هذه الكلمات كانت حبيسة صدرك، انتظرَت لتخرج منك وكأنها هربت من السجن، كل المواقف التي تعمدت التغافل عنها تظهر لـ تُحرّر من سجن الكتمان الطويل..

صمتت هند صمتًا طويلًا مرة أخرى ثم سألتني من جديد عن سؤالي الأول الذي سألته لها: "ماذا لو عادت ميرال؟"

- حسنًا يا صديقي دعك من هذه الخيالات..

- لنفترض يا هند لنفترض يا حبيبتي أنها عادت أو أن كل ما حدث كان خدعة أو لسبب ما اضطرت أن تختفي كل هذه السنوات، ومن ثم قررت العودة، هل أعود؟

تحمّست هند ثم قالت:

- لو كنت مكانك لن أعود أبدًا..

- لماذا؟

- لأنها تركتك سنوات وسنوات في حزن، أظن هذا سببًا كافيًا بألا تعود أبدًا..

رددت متظاهرًا بالغباء:

- لا أفهم ماذا تقصدين؟

ردت وهي تضحك:

- أنت نفسك لن تغفر ولن تسمح لها بالعودة..

تساءلت:

- لماذا؟

- لأنك لن تغفر لها أبدًا يا كريم، لن تغفر لها أبدًا، أنت لا تغفر لشخص استهان بـأفكارك، مشاعرك، حزنك، استهان بك..

وقفت لثوانٍ أفكر في رأيها، الحقيقة أن هند تعرفني، هي أقرب أصدقائي وهي الوحيدة، لا أثق بها ثقة عمياء، لكنني أحب التحدث

معها من حين لآخر، والحقيقة أن رأيها صحيح، فأنا:

أستطيع أن أغفر لـ شخص مؤذٍ، ويمكنني أن أغفر القسوة، وأعرف كيف أتأقلم على الطباع الصعبة، لكنني لا أسامح أبدًا شخص كذاب هان عليه حزني وتعبي، أقصد أنني لا أستطيع الغفران لـ شخص كذب عليّ، خدعني، استطاع أن يوهمني بالزيف لأنني أثق به وأصدقه، أستطيع أن أغفر لـ شخص اختار نفسه وهجرني لأنني لا أناسبه، لكنني لا أغفر لـ شخص ابتكر كذبة ليبتعد عني، ولا أستطيع أبدًا أن أغفر لـ شخص رحل عني وهو يعلم كل العلم أنني سأضيع بعده، سأتوه بعد غيابه، تركني وحدي سنوات يأكلني الحزن وينهش الحنين في قلبي، وأعيش مرارة الوحدة، ولن أغفر أبدًا لشخص رآني أغرق في دوامة مأساتي، وبدلًا من أن يمد يده لينقذني، اختار أن يراقب بصمت، كأنه يستمتع برؤية ضعفي، أو كأن انهياري كان مجرد فصل في قصته، مشهد عابر لا يعنيه، لن أسامح من تجاهل دموعي، من أغلق عينيه عن حاجتي إليه، من لم يسمع ندائي حين كنت أصرخ بصوت اختنق بين أنفاسي..

لن أغفر له لأنه كان يعلم أنني أعتمد عليه، أنني كنت أراه طوق النجاة الوحيد وسط بحر الظلام، لكنه تركني، بدمٍ بارد، كأن وجودي وعدمه سواء، لن أغفر له لأنه لم يكتفِ بالرحيل، بل تركني أتحمّل كل الأعباء وحدي، كل الندوب التي خلفها غيابه، كل الأيام التي مرّت ثقيلة وكأنها تحمل وزنه فوق صدري..

لن أسامحه لأنه علّمني القسوة، لأنه أجبرني على أن أحمل بداخلي جرحًا لن يلتئم، جرحًا يذكّرني بكل مرة وثقت فيها بشخص لم يكن

يستحق، لن أسامحه لأنه علّمني أن الحب يمكن أن يتحول إلى خنجر، أن الأمان قد يتحول إلى وهم، وأن أقرب الناس قد يصبحون أكثرهم إيذاءً..

كيف يمكنني أن أغفر لها السنوات العشر التي قضيتها غارقًا في الحزن والمأساة؟ كيف أغفر لها كل قلب كسرته بسبب حبي الأعمى لها، وكل شخص أذيته لأنني لم أرغب بوجود أحد سواها في حياتي؟ كل لحظةٍ مهمةٍ مرّت في حياتي أفسدها غيابها، كل نجاحٍ حققته شعرت وكأنني لم أبدأ الطريق أصلًا لأنها لم تكن بجانبي.

كيف يمكنني أن أغفر لها كل ليلةٍ بكيت فيها من الألم، بينما كان من المفترض أن أبكي من الفرح؟ كيف أغفر لها الأيام التي نهشتني فيها الاكتئاب، والليالي التي كانت قاسية حدّ الانهيار؟ كيف يمكنني أن أغفر لها الرحلة الطويلة والشاقة التي قطعتها في سبيل التعافي، عملي الذي أهملته، صحتي التي أهدرتها، كل العلاقات التي أفسدتها؟

كيف أغفر لها ربيع شبابي الذي ضاع هباءً لأجلها، الحزن الذي تجرعته، التعاسة التي أطبقت على صدري، الندم الذي استنزف روحي، الوحدة التي حاصرتني، والخوف الذي لم يفارقني؟ كيف أغفر لها عمري كله الذي استنزفه الاكتئاب بسبب رحيلها؟

وفي النهاية، لن أغفر لها لأنها علّمتني أن هناك خسائر لا يمكن تعويضها، وأن هناك وجعًا يبقى رفيقًا للأيام، يزورك في كل لحظة ضعف، يذكرك بأنك كنت وحدك حين كنت بأشد الحاجة إلى أحد..

- كريم. كل شيء على ما يرام؟

سألتني هند، استعدت نفسي من جديد:

-أنا بخير.

- كيف حال ريحانة؟

- بخير، أرى في هذه الفتاة شيء مختلف.

ضحكت:

- مع الوقت سنعرف أيّة قصة مختلفة.

استأذنت منها ثم عدت إلى المنزل، لقد سمعت بما يكفي حتى إنني امتلأت بالأحاديث التي لم أعبر عنها، أظن أنني قضيت فترات طويلة أهرب من كلماتي وأحاديثي بالاستماع، لقد قضيت حياتي أسمع الآخرين حتى خرست كل الأصوات الداخلية التي في رأسي، لكن اليوم تحديدًا أشعر أن شيء ما في صدري يريد أن ينفجر، غريب أن أكون أفضل مستمع للآخرين لكنني لا أملك شخصًا واحدًا يمكنه الاستماع إليّ، حين تنسد كل الأبواب فأبواب الخواجة الشيخ كوهين ينتظرك دائمًا بابتسامته الجميلة، ولا يغرّنك هذا الاسم، فهو ليس شيخًا كما تظن، إنما هي حانة كبيرة يعرفها مترددي الحانات القديمة، حين تدخل هناك تشعر وكأنك دخلت زمنًا مختلفًا تمامًا، الإضاءة عبارة عن لمبات غاز قديمة معتّقة، الملصقات، الأثاث قديم جدًا، وصوت أم كلثوم وعبد الوهاب يسيطر على المكان، وحتى الزجاجات والأكواب نفسها تشعر وكأنها لم تغسل منذ أربعين عامًا، حتى مترددي الحانة نفسهم وكأنهم بعثوا من زمن مختلف عن زمن الحداثة الذي نعيشه..

طلبث ريد واين وجلست اتأمل اللاشيء..

يحتاج المرء إلى بضع ساعات يحتاج فيها إلى التأمل ناحية اللاشيء..

كنت أفكر، أفكر في كل شيء، عقلي غزال يطاردها ألف أسد، تريد الفرار والهروب منهم، لكن الموت يحاصرها من كل مكان..

شربت حتى الثمالة، وعدت للمنزل، لأواصل القيام بأي شيء يمكن أن يهدأ عقلي المتعب..

وضعت سماعات الأذن وبدأت في الاستماع لأغاني عشوائية مع كوب الشاي وأنا في البلكونة، أتأمل من جديد اللاشيء..

"واعتبرني سكرت مرة لأجل أفضفض بالحقايق..

عارف الموضوع يضايق وإن ميصحش كمان..

بس لما أنا ببقى فايق ببقى أبكم له ودان..

وإني مش مبسوط علشان لسه في كام سور مانعني..

وإن يعني إن كنت راضي فافتراضي إنك سامعني..

وإن عايش افتراضي..

وإني مش شايف قصادي..

بس شايف حتة حلوة فيا جوة مني لسه عندك..

بعتبرها لروحي خلوة وألقى روحي رايحة عندك..

وإني مش قاصد أعاندك ما أنت عارف كل حاجة..

مش سذاجة ومش بجادلك بس حاجة لزومها حاجة..

وإني جيت طمعان في عدلك فاعتبرني حد تايه..

بس عارفك فجأة شافك..

راح قاعدلك عند بابك..

أشكو إليك ضعفي وقلة حيلتي وهواني"..

توقفت كثيرًا أمام هذه الأغنية لـ مسار إجباري، أحبها، أحبها لأنها تحكي الصراع الحقيقي الذي أعاني منه طوال حياتي، لقد سلكت عشرات الطرق التي لا تشبهني، راهنت على إشخاص لم يكونوا جديرين بالثقة وخذلت ثقة آخرين لم يشككوا يومًا في، وأخطأت ولا أعرف إن كانت أخطائي لا تغتفر، لكنني أتعشم أن يغفر الله ذلاتي وأخطائي وحماقاتي..

نشرت الأغنية على الواتساب..

جاءت بعض الردود المعتادة..

حتى علقت ريحانة:

- أغنية قذرة!

ضحكت:

- قذرة!

- نعم أغنية قذرة، كيف لـ شخص أن يتباهى بهذا الذنب، ثم إنه لم يتهذب في حديثه مع الله.

فكرتُ لـ ثوانٍ لم أجد ردًا مناسبًا عليها، فـ سألتها عن أخبارها وأحوالها..

واستمر الحديث بيننا لدقائق ثم قالت:

- سأنتظرك غدًا في ساقية الصاوي الزمالك في السادسة مساءً، وداعًا..

لا أخفي على نفسي أحب طريقتها في إقحامها لأفكارها في أفكاري بهذا الشكل، ربما لأنها تعمل الأمرين معًا، تحترمني كثيرًا لكنها تقتحم خصوصياتي وأفكاري، وربما هذا الفعل هو وحده كان سببًا في إعجابي بها..

فجأة أرسلت إليّ ميرال رسالة جديدة:

- كيف حالك يا كريم؟

- أنا بخير..

- حسنًا أعرف أنني تأخرت عليك، دعني أخبرك بما أريده منك ويحق لك الموافقة أو الرفض..

انتظرتُ تكتب، فبدأت:

- ما سأقوله لك لا يشفع لي عندك أعلم أن كلماتي الآن لن تعوضك عن شيء، وربما لن تغفر لي غيابي، لكني أشعر أنني لو لم أتكلم، سأظل أعيش في هذه الدوامة التي تخنقني، أريدك أن تعرف كل شيء، لكن أرجوك لا تخبر أحدًا، صدقني من ستخبره بما سأخبره لك ربما لن ينعم بحياته، قد لا تستوعب خطورة الأمر، لكنني واثقة كل

الثقة مما أقوله..

- إذن لما تصرين على إخباري؟

ردت:

- لأنني لو لم أتحدث مع أي شخص عما حدث ستقتلني الكلمات، لأنني أريد أن أضمن إن حال وفاتي في أيّة لحظة ستكون لقصتي حديث آخر، شخص آخر يعرف الحقيقة وربما يشاء القدر أن يحكيها للجميع..

حين أخبرني الأطباء أنني مصابة بالسرطان، شعرت أن الحياة توقفت كنتَ معي في هذه الفترة، كنت تشعر أنني أتغير لكنك لم تلمس شيء مادي حقيقي، كنت معي لكنني لم أستطع إخبارك وقتها لأنك كنت تحمل فوق كتفيك أثقال العالم، حتى أنا في هذه العالم كنت لا أفهم بالضبط معنى المرض أو الموت، كان الأمر غريبًا جدًا على فتاة تحلم بالحياة، فجأة أصبحت مهددة بالموت، كنت أشعر بالخوف يتغلغل في جسدي، لم أكن أفكر سوى بك.

كنت أقول لنفسي: "إذا مت، ماذا سيحدث له؟ كيف سيشعر؟" وكنت أقاوم الألم فقط لأني

أريدك بجواري، لأطول فترة ممكنة يا كريم..

تحب الاستماع لـ محمد منير وأحب أن أسمع له وهو يدندن لحبيبته..

"لو باقي في عمري شوية وقت أحب أشوفك آخر حد"

أخفيت عنك طوال هذه المدة حتى أشبع رغبتي في وجودك، ومع اقتراب الوقت، وبدأ عداد الموت يشتد سرعته، وفي اللحظة التي ظننت فيها أنها النهاية وبت أودع عالمي البسيط الذي ينهار رويدًا رويدًا، ابتسمت الحياة في وجهي قائلة:

"الأسوأ لم يأتِ بعد"..

في تلك الليلة، كان بيتنا مليئًا بالتوتر والهمس.. أبي وأمي يتحدثان بهدوء، ينظران إلينا بخوف، وأختي كانت تبكي بينهما، فهمت أن قدري قد حان وأيامي في الحياة أصبحت معدودة، لكنني فوجئت بـ حديث آخر من أبي..

- علينا ان نغادر مصر قبل أن ينكشف أمرنا، لقد قبضوا على عبد اللطيف، وعبد اللطيف لن يتحمل ضغط التحقيقات وحتمًا سيشي بنا.

لم أفهم ما يحدث إلا بعد أن سمعت اسمه يتردد في الأخبار المذاعة على التلفاز: "عبد اللطيف الدرديري متهم بقضايا فساد كبرى وأسماء أخرى متورطة" لم أكن أعرف ما تعنيه هذه الكلمات، لكنها كانت كافية لتحويل حياتنا إلى كابوس...

قاطعتها:

- لم أكن أعرف أن والدك رجل أعمال معروف..

ردت:

- أنت لا تعرف إلا القليل جدًا عني، لقد كان عليّ دائمًا إخفاء الحقيقة..

وواصلت:

-جاء اليوم الذي لم أنسَه أبدًا، كنت أستلقي في غرفتي، أضعف من أن أتحرك، حين سمعت صوت أمي تبكي في الخارج، حاولت النهوض، لكني كنت أختنق، دخل أبي فجأة، نظر إلي بعينين مليئتين بالخوف والحزن، وقال: "سنموت جميعًا" شعرت أنني لم أعد أفهم شيئًا، قال لي: "ستصبحين ميتة، لكنك ستعيشين"..

أدركت أن أمرًا ما سيحدث زلزالًا في حياتي، قد أوشك على التنفيذ، لذلك كانت خطوتي الوحيدة التي أستطيع الخطو نحوها هي تلك المرة الأخيرة التي رأيتني فيها..

في اليوم التالي استيقظت على مئات الإشعارات من الفيس بوك، يبدو أن الأمر المزلزل قد حدث، فوجئت أن أختي كتبت على صفحتي الشخصية خبر وفاتي..

نهضت من مكاني متألمة وأنا لا أصدق ما أقرأه "وفاة ميرال مكاوي مصابة بالسرطان" لا أستطيع وصف شعوري، كنت أتنفس، أرى، أسمع، لكن العالم كله كان يتحدث عني وكأني لم أعد موجودة. أردت أن أصرخ، أن أقول لهم إنني هنا، لكني كنت محاصرة..

أذيعت الجنازة على منصات التواصل الاجتماعي..

ورأيتك تبكي..

رأيتك تبكي وأنا أشاهد مراسم دفني بالحياة..

كنت تبكي وكانت الآلام تعصر قلبي مع كل دمعة..

كانت أمي بجواري تواسيني..

- نحن مجبرون على هذا.

- أريد أن أخبر كريم يا أمي.

- أي شخص سيعرف شيئًا عنا سنقتله، هذه أوامر والدك لحمايتنا.

ذهبت لأختي التي كانت صامتة، صامتة تمامًا، حاولت استدراجها في التحدث، هي توأمي لكنها أشد قسوة وجفاءً وثباتًا مني، جاء أبي بعد تمثيلية رائعة، ثم نظر إلى أختي..

- حان دورك.

قضيت يومان في جحيم..

وأنا لا أفهم ماذا سيحدث لها..

في اليوم الثالث..

غادرنا مصر من سيناء إلى السعودية ثم إلى إيطاليا..

فور وصولنا إلى السعودية، قرأ أبي خبرًا جديدًا..

وفاة رجل الأعمال المعروف مكاوي وزوجته في حادث سير أليم..

وبعدها باثني عشرة ساعة كنا في لندن ومعها الخبر الختامي لعائلتنا..

انتحار الابنة الثانية والأخيرة لعائلة مكاوي..

لقد شطبت أسماؤنا من السجل المدني ونحن أحياء..

أيامي الأولى في لندن كانت كالجحيم، أبقى في فراشي، أتناول أدويتي، ولا أستطيع حتى رؤية الشمس، كنت أعيش في جسدي، لكن روحي كانت لا تزال هناك، في بيتنا، في ذكرياتي، وفيك..

كل ليلة كنت أسأل نفسي: هل عرفت؟ هل شعرت بالخيبة؟ هل بكيت علي؟ كنت أتصورك تمشي وحدك في الشوارع، شارع فؤاد، الشاطبي، شوارع كفر عبده، والكورنيش من سيدي جابر للمنشية، تبحث عني بين الوجوه، أو تبكي في غرفتك وتتساءل لماذا تركتك، ربما تترحم علي، ربما لا تسامحني على ما حدث..

لكنني كنت مجبرة، لم يكن لديّ خيار، أبي كان يقول لي إن علينا أن نختفي حتى ينسى الجميع أمرنا، لكن كيف أنساك أنا؟ كيف أنسى حياتي السابقة؟

عشت عشر سنوات كأنني شبح. حياة مزيفة، اسم مزيف، وحتى ملامحي حاولت أن أغيرها كي لا يتعرف عليّ أحد. كنت أبحث عنك في أحلامي، أحاول أن أسترجع صوتك، ضحكتك، وحتى غضبك مني، شيء واحد كان يربط على قلبي..

نجاحك يا كريم..

كنت أتابع صفحتك الشخصية، نجاحك في كليتك، تفوقك الكبير في مجالك العلمي والعملي، أبتهج وأبتسم وأدعو الله أن يوفّقك ويكمل خطواتك الكبيرة على خير، لكن هذه البهجة والفرح الكبير تتحول إلى مراسم عزاء حين أرى صورتك، كبرت أنت وكبرت ملامحك وانطفأت، كنا نتشارك نفس الآلام والمعاناة والحزن والانطفاء، وكنت أتساءل..

كم فتاة أحببتها؟

كم جميلة غازلتها؟

كم امرأة لفتت انتباهك؟

وكم مرة لامَست يد فتاة أخرى؟

بكل أنانية ممكنة كنت أغار، أجن عليك، لأنك ابني وحبيبي يا كريم، ابني وحبيبي وصديقي الذي لم ولن أحب أحدًا مثلما أحببته..

عشر سنوات أتابعك يومًا بـ يوم لم تغب يومًا عن بالي ولم أنسَك للحظة واحدة، وانتظرت هذه اللحظة طويلًا حتى أتحدث معك وأخبرك بما حدث معي، إنني لا أرجوك أن تغفر لي، لكنني أثق سـ تساعدني فيما أريد..

تنهدت..

"وافتكرت فرحت وياك قد إيه، وافتكرت كمان يا روحي، بعدنا ليه"..

أم كلثوم المشاغبة تردد في عقلي، وقد أعادتني بكلماتها لـ كل ذكرياتي القديمة..

سألتها:

- ماذا تريدين مني يا ميرال؟

- أحد الأشخاص يدعى الشندويلي في مصر عرف كل شيء، وقد قرر بشكل مباشر ابتزاز أبي.

- أظن أن أباك غني بما يكفي ليعطيه ما يريد.

قالت:

- يا ليته أراد المال.. لقد أرادني أنا!

- ماذا تقصدين؟

- أراد أن يزوجني لابنه.

قلت وفي هذه اللحظة تحديدًا لا أدري كيف قلت هذا:

- وما المانع في الزواج من ابنه؟

ردت بعلامات تعجب ثم ساد صمت طويل، الحقيقة أن ردي فاجأني قبل أن يفاجئها، طوال هذه السنوات كان الشيء الوحيد الذي يصبرني على فراقها أنها عاشت وماتت قبل أن يلمسها رجل غيري، أقصد حين كنت أظن أنها ماتت، لا أملك إجابة واضحة لـ هذا الرد، ربما أردت أن أعرف منها هل ما زالت تحتفظ بعذرية قلبها أم أنها تزوجت وعاشت حياتها، ربما كنت أقول لـ نفسي إن الفتاة التي أتحدث معها الآن ليست ميرال التي أحببتها، ربما أردت أن أخبرها أن قصتنا انتهت بالفعل، ربما أردت أن أمنع عن نفسي أمل بعيد قد يراودني في عودتنا.

ردت هي وكان ردها ممزوجًا بكبرياء:

- ليست مشكلة لكنني لا أراه الرجل المناسب لأتزوجه، ثم إنه لا يريد الزواج مني لشخصي بل المسألة أكبر من ذلك؟

- ماذا تقصدين؟

ردت:

- رغم إعلان وفاته إلا أنه ما زالت لأبي علاقات كبيرة جدًا في الجمارك والموانئ العالمية، هذا الشخص يريد أن يستغل علاقات أبي الكبيرة لـ يتقرّب من هؤلاء، وبالطبع لا توجد فرصة ومناسبة أكثر من أن يتزوج ابنه ليستغل نفوذه لمصالحه الفاسدة.

- ماذا لو رفضتِ يا ميرال؟

- بالفعل رفضت وأبي كذلك، لكنه أمهل أبي ثلاثة أشهر ومن ثم سيبدأ في تقديم كل شيء ويكون السجن مصيرنا جميعًا.

- ماذا تنتظرين مني؟

ردت:

- لن أطلب منك أكثر من التخلص منه.

- القتل؟

- ليس بالضبط، أريد التقرب منه وفهم ما يحدث وما يدور في رأسه..

- لماذا عليّ أن أوافق؟

أجابت:

- لأنك ستوافق يا كريم، لأنني طوال هذه السنوات أنتظر هذه اللحظة، لأنك الرجل الوحيد الذي دخل قلبي وقضيت سنوات حياتي أنتظرك، لأنني رفضت أن يلمسني رجل في مجتمع أسهل ما فيه المعاشرة، لأنني رفضت حتى مجرد الاقتراب من أي شخص، لأنني

كنت مخلصة لك، كنت كالسجينة التي تنتظر لحظة الإفراج، كنت أصبّر نفسي طوال هذه السنوات بلحظة يمكنني فيها أن أقنع أبي أنك المهدي الذي سيحررنا من كل هذه الضغوطات، والآن حانت اللحظة..

اسمعني يا كريم، أنا لا أريد الضغط عليك لكنني كنت أنتظرك، أنتظر لحظة زواجنا، أنت الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي وأظن أنني لن أستطيع الزواج من رجل آخر، الأمر متروك لك، إما أن توافق ونبدأ في وضع خطتنا أو أن ترفض وينتهي، وأختفي من جديد للأبد، لكن في الوقت نفسه لا يمكنني الضمان بأنك ستعيش يوم واحد بعد هذا اليوم..

- ماذا تقصدين؟

ردّت:

- لا أريد ولا أقصد تهديدك لكن صدّقني من يعرف قصتنا حتمًا سيموت في الحال، أبي لا يثق في أي شخص..

- لكنه لا يقدر على قتل ألد أعدائه..

ردّت:

- هو لا يريد قتله، بل يريد تعذيبه أولًا، وأنا أريد ذلك، وأنت الوحيد الذي يمكنه مساعدتي على ما أريد.

الوقت يداهمني يا كريم وأنا أثق أنك لن تتخلى عني أبدًا..

في تلك اللحظة شعرت بثقل العالم من جديد على صدري، شعرت

أن العالم يجتمع ضدي كل لحظة، شخصيتي ليست ضعيفة لكنني لا أحب الابتزاز العاطفي، أنا شخص عاطفي من الدرجة الأولى لا أخفي ذلك لكنني لا أقدر أبدًا على التعامل مع مثل هذه الأمور، بدأ صراع ما بين الموافقة على عرضها والحفاظ عليها أو الرفض التام والقاطع، ومن ثم ينتهي كل شيء للأبد مع تهديد حياتي بالخطر.

أرسلتُ لها:

- لديّ عمل لا أستطيع التغيب عنه، كذلك بعض الحالات التي أشرف عليها.

- غدًا ستبدأ إجراءات نقلك إلى عيادة السعودي للصحة النفسية.

- السعودي؟!

- نعم، بالطبع تعرفها هي أحد أكبر العيادات الخاصة في مصر والسعودية ودول الخليج..

- لماذا هذه العيادة تحديدًا؟

ردت:

- أولًا لأنني لا أريد أن أدمر حياتك، على العكس ما ستقدمه لي سيكون خدمة العمر لذلك عليّ أن أثبت لك أنني سأساعدك على النهوض أكثر وأكثر في حياتك، أنت في وضع اجتماعي لا يليق بك، طبيب مثلك في مهاراتك وذكائك وما عانيت منه يستحق أن يعوّض كل ما فاته، يستحق أن يعيش في هدوء تام ومكانة اجتماعية مرموقة، لذلك هذه العيادة ستتكفل برعايتك من الألف للياء.

- ثم؟

- تأكد أني سأبدأ أيضًا بالإيذاء والرد على كل شخص تعمّد إيذائك، كل شخص بالمعنى الحرفي للكلمة، كما قلت لك إنني أريد لك حياة سعيدة تستحقها؛ لأنك عانيت بما يكفي في حياتك القديمة، ولن أسمح لأي شخص أن يواصل إيذاءه لك، ما دمت ستساعدني في الانتقام من الذين تعمّدوا إيذائي.

- لماذا عليّ القيام بكل هذا؟

قالت:

- إن لم يكن من أجل حياتك التي دُمّرَت، إن لم يكن من أجل أحلامك التي سُرقَت منك، إن لم يكن من أجل نفسيتك التي انتُهِكَت، وقلبك الذي تعمّدوا إيذاءه، فسيكون السبب الوحيد لكل هذا.. أنا..

من أجلي أنا يا كريم..

سأنتظر ردك خلال أربع وعشرين ساعة من الآن.. صدقني أنا أريد الأفضل لك.. ولنا، للحياة الذي تمنيناها في طفولتنا.

هل تتذكر؟

كنتَ تبحث عن حياة هادئة، مثالية، بسيطة، ورغم كل الصراعات التي خُضتها، وكل المكاسب التي حققتها، لكنك لم تنل ما تريد، لم تنل ما تستحقه، وأنا هنا لأعوّضك عن كل أيامك الرمادية، وكل أحلامك التي تحطمت، وروحك التي أبهتها الحزن، أنت تصدقني أليس كذلك؟

أغلقت الهاتف..

هاجمتني الأفكار والحيرة، الصدفة التي لم أفهمها هي عودتها في هذا الوقت تحديدًا، الوقت الذي بدأت أشعر فيه أني مستقر بوجود ريحانة، هل أبدأ حياتي الجديدة مع ريحانة، لكن كيف سأبدأ معها وأنا ما زلت عالقًا في أفكار الماضي، كيف سأبدأ معها وقلبي محطم بهذا الشكل، أنا حتى لا أستطيع النهوض من على فراشي، أنا جثة هامدة لا تقوى على العيش رغم أنها تعيش بشكل عادي ومستمر، أنا هنا في المنتصف المميت، ما بين مواصلة المعركة وما بين الانسحاب، ما بين تقبّل الماضي والتعايش مع حاضر لا يُناسبني، وما بين فرصة لا تعوض لإصلاح ما أفسِد..

في هذا الوقت أحتاج إلى عقل يفكر معي بهدوء، لذلك حان وقت العجوز كاترين، على غير العادة لم أمر على البرازيلي الذي يسكن في الطابق الأسفل وصعدت مباشرة إلى العجوز، التي كانت تسمع أم كلثوم، عانقتني عناقًا دافئًا، ثم نظرَت إليّ وعيناي وظلّت تُردد مع أم كلثوم:

"وقابلته نسيت إني خاصمته.. ونسيت الليل اللي سهرته..

وسامحت عذاب قلبي.. عذاب قلبي وحيرته..

مقدرش على بعد حبيبي.. مقدرش على بعد حبيبي..

أنا ليا مين في الدنيا إلا حبيبي".

دخلت وجلست على الأريكة ثم قلت مباشرةً:

- ماذا لو عادت ميرال؟

ردت:

- وأهرب من قلبي أروح على فين ليالينا الحلوة في كل مكان..

مِلناها حب إحنا الاتنين ومِلينا الدنيا أمل.. أمل وحياة.

كرّرتُ سؤالي لها فردت وكأنها كانت تعرف كل شيء:

- ستوافق على عودتها بكل شروطها.

- لماذا؟

قالت:

- لأن كل هزائمك في الحياة ما كانت لولا غيابها.

- حتى لو كان وفاتها كذبة طوال هذه السنوات؟

- ستغفر لها كل شيء يا مايو، ستغفر لها كل شيء، لأن هزيمتك منها أكبر من انتصار كرامتك عليها، المُحِب يغفر أخطاء محبوبه.. حتى الغياب.

- لكنها تركتني وحدي في المأساة..

ضحكَت ثم وضعت يدها على قلبي وقالت:

- أسمعه، هو يقودك ناحيتها، كل محاولاتك للهروب منها لن تُفلح، طوال هذه السنوات كنتَ تهرب من الحنين لها، لكنك حطّمتَ قلبك رغمًا عنك في محاولات بائسة للنجاة من فراقها، حطمتَ قلبك حين وضعت كل مشاعرك في حب فتاة لا تحبك، وحين تعلّقتَ

بصديقك القديم "زايد" الذي قرّر فجأة أن يقلب حياتك بعدما شوّه سمعتك وحدث لكل المحيطين بك عن حماقاتك وأفعالك وحذّر كل شخص يثق بك من أن يقترب منك، وما زلت لا تفهم حتى الآن لماذا قام بهذه الخيانة، هو نفسه كان سببًا في تعطيل أوراق سفرك للخليج بعدما تعمّد تشويه صورتك أمام العامة، وتحطّم جزء كبير من أحلامك في السفر، كانت خيانته لك لا توصف خصوصًا بعدما تعمد أيضًا تشويه صورتك أمام عائلتك، حتى إن إخوتك انقطعوا عنك، لقد مات أبيك غاضبًا عليك بعدما وشى بك زايد وأظهر فيك الجانب السيكوباتي وانقطع الوصل بينك وبين أمك تنفيذًا لوصية أبيك، وفجأة أصبحت يتيمًا بلا أب، بلا أم، بلا عائلة، هل تتذكر نظراته الانتقامية لك حين واجهته بكل هذا؟ كنت على وشك الوفاة وأنت على قيد الحياة يا مايو، كنت على وشك الوفاة وسلكت طرقًا كثيرة، حطمت الكثير من القلوب وتحطم قلبك أيضًا، صحيح أنك نجحت في حياتك العملية، لكن ظل بداخلك طفل يبكي ويصرخ، ظل بداخلك طفل يرفض كل هذا، طفل ظل يتأوّه لجراحه القديمة، ستعود إلى ميرال لأنك تريد من هذا الطفل أن يخرس، تريد أن تعوضه عن أيامه القديمة الحزينة البائسة التي أنهكها الحزن.

- زايد؟!

القصة القديمة التي لم أرغب يومًا في تذكّرها، كان الشخص الوحيد الذي وثقت به، بدأنا معًا رحلتنا إلى القاهرة، أعترفُ أنني شخص وحيد بما يكفي، لذلك حين أحب فأنا أقع في الحب، لذلك جعلته وقتها محور حياتي، وحدث مع حدث أو ما روّته كاترين، ما زلت لا أفهم حتى الآن سببًا لهذه الخيانة، لكنني لم أضيّع أيامي في

البحث عن إجابات؛ لأن كل الإجابات العميقة لن تداوي الآلام التي شعرت بها..

واصلَت كاترين:

- إن أُتيحت لك العودة لإصلاح الماضي فلا تتردد ما دمت لا تستطع التكيُّف على الحاضر.

- لكن ماذا لو كان عرضها قد يتسبب بمتاعب؟

وحكيت لها بالتفاصيل مع حدث، ظلَّت صامتة لفترة طويلة ثم قالت:

- أظن أنها في حاجة لمساعدتك لكنها لا تثق أنك تثق فيها، لذلك تبدأ هي بالمبادرة لتثبت حسن نيتها..

- هل أوافق على ما تريده؟

- لا أعرف، لا يمكنني مساعدتك في اتخاذ قرارك، خصوصًا إن كان الأمر يتعلق بمصير وحياة الآخرين، شخصيًا لا أميل للأفكار الانتقامية، لكنني أظنك ستوافق لأنك لم تنسَ جراحك القديمة..

لم أعد بفائدة من لقائي بها، لكنها فتحت جراحي القديمة..

بدأت الأفكار تتصارع في رأسي مرة أخرى، ولتنتهي المعركة لا بد من اتخاذ قرار..

ميرال..

- أنا موافق متى سنبدأ؟

ردت:

- كنتُ أعلم أنك لن تتخلى عني مهما حدث.

غدًا ستبدأ إجراءات نقل أوراقك إلى عيادة السعودي للصحة النفسية، لكن لا تترك هاتفك حتى الغد، فـ لديّ لك مفاجأة جميلة تنتظرك.

- أنا في الانتظار!

في صباح اليوم التالي اتصل بي دكتور مصطفى قائلًا بصوته الخشن الآمر:

- مبروك تعيينك في عيادة السعودي للصحة النفسية، لكنني أريد أن أخبرك أنني لم أتعمد إيذاءك يا كريم..

قاطعته:

- سيد مصطفى من فضلك أنا لا أحتاج منك هذه الكلمات، لقد تعمدت إيذائي وإذلالي أمام الجميع، ولن أنتظر مبررًا لما قمتَ به.

وأغلقت الهاتف في وجهه..

ثم ارتديت ملابسي وانطلقت إلى ساقية الصاوي، كانت ريحانة تنتظرني بنظراتها الاستحقارية طوال الوقت، هي دائمًا غاضبة، دائمًا وطوال الوقت، ورغم غضبها الدائم هادئة جدًا ظاهريًا..

جلستُ أمامها دون أن ألقي التحية فردّت:

- من الذوق حين تقدم للجلوس مع شخص أن تلقي عليه التحية أولًا.

لم أرد عليها وأنا أتمتم في نفسي: امرأة غيرها لو قالت مثل هذه الكلمات لربما علمتها معنى أن يقتل رجل امرأة في هدوء تام..

- أنت يا أستاذ! أنت يا أفندي، أنا أتحدث معك..

- ريحانة من فضلك بعض الهدوء.

جلست صامتة تمامًا..

- ريحانة هل بإمكاني أن أسألكِ سؤالًا؟

هزت كتفيها فقلت:

- لماذا تثقين بي وأنتِ تعرفين أنني لا أشبهك، نحن مختلفان تمامًا؟

ردت:

- حاضرك لا يشبهني هذا صحيح، لكنني حين تعرّفت عليك رأيت فيك شخص جميل، أجمل مما تتخيل أنت، كنت خجولًا، متوترًا، وتحاول جاهدًا أن تبدو ثابتًا وقويًا، حين رأيتك أحببت ذاك الطفل الذي تحاول أن تخفيه عن الأنظار..

ثم واصَلَت:

- أقصد أُعجبت ولم أحب..

لماذا تسأل هذا السؤال من الأساس؟

قلت:

- ربما أخطأتِ النظر، أنا لست هذا الشخص الذي تنظرين إليه..

قالت:

- ربما، لكن على الاقل أحسنت الظن بك، ماذا حدث يا كريم؟

- لا شيء.. لا شيء أكثر من أننا لن نلتقي مرة أخرى.

نهضت ريحانة من مكانها، تنهدت ثم قالت:

- حسنًا لك ما تريد، لكن اسمع أنت الرجل الوحيد الذي وثقت فيه، لا أعرف لماذا فعلت هذا، لكنني راهنت أنك شخص تظلم نفسك في حياة لا تشبهك، في النهاية أنت أعلم وأدرى مني بحياتك وبما يليق وما لا يليق.. فرصة سعيدة دكتور كريم.

تحركت ريحانة ببطء شديد، وكأنها كانت تنتظر مني ملاحقتها، أردت ذلك مثلما أرادت، لكن كان صوت بداخلي يمنعني عن الاقتراب منها، أراها أجمل من أن تُلَوّث بحياتي، أجمل من أن يكون في حياتها رجل سيئ مثلي، حتى لو كان بداخله طفلًا صغيرًا لن أجعله يخرج مرة أخرى للحياة، لقد دفنت هذا الطفل منذ زمن ولن أسمح أبدًا بعودته..

راسلتني ميرال لتوقظني من أفكاري:

- هل انت مستعد؟

- نعم.

قالت:

- حسنًا الآن عليّ أن أؤكد عليك الاتفاق، بمجرد أن تخبر أي شخص بما يحدث بيننا فلا أنا ولا أنت نستطيع إنقاذه مهما كلفنا الأمر، حتمًا

ستكون كتبت بيديك شهادة وفاته..

بعد ساعة ستنتظرك سيارة تنقلك إلى زايد، هناك حيث منزلك الجديد بجوار العيادة، وفي العيادة، ستكلّف بالإشراف والمسؤولية على حالة معينة، هذه الحالة فشل كل الأطباء معها، لكنني واثقة أنك ستنجز مهمتك معها..

- سأحتاج لتقرير مباشر عنها.

ردّت:

- سيكون تحت إشرافك فريق علاجي متكامل سيقدمون لك كل ما تحتاجه.

سألتها:

- ما علاقة هذا الأمر بالانتقام من الشندويلي؟

ردت:

- حبيبي لا تستعجل الأحداث ستعرف كل شيء مع الوقت، ستون دقيقة وستصل السيارة.

تحرّكت من مكاني لأجمع أغراضي في منزلي في مصر الجديدة، وبعد ساعة بالتمام والكمال وصلَت السيارة، سيارة سوداء تشبه تلك التي تسير في مواكب الوزراء، السائق رجل مثل ضباط الأمن، لا يتحدث لا ينظر إليّ لا يهتم إلا بالطريق، حاولت التحدث معه لكنه كان أشبه بريبورت لم يرد عليّ ولو بحرف واحد، وصلت إلى زايد، فيلا فخمة، مثل تلك التي أراها في الأفلام والمسلسلات، كل شيء

منظم وهادئ، الفيلا لم يسكنها أحد من قبل، ما زلت لا أفهم تحديدًا لماذا كل هذه الأشياء، لكن ما أفهمه جيدًا أن شيئًا ما أكبر من الانتقام حتى من الشندويلي، لاحظت وجود كاميرات في بعض الأماكن، ظللت أتجول في الفيلا وما إن دخلت غرفتي حتى وجدت..

حقيبة ممتلئة بالأموال..

وبجوارها ملف يخفي بداخله بعض التقارير عن بعض الأشخاص..

أغلبهم من الجنس الناعم ورجلان..

أرسلَت ميرال رسالة:

- حمد لله على السلامة يا حبيبي.. الآن استرح وغدًا سيبدأ أول أيامك في العمل معنا.

سألتها عن الحقيبة فـ قالت:

- هي مكافئة موافقتك على مساعدتك لي، أما بخصوص الملف فستعرف كل هؤلاء مع الوقت، الآن استرح وغدًا سنبدأ كل شيء.

الفصل الخامس

ماجد عبد المنصف | شرم الشيخ

مر شهر كامل على وجودي مع عائلة أبو الذهب، أصبحث جزءًا من حياتهم اليومية كظلٍ دائم يحميهم، لكن دون أن يشعروا بوجودي حقًا، توطّدَت علاقتي تدريجيًا ببعض أفراد العائلة، خاصة ندى، تلك الفتاة الغامضة التي تقضي أغلب وقتها منعزلة في غرفتها أو جالسة على الأريكة في زاوية بعيدة، تحدّق في نافذة تطل على حديقة المنزل، رغم رفاهية حياتها وفخامة البيت الذي تعيش فيه، إلا أن وِحدتها كانت تُشع بوضوح، كأنها جزء من أثاث المنزل الثمين الذي لا يُستخدم أبدًا..

ندى كانت أشبه بكتاب ممتلئ بالقصص المثيرة لكنه مغلق بإحكام، عيناها تحملان نظرات متأرجحة بين الحزن والغضب، وكأنها تروي بصمت آلاف الحكايات التي لا تجرؤ على الخروج، لم تكن تتحدث كثيرًا، بل كانت كلماتها قليلة ومقتضبة، لكنها تحمل وزنًا أثقل من صمتها، كانت دائمًا ما تجلس وحيدة، تكتب في دفتر صغير أو تقلب صفحات كتاب لم تنهِ قراءته قط..

كانت ندى غير راضية تمامًا عن وضع بيتها الحالي، لكن ذلك لم تكن تبوح به لأحد، كان لديها نظرة عميقة للعائلة، تلك النظرة التي تكشف عن خيبة أمل كبيرة تجاه الوجوه الجامدة من حولها، كانت تراهم كأنهم يعيشون في عالم موازٍ، بعيدًا عنها وعن مشاعرها وأفكارها، حتى عندما تتحدث، كانت الكلمات تبدو وكأنها تتجه إلى جدارٍ خفي بينهما

ورغم ذلك، كنت أشعر أن بداخلها شيئًا مختلفًا، شيئًا يصرخ طالبًا للحرية أو ربما لشخص تثق به بما يكفي لتفصح له عما تحمله من أحمال، لكنها لم تجد هذا الشخص بعد، أو ربما قررت أنها لن تجده أبدًا.

ظل الوضع على هذا المنوال حتى قررت العائلة قضاء إجازة العام في شرم الشيخ، أرسلت لـ أسيل لأخبرها بما يحدث فـ كان ردها:

- معالي، اقتربنا أكثر من تحقيق خطواتنا.

لم أفهم ماذا تقصد لكنها لم تعارض، من حين لآخر كانت تطمئنني على عائلتي، ترسل بعض الصور لإخوتي وهم يقضون وقتهم اللطيف معًا، كذلك كانت ترسل لي بعض الفيديوهات الخاصة بهم تظهر مدى سعادتهم والاستقرار الذي يعيشون فيه، حتى أختي التي أرسلت لي صورة لها وهي في الحانة، بدا في فيديوهاتها الأخيرة أنها تنعم بهدوء كبير، كانت تتعمد أسيل بث الطمأنينة في قلبي، لكنني كلما سألتها متى سألتقي بهم، تخبرني ألا أتعجل..

وصلت إلى شرم الشيخ مع عائلة أبو الذهب، وما إن وطأت قدمي تلك المدينة حتى أسرني جمالها المختلف، كانت الحياة هنا نابضة بالحيوية، السماء تبدو أقرب، والبحر يُنادي كل من يراه ليغرق في زرقته الصافية، كل شيء كان يُشع وكأنه جزء من لوحة فنية، شعرت للحظة أنني غريب عن هذا العالم، عالم لا مكان فيه للألم أو الوحدة.

تلقيت أوامر صارمة من ممدوح أبو الذهب بأن أرافق ندى في

جولتها المسائية، أحرسها وأبقى قريبًا منها، كنا نسير على طول الشاطئ، نسيم البحر يلامس وجوهنا بهدوء، لكن صمتها كان يثقل الهواء من حولنا.

بعد لحظة طويلة، توقّفت فجأة وحدّقت في الأفق كأنها تبحث عن شيء مفقود في أعماق البحر، وقفت بجانبها دون أن أنطق، لكن داخلي كان يمتلئ بالأسئلة، لا أعرف هل كنت حقًا أريد أن أسألها لماذا فكّرت في الانتحار؛ لمعرفة أسباب رغبتها في الموت أم لأعرف لماذا أتمسّك أنا بالحياة..

لم أستطع أن أكبح رغبتي في التحدث، فـ قلت وكأنني أتحدث مع البحر:

- الحياة مرهقة جدًا، لا أحد يفهم كيف تدور ومتى تتوقف، رجل مجنون يمسك سيف ويذبح كل من يراه أمامه، حتى هو نفسه لا يفهم لماذا يفعل هذا لكنه لا يقدر على التوقف، تبحث عن الحماية في كل مكان، عن مكان يأويك ويحميك من هذا المجنون، لكنك لا تملك إلا مواجهته.

قالت ندى دون إن تنظر إلي:

- وفي رأيك ماذا يعني الأمان؟

قلت دون تردد:

- العائلة والمال.

قالت ساخرة كأنها تتحدث مع نفسها أكثر مما تخاطبني:

- العائلة والمال؟ هذه أوهام نُمسك بها لنُقنع أنفسنا أن العالم أقل قسوة مما هو عليه، لكن الحقيقة أن العائلة قد تكون مجرد مجموعة أشخاص يتشاركون السقف نفسه دون أن يتشاركوا الروح.. والمال؟ هو وسيلة لتزيين الحياة، لكنه لا يشتري المعنى، ولا الأمان.. أتعرف ما هو الأمان حقًا؟

التفتَت نحوي، عيناها تحملان خليطًا من الحزن والغضب، وكأنها تُلقي بسؤالها إلى أعماقي، ثم أكملت:

- الأمان هو أن تجد شخصًا يرى ما خلف عينيك، يفهم ما بين سطور كلماتك، يحتضن ضعفك دون أن يشعر بالخجل منك، الأمان ليس في وجود العائلة، بل في أن تكون تلك العائلة قادرة على احتوائك، الأمان ليس في المال، بل في أن تجد من يشاركك لحظات الفرح قبل الحزن، من يجعلك تشعر أن حياتك ذات قيمة.

نظرَت نحو البحر، وكأنها تفتش عن شيء مفقود في أمواجه، ثم أضافت:

- ما جدوى العائلة إن كانت لا تسمعك؟ إن كانت لا تراعي جروحك ولا تعطيك مساحة لتكون نفسك؟ ما جدوى المال إن كنت تنام لياليك خائفًا، فارغًا، تتمنى أن يتوقف كل شيء؟ الأمان هو أن تكون مرئيًا، أن تُحب رغم كل ما فيك من ضعف ونقص، أن يكون هناك شخص واحد على الأقل يعرفك حق المعرفة ولا يبتعد عنك.

سكتَت للحظة، ثم استأنفت بصوت أعمق، مليء بالمرارة:

- لكن ماذا لو لم تجد هذا الأمان؟ ماذا لو كنتَ محاطًا بأشخاص

لا يرونك إلا واجبًا عليهم، أو عبئًا يودّون التخلص منه؟ ماذا لو كانت كل محاولاتك للبوح تُقابَل بالصمت أو الإهمال؟ وقتها، تصبح الوحدة خيارًا، بل ملاذًا، تكتفي بالصمت، لأن الكلمات لا تصل، ولا أحد يهتم بما تقول، يصبح العالم بلا لون، بلا طعم، مجرد سلسلة من الأيام المُكرّرة التي لا تحمل شيئًا جديدًا..

تعرف أنا لا أعرف الكثير عنك، لكنني أشعر أننا متشابهين، شيء ما جذبني نحوك، هناك شيء في عينيك يخبئ حقيقة ما، أشعر أنك نسخة زائفة، كلما أطلْت النظر في عينيك رأيت شيئًا مختلفًا، حقيقة ما تخفيها عن الجميع، صحيح أين عائلتك؟

فاجأني سؤالها، يقولون الإجابات تُعزي حقيقة المشاعر، لكن الحقيقة أن الأسئلة أيضًا تقوم بهذا، شعرث وكأنها عرفت شيئًا ما عن أمري أو ربما تعرف الحقيقة..

أجبتُ مُدّعيًا الثقة:

- هم بخير..

سألتني مرة أخرى:

- هل فكّرتَ في الانتحار؟

- أبدًا، أنا أتمسك بالحياة بطريقة لا تتخيليها.

التفتت إليّ مرة أخرى، عيناها مشتعلة بلهيب داخلي لم أره من قبل:

- تقول إنك تتمسك بالحياة، لكن قل لي، ما الذي يجعل الحياة

تستحق أن تتمسك بها؟ لحظات السعادة؟ الحب؟ الأحلام؟ كل هذه أشياء جميلة، لكنها تصبح مستحيلة إذا عشت في عالم فارغ من المشاعر الحقيقية، الأمان يا صهيب ليس في الأشياء التي تملكها، بل في الشعور بأنك لست وحدك، أن هناك من يحبك بصدق، من يسمعك، من يشاركك ألمك وفرحك.

كانت كلماتها ثقيلة، تخترقني كأنها تُلقي بي في عمق بحر لا مستقر له، لم أجد ردًا، كل ما استطعت فعله هو الوقوف بجانبها، صامتًا، أراقب أمواج البحر وهي تهمس بحكاياتها التي لا تنتهي، مثلها تمامًا، أردتُ أن أقول شيئًا، لأن الكلمات نفسها التي تهزمها تهزمني..

حاولتُ استرسالها في الكلمات:

- لكن يبدو على حياتك أنكِ تعيشين في عائلة مثالية، لماذا قررتِ الانتحار؟

قالت ندى، وهي ترسم بأصابعها خطوطًا عشوائية على الرمال، وكأنها تحاول إعادة ترتيب ذكرياتها:

- كنتُ طفلة متعلقة بوالدي بشكل جنوني. كان العالم كله بالنسبة لي. كل لحظة قضيتها معه كانت أشبه بحلم جميل، مليء بالدفء والضحكات، أتذكّر كيف كان يحملني على كتفيه، وأشعر وكأنني أطير فوق كل شيء، ابنته الوحيدة المرفهة المدللة، كانت يده الكبيرة تمسك بيدي الصغيرة، وكأنها تخبرني أنني بأمان مهما حدث، كنتُ أندهش كيف لكل هؤلاء الرجال الذين يعملون معه أن يخشوا نظرة منه، يرتجفون حين يمر أمامهم أو يلقي نظراته الحادة عليهم

بينما كنت أرى في عينيه حنان العالم، كان يملك العالم في عينيَّ..

صباحًا يوقظني وهو يدندن "صباح الخير يا ندوش يا ست البنات، اصحي يا شموسة ندوش صحيت، وقولي للقمر يغيب قمرنا صحي من الليل" أغنية من تأليفه لكنني كنت أحب الاستيقاظ عليها، أمي كانت تضحك وتقول له: كفاك دلالًا لها، ستفسدها. لكنه لم يهتم، كان يقول لي دائمًا: أنتِ أميرتي الصغيرة، ولن أسمح لأحد أن يؤذيكِ. وقتها لم أفهم معنى أن يؤذيني أحد من الأساس، لكنني كنت أشعر أنه يصبني بالأمان.

ابتسمت ندى وكأنها تستعيد نفس بهجتها القديمة:

- كنت أجلس بجانبه في غرفة المعيشة بينما يقرأ الصحف، وأتظاهر بالقراءة مثله. أحيانًا كان يضحك ويشير إلى الصور، يخبرني قصصًا مضحكة عن كل شخصية أراها، وأحيانًا كان يأخذني معه إلى عمله، يدعوني للجلوس على كرسي مكتبه، ويقول: هذا المكتب ملكك عندما تكبرين، ستصبحين أفضل مني، وأنا سأكون أول من يصفق لك.

كنت أحلم طوال طفولتي بأن أتزوج رجلًا مثله كنت أقول لأمي بفخر: سأتزوج بابا عندما أكبر. كانت تضحك وتحتضنني، بينما هو يبتسم ويقول: أميرتي، لكنكِ تستحقين رجلًا أفضل مني. لم أكن أفهم وقتها أن هذه الكلمات قد تحمل أي معنى آخر سوى التواضع الذي كنت أراه فيه.

تنهدَت بعمق، وكأنها تسترجع طعم تلك الأيام، ثم أكملَت بصوت خافت:

- لكن ذلك الحلم الجميل تحطّم في لحظة واحدة، أتذكر اليوم بكل تفاصيله، كنت عائدة من المدرسة مبكرًا، والشمس تغمر الشوارع بهدوء، لم أكن أعلم أن العالم الذي أعرفه سيتغيّر، رأيت سيارة أبي تقف عند إحدى العمارات، أعرفها عن ظهر قلب، رأيته يجلس وبجواره امرأة مألوفة بالنسبة لي، أعرف هذه المرأة جيدًا..

اقتربتُ منهم وقد بدت نظراتهم حميمة أكثر وأكثر، رأيتهم يخرجون من السيارة متجهين إلى العمارة، تابعتهم بهدوء تام، سهوًا نسوا الباب مفتوحًا، فـ دخلت المنزل بهدوء، وسمعت أصواتًا قادمة من غرفة المعيشة، لم أستطع أن أفهم في البداية، كانت ضحكات غريبة، مختلفة عن أي شيء سمعته من قبل..

دفعتُ باب الغرفة قليلًا، و... رأيته، أبي يجلس على الأريكة، يضحك معها، يمسك يدها، ويهمس لها بشيء لم أستطع سماعه، كانت عيناه مليئتين بشيء لم أعرفه من قبل، شيء لم أره حتى عندما كان ينظر إلى أمي..

رفعَتْ عينيها نحوي، وقد بدأت دموعها تسيل دون أن تحاول مسحها، وقالت بصوت مرتعش:

شعرتُ وكأن الأرض انشقت وابتلعتني، أبي الذي كان يمثل الأمان والنقاء، الرجل الذي كنت أعتبره مثاليًا، كان في تلك اللحظة يبدو غريبًا تمامًا، أردتُ أن أصرخ، أن أسأله: لماذا؟ كيف يمكن أن تفعل هذا؟ لكني لم أستطع، عدت من حيث أتيت دون أن يعرف أبي أنني رأيته، احتفظتُ بما رأيته لـ نفسي، كعادته حين يعود من المنزل يأت إليّ ويقبلني في هذه الليلة دفعته بعيدًا عني، حاول فهم ما يحدث

لكنني لم أستطع مواجهته..

في تلك الليلة، بكيت حتى لم أعد أستطيع التنفس، كنتُ أتساءل: هل أنا مخطئة؟ هل ما رأيته كان حقيقيًا؟ لكن الحقيقة كانت أقسى مما أستطيع تحمله، كل ذكرى جميلة معه بدأت تتلاشى، وتتحول إلى شيء مؤلم، كأنني أعيش كذبة كبيرة طوال حياتي..

الصدمة كفيلة أن تُشعِرك بالعجز، لكن ماذا لو كانت الصدمة من الشخص الوحيد الذي آمنت به في حياتك؟

منذ ذلك اليوم، تغيّر كل شيء، كل كلمة منه بدت لي مزيفة، كل لمسة منه جعلتني أشعر بالبرد، حتى ضحكاته أصبحت تشبه السكاكين، لم أعد أراه بطلي، ولم أعد أرى العالم بنفس البراءة.

نظرَت إلى البحر، وكأنها تحاول أن تجد فيه عزاءً لما فقدته، ثم قالت بصوت غارق في الحزن:

- فهم أبي من طريقتي أنني علمت بشكل ما خيانته لأمي، توقّعتُ أن يحاول تحسين صورته، ربما يبرر أفعاله، ربما يحافظ على صورته المثالية التي رسمتها له، توقعت أن يُصلح ما أفسده، أظن أني بالنسبة له فتاته المدللة التي يحبها ولن يسمح أن تبتعد عنه أو تهتز صورته في عينيها، ظننت وظننت وإن بعض الظن إثم، فوجئت أنه لم يبال بهذه المسافة التي ابتعدتها عنه، كان رد الخطوة بـ خطوة والميل بـ ألف ميل حتى انقطع الوصل بيننا تمامًا..

ولم تحاول أمي فهم تلك الفجوة، وكأنها كانت تعرف شيء ما لا أعرفه أنا.

تنهدَت ندى ثم سألتني:

- هل شعرت يومًا بالوحدة؟

ضحكتُ وكأنها تسألني عن اسمي، حتى اسمي نفسه أمامها مزيف، أعرف الوحدة؟! أنا ابن الوحدة يا ندى.

نهضنا من مكاننا، تحركنا ببطء شديد وواصَلَت:

- الوحدة هي شقاء الإنسان بالحياة، خلق الله حياتنا لنشعر بالونس والأمان، وحين أراد الله أن يعاقبه اختار له الموت وحده بين التراب، الوحدة هي العقاب الأقسى للإنسان، وكل أشكال الوحدة مؤلمة ومرهقة، لكن صدقني أقساهم بالنسبة لي هي الوحدة في الوجود نفسه، الوحدة في حضور الأب الخائن تشبه السقوط في هوةٍ بلا قاع، شعورك بأنك محاط بمن يجب أن يكون الأمان الأول، ومع ذلك يغلفك الخوف والخذلان، يشبه السير في منزل مظلم تعرفه جيدًا، لكن كل زاوية فيه تُخيفك وكأنها جديدة تمامًا..

أن تحتاج إلى أبيك وهو أمامك يشبه الجوع أمام مائدة لا يمكنك أن تمد يدك إليها، كأنك واقف في بردٍ قارس تنتظر منه غطاءً، لكنه يعطيك ظله فقط بعدما اعتدت وجوده كأمان لك، ولا يمنحك إلا الجفاء بعدما صَبّ عليك اللين، نوع آخر من الآلام لا تستطيع الهرب منه لأنك ببساطة تعيش داخله، في كل لحظة، في كل كلمة تسمعها منه. في كل نظرة كنتُ أسأله بنظراتي: ألا تشعر بالندم، ألا يزعجك المسافة التي بيننا، ألا يزعجك أن ابنتك الوحيدة تبتعد عنك كل يوم؟!

تشعر أن كلماتك تنكسر في حلقك كلما حاولت أن تخبره بما في داخلك، كيف تخبره أنك تحبه وتحتاج إليه بينما قلبك يئن من خياناته؟ كيف تطلب الحنان من يدٍ لم تعد تثق أنها تمتد لتمنحك الدفء؟ أنا أحبه لكنني لم أعد أثق به، أفتقده لكنني لا أريد عودته، أحتاجه لكنني لن أسمح أن يلمس يدي، أشتاق إليه لكنني لا أطيق رؤيته، وما زلت أرى أنه أماني الوحيد لكنني أشعر بالخوف في وجوده..

إنها ليست خيانة للأم فقط، إنها خيانة لك، لطفولتك، لتلك الثقة البريئة التي كنت تمنحها له، كل ذكرى جميلة تصبح الآن مشوّهة، كأنها تنهار تحت وطأة الحقيقة..

تتساءل: كيف كنت أراه بطلي؟ كيف كنت أظن أنه سندي في الحياة؟

الوحدة هنا ليست مجرد شعور بالفراغ، بل هي شعور بالانكسار، أن يكون الشخص الذي يفترض أن يمسك بك إذا وقعت، هو أول من دفعك للسقوط، تشعر أن قلبك تمزّق بين حاجتك إليه وبين خيبة أملك فيه..

هناك لحظات تجلس فيها معه، تنظر إليه وهو يتحدث أو يتحرك، وتفكر: لماذا لا أشعر بما يجب أن أشعر به؟ لماذا لا أرى فيه أبي كما يرى الآخرون في آبائهم؟ إنه موجود، لكن حضوره ثقيل، يذكرك بكل شيء تفتقده..

ربما الأشد ألمًا هو الشعور بالذنب، تشعر بالذنب لأنك تفتقده رغم وجوده، لأنك تحتاج إلى حضنه وأنت تعرف أنه لن يمنحك إياه

بالطريقة التي تريدها، تشعر بالذنب لأنك تلومه على أفعاله، لكنك لا تستطيع أن تتوقف عن حبه..

الاحتياج لمشاعر الأب رغم وجوده هو ألمٌ لا يمكن وصفه بكلمات بسيطة، إنه ذلك الشعور الذي يلاحقك في أحلامك، في يقظتك، في كل لحظة تقف فيها أمامه، إنه الفراغ الذي لا يمتلئ، النداء الذي لا يُجاب، والجرح الذي لا يُشفى..

تعيش بين محاولات مستمرة لإقناع نفسك بأنك لا تحتاج إليه، وبأنك تستطيع أن تمضي في حياتك دونه، وبين لحظات ضعف تشعر فيها أن كل ما تريده هو أن يكون أبًا كما تمنيت دائمًا، لكن في كلتا الحالتين، تبقى الوحدة جاثمة على صدرك، ثقيلة، لا تُفارقك..

إنها ليست مجرد وحدة، إنها حياة بلا جذور، بلا أساس تستند إليه، وكأنك تقف وسط عاصفة، تحاول أن تبقى ثابتًا، لكن الرياح أقوى منك..

أحيانًا، الوحدة تكون أشد قسوة من الموت نفسه؛ لأنك حين تموت تنتهي معاناتك، لكن الوحدة تظل تطاردك في كل لحظة، تفتح عينيك فتجدها هناك، تغلق عينيك فترافقك في أحلامك حتى ذكرياتك الجميلة تتحول معها إلى أشواك تجرحك كلما حاولت استرجاعها..

الوحدة هي اختبار، سؤال صعب يطرحه علينا القدر، ومهما كانت إجابتنا، نحن نخرج منه مختلفين، منهكين، لكننا نبقى أحياء، ولو جزئيًا..

أردت أن أشعر بحنان الأب بكل الطرق الممكنة وغير الممكنة..

لم أتحمل مرارة الوحدة التي اجتاحتني فجأة...

صمتت ندى بشكل مفاجئ، تنهدت تنهيدة قوية وكأنها تريد سحب كل هواء البحر في صدرها..

استمر صمت طويل بيننا.

لم أكن أعرف ما أقول، أنا أرى وأعرف منظور آخر عن الوحدة، أعرف عن الليالي التي ينهش البرد في جسدك ولا تملك غطاء تتدفأ به، أو الليالي التي تخضع فيها لأوامر ولا يمكنك الاعتراض أو الرفض، الوحدة في السجن ليست مجرد شعور بالعزلة، بل هي سجن داخل السجن، هي تلك اللحظات التي تتحول فيها جدران الزنزانة إلى مرآة تعكس أوجاع الروح وأثقال الذكريات، عندما يخفت صوت العالم الخارجي، يصبح الصمت رفيقًا دائمًا، يعري النفس من كل قناع، ويجبرها على مواجهة نفسها بلا مفر..

الساعات تتباطأ وكأنها تعاقب السجين بحضورها الثقيل، كل نبضة قلب تهمس بحكاية ضائعة، وكل نفس يتردد كأنه ينادي على الحرية المفقودة، لا شيء يكسر هذا الصمت سوى صدى خطوات الحراس أو صرخة بعيدة من زنزانة أخرى، تذكير دائم بأنك لست وحيدًا تمامًا، ومع ذلك أنت وحدك تمامًا..

وحدك تمامًا، لا أحد يشعر بك، لا أحد يفهمك، لا أحد يسمعك، لا أحد يهتم بما يحدث لك، والأسئلة نفسها تستفرد بعقلك وتأكله، الأسئلة التي لا إجابة لها من الأساس لكنك مجبر على التعايش معها،

الوحدة في حرمة الأسئلة والأفكار والتوقعات والقلق والحيرة، كأن أحداهم يزرع في وريدك خناجر سامة، تشعر بها تتغلغل في جسدك بسمومها ومهما صرخت لن يرد عليك سوى صدى صوتك..

من صمتي الكبير أعادتني ندى بـ قصتها وقالت:

- وجاءت أيام الجامعة، صدقني حتى لم أختر الكلية التي تقدمث لها، تركث لأمي وعائلتي حق أن يختاروا، أردث ان ينتهي كل هذا العبث، لقد خسرت أبي فـ أي خسارة لا تهم! في أيامي الأولى في الجامعة كنت أراقب زملائي، أراقبهم من بعيد، حياتهم تبدو وكأنها مشهد من فيلم كوميدي سخيف، يناقشون أحدث صيحات الموضة بحماس غريب، أو يتفاخرون بعدد المتابعين الذين حصلوا عليهم هذا الأسبوع، أبتسمُ بسخرية وأنا أسمعهم يتحدثون عن حفلاتهم الصاخبة والرحلات الجماعية، وكأنها إنجازات تستحق التدوين في التاريخ..

لم أفهم أبدًا كيف يمكنهم أن يغرقوا في هذه التفاهات، بينما العالم مليء بما هو أعمق وأثقل، أنا هنا، أبحث عن الهدوء بين رفوف الكتب، أهرب من الضجيج الذي يملأ الجامعة، أراهم كأنهم يرتدون أقنعة، يحاولون إخفاء هشاشتهم خلف ضحكات مصطنعة واهتمامات سطحية..

أحيانًا أقول لنفسي: ربما أنا مختلفة حقًا، أمتلك رفاهية تجعلني أرى الأمور من زاوية أخرى، ليست رفاهية المال، بل رفاهية التفكير والانعزال عن هذه الدوامة الفارغة، سخريتي منهم تأتي بسهولة، كيف لا وأنا أراهم يناقشون الحب وكأنه قضية وجودية،

أو يخططون لمستقبلهم وكأن الحياة تدور فقط حول وظيفة جيدة وعلاقة مثالية؟

لكن بيني وبين نفسي، في تلك اللحظات التي أكون فيها وحدي تمامًا، أتساءل: هل أنا حقًا أفضل منهم؟ أم أن سخريتي ليست سوى قناع آخر، يخفي شعورًا عميقًا بالوحدة والغربة؟ ربما، رغم كل ما أظنه عنهم، نحن لسنا مختلفين كما أتصور، ربما تكون الأزمة الحقيقية ليست في العمر نفسه فـ عمري نفس عمرهم لكن الأزمة في الصدمات، الصدمة كفيلة أن تجعلك تشعر بالكبر، ربما العجز، ربما الشيخوخة، أو تكون كهلًا أنت الذي لم تتجاوز الخامسة والعشرين من العمر..

كانت هذه الأيام هي الأصعب بالنسبة لي، ازدادَت وحدتي أكثر وأكثر، كنت أجلس وحيدة أحضر المحاضرات ليس حبًا في الجامعة لكنني لا أريد البقاء في منزلي، كنت أجلس في الصفوف الخلفية أتابع كل شيء من بعيد، وذات يوم كنت أضع سماعات الأذن في رأسي احاول التخفّي من دكتور "محمود"..

"يا ترى فاكر ولا ناسي..

الأيام والوعود..

يا ترى فاكر، ولا ناسي..

ولا جايز في يوم تعود..

يا ترى لسه بتحلم حلمنا..

ولا راح الحلم ويا اللي راح..

يا ترى فاكر شباكنا..

يا ترى فاكر وعدنا..

دا احنا عيشنا أحلى الأيام..

وقلنا أحلى الكلام..

كلام ولا اتقال..

ولا حتى اتقال في الأفلام"..

اندمجت مع الأغنية حتى نسيت أنني في محاضرة، لحظات معدودة وشعرت بـ ظل أحدهم أمامي، نظرت حولي فـ فوجئت بأن المدرج كله يتابعني ودكتور محمود يقف أمامي يتابعني في صمت تام..

شعرت بالحرج الشديد، ووبّخني دكتور محمود بشدة، عنفني حتى إنني لم أتمالك دموعي وخرجت من المدرج في حالة انهيار تام، أظن أنني قضيت أكثر من شهر كامل لم أجرؤ على الذهاب إلى الجامعة، وقد بدا دكتور محمود بالنسبة لي خصمًا لدودًا، كنت في حالة لا يرثى لها من الوحدة والغضب، كان بإمكاني الاستعانة بأبي لو كان حيًا، كان بإمكاني تدمير حياة هذا الوغد الذي جعلني مادة للهزء والسخرية، لكن لا أبي أصبح أبي الذي أحببته ولم يعد بإمكاني طلب منه أي شيء يخص حياتي..

عدتُ للمحاضرات قبل أيام معدودة من الامتحانات، كنت مُجبرة على الالتزام، وفي نفسي كنت أبغض النظر لهذا الوغد، وأتجنّب

النظر لهؤلاء المراهقين السذج، مرت أيام باردة أحاول قدر المستطاع تجنُّب الجميع، أذهب كل يوم إلى المكتبة، بالمناسبة أحب القراءة، أرى فيها لذتي وهروبي من الحياة من أبي، من حياتي الروتينية، من المعلم الوغد الذي أكرهه من كل قلبي كنت أظن أنني أكرهه.

رغم أنني كنت أرددها دائمًا في سري، إلا أنني لم أعد واثقة، محمود لم يكن مجرد أستاذ جامعي صارم وسخيف، بل كان شخصًا يملك قدرة عجيبة على قراءة الآخرين، وكأن نظرته الثاقبة تستطيع أن تمزق القناع الذي أرتديه منذ سنوات..

كنت جالسة في المكتبة، أتظاهر بالتركيز في صفحات "رواية الهروب"، بينما رأسي كان يدور في حلقة لا تنتهي من الأفكار، هل أنا فعلًا أهرب؟ ولماذا اخترت هذا المكان تحديدًا؟ وسط تلك الضوضاء المزعومة من الصمت، ظهر هو..

- ما الذي تقرأينه؟

قُطع شرودي بصوته، فلمحت انعكاسه في زجاج النافذة المقابل، كان يقف بهدوء، أقرب مما ينبغي، رفعت رأسي ببطء، وكأنني أحاول أن أستعيد توازني، تلعثمت فـ لهذا الرجل هيبة تشبه هيبة أبي مع الآخرين..

قلت متلعثمة:

- رواية.

قال:

- واضح، لكن ما أسمها؟

قلت:

- الهروب.

توقعت أن يعلّق بسخريته المعتادة أو ينصرف كما يفعل الآخرون عندما أعطيهم تلك الإجابات المختصرة، لكنه ابتسم! وكأن كلمة الهروب أثارت فضوله، جلس أمامي دون أن يستأذن:

- الهروب..

يقضي الإنسان نصف عمره تحت تأثير صدمة، يحتفظ بها لنفسه، ويقضي النصف الآخر يهرب من تصديقها أو الافصاح عنها.

كلماته ضربتني كصفعة، للحظة شعرت وكأنه يقرأ أفكاري، ذلك السؤال الذي لم أسمح لأحد أن يقترب منه، طرحه هو بكل بساطة وكأن الأمر لا يستحق كل هذا الخوف..

قلت بسخافة:

- الأمر ليس بهذا العُمق الذي تظنه يا دكتور، هي مجرد رواية تسرد فكرة الهروب بشكل عام..

قال بنبرة تبدو هادئة:

- صحيح، لكن الإنسان لا يقرأ شيء إلا وكان جزء منها وجزء منه، أعتقد ذلك.

بدأ حوار بداخلي مليء بالتساؤلات.. "ما الذي يريده مني؟ لماذا يصر على نبش هذا الجزء المعتم من حياتي، هناك أُناس ينبغي عليك أن تبقيهم بعيدًا جدًا عن حياتك لأنهم يعرفون كيف يفتحون الأبواب

الموصدة بكل بساطة، ومحمود كان أحدهم، وأنا لن أستطيع التحمل أو مواصلة التحكم والاحتفاظ بما أخبئه في صدري"..

ساد صمت لـ دقائق، ثم شعرت لـ وهلة أنني أملك جراءة كافية لأسأله:

- وأنت هل تهرب إلى هنا؟

ضحك ساخرًا:

- أنا لا أهرب أنا أبحث..

- عن ماذا؟

رد:

- عن الهدوء الذي يبدو أنك تبحثين عنه أيضًا.

نظرته اخترقتني، شعرت للحظة أنني مكشوفة أمامه، وكأنني كتاب مفتوح يقرؤه في هدوء. هل كنت حقًا أبحث عن الهدوء؟ أم كنت أهرب من الحقيقة كما يقول؟

لا تنخدعي..

قلت لـ نفسي وأنا أراقب تعابير وجهه، هذا مجرد أستاذ آخر يحاول أن يلقي محاضرة خارج القاعة، لا تسمحي له أن يقترب أكثر، رغمًا عن كلماته التي كانت تخرج من فمه وكأنها مفتاح يفتح أقفال قلبي القديمة..

من صمتي قاطعني وقال:

- الكتب ليست دائمًا وسيلة للهروب، أحيانًا تكون هي الطريقة الوحيدة لمواجهة الحقيقة.

حاولتُ أن أتجاهل كلماته، فعدتُ أراقب السطور التي أمامي، لكنها تحوّلت فجأة إلى حروف متشابكة، كنت أسمع صوته يتردد في رأسي..

هل يراني حقًا؟

ذلك السؤال أرعبني!

- لماذا تتحدث معي أصلًا؟

فجّرتُ سؤالي بصوت مهزوز دون أن أنظر إليه.

رد في هدوء تام:

- لأنكِ لست مثلهم.

رفعتُ حاجبي مترقبة:

- مثل من؟

أجاب بهدوء:

- مثل الذين يضحكون دون سبب، ويهربون من أنفسهم بصخب مزيف، أنتِ تهربين في هدوء تام.

كان في كلماته شيء يشبه الحقيقة، شيء لم أكن أجرؤ على الاعتراف به حتى لنفسي، كنت أعتقد أنني أجيد التظاهر، أنني أستطيع أن أخدع الجميع بمظهري لكنه اخترقني..

واصل بهدوء:

- أنا أراقب التفاصيل، أحفظها وأعرف وأتيّم بها يا ندى.

شعرث بالخوف، ليس منه، بل من نفسي، تلك الجدران التي بنيتها حولي لسنوات، بدت أضعف مما كنت أتصور، وكأن محمود كان يطرقها بلطف، لا ليهدمها، بل ليفتح نافذة صغيرة للضوء..

- لا تفهمني بشكل خاطئ.

قلتها بسرعة وكأنني أهرب من شيء أكبر..

- أنا لا أهرب كما تقول.

وقف بهدوء، عيناه لا تزالان معلقتين بي، كأنه اكتفى بما قاله..

- لم أقصد أن أزعجكِ يا ندى، لكنني سأظل أقول، الحياة تستحق المواجهة.

وغادر المكتبة بخطوات ثابتة، وتركني وحيدة أحدّق في المكان الذي كان يجلس فيه، لماذا أشعر أنني كنت أنتظر هذا الحوار منذ زمن؟

سألت نفسي، لكنني لم أجد إجابة، كل ما كنت أعرفه أن محمود فتح شيئًا ما بداخلي، شيئًا لم أكن أريد أن أواجهه، لكنني لم أعد أملك خيارًا..

ظللت أحدق ناحية اللاشيء، أفكّر في كل الأشياء ولا أفكر في شيء واحد، أشعر بالتيه لكنني لا أجد طريقًا للوصول، ظننث في البداية أن علاقتي بالدكتور محمود لن تتجاوز حدود العلاقة

التقليدية بين طالبة وأستاذها وأن ما حدث بيننا لن يتجاوز لحظة عابرة، ولكن شيئًا ما كان يتغير تدريجيًا، دون أن أدركه في البداية، بمرور الوقت، شعرت أن هناك شيئًا مختلفًا، شيئًا لا يمكنني وصفه بكلمات واضحة، لكنه كان حاضرًا في كل نظرة وكل لقاء بيننا..

أصبحت العلاقة بيننا أشبه بمعادلة معقدة يصعب فهمها، لم تكن هناك كلمات مباشرة تُقال، فـ هو ملتزم بكونه الدكتور الجامعي وأنا ملتزمة بكوني طالبة، ولكن كانت هناك نظرات تروي حكايات بأكملها، كان يراقبني بصمت أثناء المحاضرات، وعندما ألتفت فجأة، أراه يُشيح بنظره وكأن شيئًا لم يكن، وفي أحيانٍ أخرى، يواجهني بنظرة مباشرة، وكأنها تحدٍّ صامت..

ولكن ما لم أستطع فهمه هو تناقضه في معاملتي، كان أحيانًا يتغاضى عن أخطائي الصغيرة، وكأنها لم تحدث، وأحيانًا أخرى يقسو عليّ بشدة، خاصة في أوقات كنت أظن فيها أن الأمور بيننا مستقرة، كنت أشعر بتلك القسوة في أسئلته التي كانت دائمًا مُعقدة وصعبة، وكأن هدفه الوحيد هو إحراجي أمام الجميع، ورغم ذلك، لم يكن يوبخني مباشرة، بل كان يجعلني أشعر بثقل نظراته بعد كل إجابة خاطئة..

بدأت ألاحظ نمطًا غريبًا في تصرفاته، نمطًا لم أستطع تجاهله، كلما قمتُ بتصرفٍ لا يُشبه شخصيتي المعتادة، كأن أضحك مع أحد زملائي، أو أتبادل معهم حديثًا عابرًا، أجد أن معاملته تتبدل في المحاضرة التالية، تصبح محاضراته معي أشبه بساحة معركة، وكأن تلك التصرفات كانت تستفزه بشكلٍ ما، في تلك اللحظات، كان يُطلق

العنان لأسئلته الصعبة وتعليقاته الحادة، وكأنه يُخرج غضبه بطريقة مبطنة..

وفي أحد الأيام، كنت أضحك مع إحدى زميلاتي خارج قاعة المحاضرات، لم يكن هناك أي شيء يستدعي الانتباه، ولكنه كان هناك، واقفًا بعيدًا، يراقبني بنظرة غريبة. شعرت بثقل تلك النظرة على كتفي، وكأنها تُقيّد حركتي، وعندما دخلت المحاضرة، شعرت أن الأجواء كانت مختلفة، لم ينتظر طويلًا قبل أن يبدأ بتوجيه أسئلة مُعقدة نحوي، أسئلة لم أكن أعرف كيف أجيب عليها، ليس لصعوبتها فقط، بل لأنني شعرت أن الهدف منها لم يكن إظهار جهلي بقدر ما كان اختبارًا لشيء آخر..

وبينما كنتُ أحاول فك شفرة هذه العلاقة المتوترة، كنت أدرك أنني أمام معادلة لا أملك أدوات حلها، ما كان يُقلقني هو إحساسي الدائم بأن هناك شيئًا خفيًا، شيئًا لا يقال ولكنه حاضر بقوة، لم أكن أعرف إن كان غضبه بسبب تصرفاتي أم بسبب شيء آخر لا أعلمه، لكن الشيء الوحيد الذي كنت متأكدة منه هو أن هذه العلاقة كانت أبعد ما تكون عن البساطة، وأنني أصبحت جزءًا من لعبة لم أعد أعرف قواعدها ولا نهايتها..

والاكثر تعقيدًا بالنسبة لي كان أن محمود يكبرني بأكثر من عشرين عامًا، هو رجل راشد في بداية الأربعينات، عاش ما عاش وغامر كما غامر وقضى أيامًا وليالي، يعرف عن الحياة ضعف ما أعرفه، كذلك طريقته في الكلام والمواجهات تشبه أبي، لا أريد قول هذا لكن ربما أشعر أنني منتبهة لتصرفاته لأنه يشبهه..

ظلت علاقتنا بين الشد والجذب لفترات طويلة، كان لا بد أن يكسر هذه العلاقة، أنا الخائفة أم هو الرجل الوقور ذو قيمة وقامة كبيرة..

لكن مع الوقت بدأنا نلتقي أكثر في المكتبة، ومن ثم نتواصل عبر الواتساب، كانت أحاديثنا حول الكتب والروايات والفن والدراسة، بدأت للمرة الأولى أسمح لشخص ما أن يقتحم وحدتي وعزلتي، بدأ يشجعني على أحلامي ويفكر معي في المستقبل، كان يسمعني بكل هدوء ويحاول فهم وترتيب الفوضى التي تحدث في عقلي، كان صاحبي الوحيد الذي استطاع اقتحام هذه الوحدة، بدأ يملأ الفراغات التي شعرت بها بعد الفجوة الكبيرة التي حدثت بيني وبين أبي..

"الحياة تمثيلية يا ندى، عليكِ أن تختاري دوركِ في هذا الفيلم، إما أن تكوني بطلًا أو تكوني كومبارس، وأظن أنكِ تستحقين حياة الأبطال".

اكتفيت به عن العالم، تغيّرَت شكل حياتي للأفضل وأصبحت أرى الأشياء بصورتها الحقيقية، لم أعد أرى الحياة بنظراتها السوداوية الحزينة بل عدت متفائلة، أومن بقدراتي على تحقيق الأشياء، أثرتني علاقتنا حتى جاء اليوم الذي تغيّر معه كل شيء..

يوم ميلادي استيقظت على ضوء الشمس الذي يتسلل من نافذتي، وقلبي ينبض بشغف غير معتاد، كانت تلك هي اللحظة التي كنت أستعد فيها للاحتفال بعيد ميلادي، ورغم أنني لم أكن أتوقع الكثير، إلا أنني شعرت بنوع من الترقُّب، كان كأنني أستعيد شيئًا من السعادة المفقودة خصوصًا أن عائلتي لم تتذكر اليوم من الأساس..

عندما وصلت إلى الجامعة، كان كل شيء يبدو عاديًا، لكنني كنت أرى الأشياء بطريقة مختلفة، كانت أحاديث زملائي تتداخل مع خيالاتي، وكلما مرّت لحظة كنت أتمنى أن يكون هناك تذكير صغير بي، أو ربما هدية بسيطة كان اسمه يتردد في ذهني، وكنت آمل أن يتذكر هذا اليوم، لكنني كنت خائفة من خيبة الأمل إذا لم يفعل..

عند الظهر، عندما كنت جالسة في الكافيه الخاص بالجامعة، شعرت بشيء مختلف في الجو بينما كنت أحتسي قهوتي، دخل محمود، وكان يحمل كعكة صغيرة مزيّنة بالشموع..

قالها بابتسامة عريضة، وكأن العالم قد توقف حولي:

- مفاجأة!

لحظة واحدة، لم أستطع تصديق أن هذا يحدث لي..

ارتعش جسدي من نشوة السعادة، جلسنا نتحدث ونضحك، اكتشفت جزءًا أكثر رومانسية في حياته، كان ينظر إليّ وكأنني الوحيدة في العالم التي يراها..

وفي تلك اللحظة، تذكرت كل الأوقات الصعبة التي مررت بها. كيف أن الغياب كان يملأ قلبي، وكيف بدأ محمود يملأ هذا الفراغ شيئًا فشيئًا، كل ضحكة وكل كلمة كان يقولها كانت تأخذني بعيدًا عن الألم، وتقربني أكثر إلى سعادتي..

- الاحتفال لم ينتهِ بعد.

قالها محمود وهو يمسك بيدي:

- هل ترغبين في الذهاب إلى منزلي؟ هناك مفاجأة أكبر في انتظارك.

قلبي بدأ ينبض بشدة، لكنني شعرت بالحماس أيضًا..

- ماذا؟

سألت بفضول.

- ستحبينها، تعالي.

دخلنا منزله، وكانت المفاجأة في انتظاري، الغرفة كانت مُزيّنة بالبالونات والأضواء الملونة، وكانت هناك طاولة ضخمة مغطاة بأطباق شهية وكعكة أكبر بكثير، شعرتُ أن كل شيء مُعد بعناية، وكأن محمود أراد أن يثبت لي أنني مهمة بالنسبة له.

- أنتِ تستحقين الأفضل يا ندى.

قالها وهو ينظر إليّ بعمق، وفي تلك اللحظة، شعرتُ بقلبي يتفتح كأزهار الربيع، أدركت أن هذا اليوم يحمل معاني أكبر مما كنت أظن، وأنني لم أعد وحدي في هذه الحياة..

بعد الاحتفال، بينما كنا نحتفل ونضحك، جاء ذلك اللحظة السحرية..

أثناء الرقص اقترب أكثر مني ثم عانقني..

عانقني محمود، وكان حضنه دافئًا ومليئًا بالعواطف..

لا أريد أن أكون وحدي بعد الآن تذكرتُ تلك المشاعر القاسية التي عشتها بعد غياب والدي، والآن شعرت أنني أستعيد شيئًا من

السعادة..

محمود هنا، وهو يجعلني أشعر أنني لست وحدي..

كان ذلك اليوم بداية جديدة، حيث أدركت أن الفجوة التي تركها غياب والدي قد بدأت تُملأ بشيء جميل، وأنني أستطيع أن أستقبل السعادة مرة أخرى...

قاطعتها:

- لقد وقعت في حب رجل في عمرك أبيك!

ردت ندى:

- هو من أوقعني في الحب يا صهيب..

بعد هذا اليوم توطدت علاقتنا أكثر، بدت أكثر حميمة ودفئًا، كان يجذبني بكل الطرق الممكنة، وقد لاحظ زملائي في الدراسة طريقته معي، كنت سعيدة، دعني أقول إنني لم أشعر بالسعادة إلا معه، أحببت أيضًا الشخصية الطفولية التي رأيتها في تصرفاته، أحببت فكرة أنه شخص صلب وغامض، ناضج وعقلاني ورزين، لكنه لين أشبه بطفل معي رغم أنني أصغره بأكثر من عشرين عامًا..

اعتدنا قضاء أوقاتنا في منزله الهادئ، كانت أحاديثنا ممتعة، كنا نتحدث عن المشروع، لكن بسرعة، انحرف الحديث إلى أمور أكثر شخصية، تبادلنا قصصنا عن العائلة، والخسارات التي مررنا بها، كان محمود يتحدث عن والده الذي غادره مبكرًا، وكأنه يفتح لي بابًا لرؤية الجانب الآخر من شخصيته.

- أحيانًا أشعر أنني أبحث عن والدتي في النساء.

قالها وهو يتجنب عيني، شعرت بصدمة لعمق ما قاله، وكيف أن كل منا يحمل جرحًا في قلبه طوال هذه السنوات!

قال بهدوء:

- وقد أقضي ما تبقي من عمري بحثًا عنها.

أستطيع أن أفهم ذلك، أجبت، وقد بدأت أستعرض في ذهني اللحظات التي شعرت فيها بالوحدة، وكم كان غياب والدي يؤلمني:

- كل منا يحمل شيئًا، لكني أعتقد أننا نستطيع تجاوز ذلك معًا.

بينما كنا نتحدث، شعرت بشيء يتشكل بيننا، وكأننا نتشارك أسرارًا لم يكن أحد يعرفها، لم يكن الحديث عن الكتب أو الدراسة فحسب، بل كان عن الحياة والأمل..

وفي تلك اللحظة، أدركت أنني بدأت أضع ثقتي في محمود بشكل أكبر، كان هناك شيء في وجوده يشعرني بالراحة، وكأنني وجدت أخيرًا شخصًا يمكنني أن أشاركه مشاعري وأفكاري..

- أعتقد أنني أحتاجك.

قلت له بصوت منخفض، وكأنني أعترف له بشيء عميق:

- أحتاج إلى شخص يفهمني.

ابتسم ثم شغل أحد الأغاني التي أحبها لـ مسار إجباري:

"أنا هويت وانتهيت وليه بقى لوم العزول..

أنا هويت وانتهيت وليه بقى لوم العزول..

يحب إني أقول يا ريت الحب دا عني يزول..

ما دمت أنا بهجره ارتضيت..

خلي بقى اللي يقول يقول"..

دندنتها معه.

ثم قلت:

- لكن هذا المبدأ في غاية القسوة..

تخيل أن تحب شخصًا حتى إنك ترضى بهجره..

المحب لا يهجر يا محمود.

ضحك محمود وكأنه تذكر شيء ما ثم قال:

- ومن قال إن طرق الهجر نختارها بإرادتنا يا ندى، أحيانًا يسلك المرء طرق لا تشبهه ولا يريدها لكنها الدنيا..

رددتُ غاضبة:

- أي حب هذا الذي يسمح لدنيا أن تهزمه، وأي محب ضعيف يسمح لأي ظرف أن يبعده عن محبوبته!

ضحك محمود ثم سألني:

- وأنت حين تحبين هل ستحاربين من أجل من تحبينه؟

أجبتُ بحماس:

- سأقف أمام الدنيا من أجله.

- وإن لم تقفي أمام الدنيا هل ستشكين في حبك؟

- هذا يعني أنني لم أحب من الأساس.

ابتسم ابتسامة وكأنه يخفي خيبة حقيقية ثم وضع يده على كتفي وقال هامسًا:

- أنتِ صغيرة، أصغر من أن تفهمي الدنيا على حقيقتها.

قلت معترضة:

- أنا كبيرة بما يكفي لأفهم كل شيء يا محمود، أنت تعرف أنني رأيت الكثير والكثير.

قال وهو يواصل وضع يده على كتفي:

- أتمنى أن تظل هذه قناعاتك في الحياة، أتمنى ألا تُظهر لكِ الحياة أشياءً لا ينبغي عليك معرفتها، وأن تكتفي بما أرتها لك..

قلت:

- ترى هل سأظل وحدي دائمًا؟

قال بهدوء تام:

- أنا هنا، معك دائمًا، حين تحتاجين إلى وجودي ستجدني بجوارك، مهما ضاقت بك الدنيا سأكون معك.

تلك الكلمات كانت كالسحر، شعرت أنني أخيرًا عثرت على من يمكنني الاعتماد عليه..

لكن هذا الشعور لم يستمر طويلًا بعدما واصل:

- لكن دعينا نتفق على شيء!

- أي شيء؟

- مهما حدث لن تحبيني، علاقتنا لن تطوّر أكثر من ذلك.

كلمات شعرت فيها بخيبة عدم الوصول، رغم أنني لم أتحرك من الأساس..

قلت بكبرياء:

- لو كنت آخر رجال العالم لن أحبك لا تقلق حيال ذلك.

تطورت علاقتنا أكثر وأكثر..

عشت معه لحظات كنت أعانق فيها السماء من السعادة، تغيّرت حياتي بالكامل معه، شعرتُ أخيرًا أنني لست وحدي، عوّضني عن فقدان عائلتي، عوضني عن شعوري بالوحدة الذي لا يفارقني، عوضني عن خيبتي مع أبي، عوضني عن كل المشاعر الحزينة التي عيشتها..

توقّفتْ ندى عن الحكي ثم دندنت أغنية جديدة لـ كايروكي:

"أنا كنت فاكر إني طاير أتاريني على وشي بقع..

أنا كنت فاكر إني هوصل..

لكني بهرب من الوجع..

أنا كنت فاكر إني طاير أتاريني على وشي بقع..

أنا كنت فاكر إني هوصل..

لكني بهرب من الوجع..

في وسط الليل وأنا بعيد عن البشر..

شوفت نور يشبه نور القمر..

بس القمر مسيره يفارق ويسبني تاني مع الوحدة أحارب..

في وسط قصة حب يعني وهمية..

كان لازم أصدق أصل الوحدة قوية..

مش كل المشاعر حقيقية..

أنا شوفت نور ماعرفتش أغمض عينيا"..

- انتهت قصتنا بطريقة لا يمكن أن يتخيّلها أي شخص، الدكتور المهيب وقع في غرام الفتاة المراهقة، ما زلت أتذكّر ليلة الاعتراف بمشاعري، في هذا الوقت حاول أحد زملائي التقرب مني، الحقيقة أنني كنت تعافيت من فوبيا القرب لذلك لم أمنعه من الاقتراب، ما المانع لو كنا أصدقاء، بدأ يجلس بجواري في المحاضرات، يتحدث معي في أوقات الراحة، لم أكن معجبة به لكنني لم أعد أرفض الاقتراب من الناس، في هذا اليوم خرجت معه وقضينا اليوم كله معًا، اتصل بي محمود ثلاث مرات، لم أهتم كثيرًا بالهاتف، وحين عدث إلى المنزل فوجئت بسيارته تنتظرني أسفل العقار..

تقدمث نحوها ودون أن ينطق كلمة واحدة ركبت السيارة وأغلقت الباب، وما إن انطلق بها حتى شعرت بذلك التوتر الغريب يخيّم على

الأجواء. كان صمته يشبه هدير العاصفة القادمة، ونظراته المشتتة تكشف عن اضطراب داخلي يحاول إخفاءه.

قطعتُ دقائق طويلة في صمت ثقيل، حتى أوقف السيارة فجأة على جانب الطريق، أطفأ المحرك وأدار وجهه نحوي ببطء، عيناه كانت متوقدتين بمشاعر لم أرَ مثلها من قبل، خليط من الحزن والغضب والشوق.

- ندى!

نَطَقَ اسمي وكأنه يحمل كل ما في قلبه من مشاعر في هذا النداء..

- نعم؟

أجبت بصوت منخفض، بالكاد أسمعه.

- أين كنتِ اليوم؟

- مع أحد زملائي..

قال:

- هل هذا عذر لعدم الرد على مكالماتي طوال اليوم؟

- آسفة لم أتابع الهاتف؟

- ما اسمه؟ بنبرة حادة.

- سيف!

قال بنبرة أكثر حدة:

- ذاك الولد الذي تجلسين الفترة الأخيرة معه، صحيح؟

- نعم.

- ما علاقتك به؟

بدأت أسئلته تبدو أكثر حدة وصرامة!

- مجرد زملاء.

- مجرد زملاء! جميل.

عدنا إلى المنزل وطوال الطريق لم ينطق حرفًا، في اليوم التالي كانت محاضرة محمود وقد طلب منا بعض التسليمات، لسوء الحظ جلس سيف بجواري.

تابع محمود التسليمات، ثم وقف أمام تسليم محمود وأمام الحضور قال:

- هذا المشروع يمكنك تقديمه في محل بقالة، أنت هنا في كلية النظم والمعلومات لست في سايبر أبو الليل.

كلمات كانت كفيلة أن يصبح سيف مادة للهزء في المحاضرة..

حاول سيف الدفاع عن نفسه لكن محمود كان حازمًا جدًا في كلماته:

- عليك أن تهتم أكثر بمستقبلك أيها المراهق، لا تنشغل بأكثر من ذلك، عائلتك المرموقة التي تدفع لك مئات الآلاف لتنتظم في الجامعة، تستحق منك أن تكون وفيًا لدراستك، حين تكبر وتصبح رجلًا مسؤولًا عن نفسك يمكنك وقتها أن تُهمل ما تشاء من مالك الحر، هل تفهمني؟

نبرته الحادة الجادة، أصابتنا نحن بالتوتر والقلق..

هذا سيف رأسه ولم يستطع حتى أن يؤد ولو بحرف واحد، انتهت المحاضرة، خرج الجميع في حالة صدمة وذهول، بينما خرج سيف باكيًا، كانت كلمات محمود في غاية الحدة والقسوة، حتى أنا شخصيًا لم أتحملها..

تساؤلات وتساؤلات كادت أن تفتك برأسي الصغير، انتظرت حتى نهاية اليوم الدراسي، ثم اتجهت مباشرة إلى منزل محمود، كنت أملك مفتاح منزله، انتظرته حتى جاء من الخارج، تأخر محمود أكثر من المعتاد، كان من المفترض والعادة أن يعود في الخامسة عصرًا، لكنه عاد في التاسعة مساءً، شعرتُ ببعض القلق عليه خصوصًا أنني طلبته على الهاتف أكثر من مرة لكنه لم يستجب لمكالماتي..

ما إن رآني حتى رأيت في عينيه نظرات هزيمة غير مُبررة، لم يُفاجأ من وجودي، لكنه تجاهله تمامًا، وظل صامتًا..

اقتربتُ منه وهو يقف في الشرفة:

- كنتَ قاسيًا مع سيف، كنت قاسيًا جدًا.

لم يرد محمود وكأنه لم يسمع كلماتي..

كررت:

- أظن أنه لم يرتكب الخطأ العظيم الذي يُعاقَب عليه بهذا الشكل.

ابتسم:

- لو كان بإمكاني لـ قتلته، لقد اعتدى على شيء أملكه..

ابتسمتُ ثم سألته وأنا أعرف الاجابة:

- أي شيء؟

أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال بنبرة مشحونة بالصدق:

- ندى، لم أكن أعلم أنني سأصل إلى هذه الدرجة، أن مجرد فكرة رؤيتك مع شخص آخر قد تؤلمني بهذا الشكل.

حدقتُ فيه بصمت تام بينما كان يتابع كلماته:

- كنتُ أظن أنني مجرد أستاذ لكِ، ربما صديقكِ المقرب، لكنني كنتُ أخدع نفسي طوال الوقت، ما أشعر به تجاهك أكبر بكثير من ذلك، إن وجودك في حياتي لم يكن عابرًا ولن يكون عابرًا، ولم أكن أدركت كم أصبحتِ جزءًا مني حتى رأيته بجوارك.

من التلفاز ظهر صوت ماجدة الرومي تغني:

"وعدتك أن لا أحبك ثم أمام القرار الكبير كذبت..

وعدتك أن لا أموت اشتياقًا ومت..

وعدتك أن لا أعود ودعت..

ودعتك بأشياء أكبر مني فـ ماذا بنفسي فعلت..

لقد كنت أكذب من شدة الصدق.. والحمد لله أنني كذبت.

وعدتك أن لا أكون أسير ضعفي وكنت..

وعدتك أن لا أقول بعينيك شعرًا وقلت..

وعدتك بأن لا وأن لا وأن لا...

فـ كيف وأين..

لقد كنت أكذب من شد الصدق.. والحمد لله أني كذبت".

اهتز صوته في نهاية كلماته، ذاك الذي لم أعتد على صوته إلا الوضوح والرزانة، بدأ يتلعثم بين كلماته ثم أضاف بنبرة ونظرة في غاية الألم:

- لقد وعدتيني أن لا تحبيني ووعدتكِ أن لا أحبك، وعدتكِ أن تكون علاقتنا مجرد أصدقاء، وأن لا يجمعنا إلا مجرد علاقة مريحة وهادئة، وعدتكِ أن تبقى علاقتنا محدودة مهما تعمّقت، وأن لا نصل لـ نقطة التقاء أبدية، بل سنظل عابرين طوال حياتنا، لكنني كذبت، لقد كنت أكذب من شدة الصدق..

أنا أحبك يا ندى، أحبك بطريقة لا تتوقعينها، ولم أكن يومًا أتوقعها أو أتخيلها لكنها الآن حقيقة لا يمكن إنكارها.

ساد الصمت للحظة، شعرت خلالها أن العالم بأسره توقف، نظرت إليه وعجزت عن الحديث، بينما قلبي ينبض بعنف، وكأن صدى كلماته يدوي داخلي، صارت أنفاسي أثقل وأثقل، لا أعلم هل أشعر بالسعادة أم أشعر بالحزن لأن شيء ما يقول إن قصتنا قد أوشكت على النهاية..

اقترب مني بقوة ثم قبلني من شفتي، لم تكن مجرد قبلة بل كان وكأنه يرتوي مني..

استسلمت له استسلامًا تامًا..

ثم حدث ما حدث..

كان يلتهمني، لا يمارس الحب كان يأكل جسدي، لأول مرة أشعر بكل هذه المشاعر، هذه ليست المرة الأولى التي نمارس فيها بعض تفاصيل الحب، لكن هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها أنها الأخيرة..

في العادة بعد أن ننتهي يسحبني لـ حضنه ويبدأ في لمس ملامحي بأنامله ثم يدندن بعض الأغاني الرومانسية، هذه المرة اكتفى بالصمت الطويل..

- أريد أن أتزوجك يا محمود..

لم يرد وكأنه لم يسمع كلماتي من الأساس..

- لا أريد الحياة إلا معك.

كأنه لم يسمع كلماتي، ربت على كتفي ثم قبّل جبيني وقال:

- ستعيشين حياة أجمل مما تظنين يا ندى..

قلت معترضة:

- لقد قررث أن تكتب نهاية قصتنا دون أن تسألني، أنا مستعدة للتضحية بكل شيء من أجلك، مستعدة لمحاربة العالم من أجلك.

كان في عينيه شيء، يخفي أمرًا ما، حقيقة ما يحاول تجنّب الإفصاح عنها..

نهض من مكانه، ارتدى ملابسه ثم غادر..

عدت إلى المنزل وفي رأسي عشرات الأسئلة، أبحث عن سبب واحد لهذه النهاية الباردة، ما إن وصلت المنزل حتى فوجئت أن أبي ينتظرني في غرفته، سألت أمي عن السبب قالت لا تعلم شيء، كل ما أخبرها به أنه ينتظرني في غرفته..

كانت هذه هي المرة الأولى بعد سنوات التي أجتمع فيها مع أبي وجهًا لـ وجه، تغيّرت ملامحه كثيرًا رغم أني أراه كل يوم إلا أنني لم أحدق منذ الحادثة الأخيرة في ملامحه..

جلست على الكرسي، وظل أبي صامتًا لوقت قصير ثم قال:

- اليوم تقدّم لخطبتك رجل أظن أنكِ تعرفينه!

- رجل! من هذا؟

- محمود، أستاذك في الجامعة، أتصَل بي وطلب لقائي، دعوته للشركة وتحدثنا لبعض الوقت، وقبل أن ينهض من مكانه أخبرته بـ رفضي للفكرة.

كنت في مشاعر مضطربة، لا أعرف هل أفرح لأن محمود قدم على الخطوة، بعد كل هذه السنوات لم يجرؤ فيها على التقدم لخطبة فتاة، أم أحزن لأن أبي رفض بشكل مباشر، سألت أبي عن الرفض لكنه لم يُبدِ أيّة أسباب، اعترضت بشكل مباشر على هذا الرفض لكنه كان حازمًا معي وقال:

- أنا المسؤول هنا عن كل شيء، حريتك لا تعني أن تختاري ما تريدين، بل تختاري المتاح أمامك، لقد تعبت من أجل بناء هذا البيت وهذه الرفاهيات التي تعشينها، ولن أسمح أبدًا لأي شخص أن يحطم

هذا الاستقرار، أنتِ ما زلتِ في بداية حياتك ولا تملكين الخبرة في اختيار شريك حياتك، لا تنشغلي بأكثر من دراستك، هذه الأمور لا تخصك..

قلت معترضة:

- هذه حياتي ومن حقي أن أختار شريك حياتي..

قال بنبرة أكثر حدة:

- حياتك تتوقف حين يتعلق الأمر بحياة الآخرين، نحن عائلة واحدة والقرار يخصنا جميعًا..

قلت مغلوبة الأمر:

- ورغبتي!

- رغبتك في تنسيق الجامعة، في عملك، في ملابسك، في أكلك، فيما يخصك أنت، لكن حين يصل الأمر لـ عائلتنا فأنتِ لا تملكين إلا هز رأسك بالموافقة.

نهض من مكانه ثم أقترب مني وقال وهو يتحدث بلكنة أكثر حدة:

- هل تفهمين؟

كلمات وصيغة لم أسمعها من أبي، الآن أصبح يعاملني مثلما يعامل كل الذين يتعامل معهم في الخارج..

عدت إلى غرفتي واتصلت بـ محمود وأخبرته بما حدث فـ قال في هدوء شديد:

- كما أخبرتكِ.. الحياة أكبر من رغبتك الشخصية..

قلت معترضة:

- لن أسمح لأي شخص أن يشكّل حياتي.

قال وهو لم يتخلَ عن هدوئه:

- كما أخبرتكِ الأمور لا تُدَار بهذا الشكل.

- سأحارب من أجلك.

ضحك:

- أنتِ أصغر من أن تخوضي صراع واحد في الدنيا يا ندى.

اجتاحتني نوبة بكاء غريبة، ظللت أبكي لساعات حتى أغمى عليّ من شدة البكاء، لا أتذكر كم يومًا قضيته على سريري، بعد أسبوع استيقظت، أسبوع كامل من التعب المفاجئ، ثم كانت المفاجئة، قرأت على جروب الواتساب رسالة توديعيّة لـ دكتور محمود الذي أصدر في حقه قرار بفصله..

- الفصل؟

سألت عن السبب رغمًا عني..

- لا توجد أسباب واضحة.

أرسلث لـ سيف اسأله إن كان له علاقة بالأمر فـ نفى الموضوع على العكس بدا عليه الحزن رغم كل الخلافات التي نشبت بينهما..

حاولث الاتصال بـ محمود أكثر من مئة مرة، هاتفه خارج الخدمة،

كاد يجن جنوني من القلق، سمعت صوت أمي في الخارج تتحدث مع أبي:

- لقد أنهيت مستقبله!

- لأنه حاول التعدي على حياتي.

ردّت أمي وربما هذا أكثر ما تستطيع التعبير عنه:

- أظن أنه لم يطلب أكثر من الزواج من ندى.

- وأخبرته أن الطلب مرفوض وانتهت القصة، هو يدفع الآن ضريبة اتصاله الثاني لفهم أسباب الرفض.

اتصاله الثاني! لقد طلب أبي مرة أخرى!

خرجت من غرفتي وبدأت الثورة..

لا أتذكر تحديدًا ما قلته لكنني كنت في حالة ثورة وغضب، بدأت أعترض على كل شيء وللمرة الأولى أرفع صوتي على أبي، للمرة الأولى وللمرة الأولى اقترب مني وانهال عليّ بالضرب..

لم أملك نفسي إلا وأنا في طريقي لمنزل محمود، كنت أملك نسخة من مفاتيح منزله، لم أجد سيارته في الجراج، صعدت مباشرًا فلم أجده في المنزل، كان المنزل خال تمامًا من آثار المعيشة، وكأنه منزل مهجور من سنوات، ظللت أتجوّل في المنزل الفارغ، حتى وجدت عند المكتبة الفارغة ورقة مكتوب فيها:

"إلى حبيبتي وفتاتي وسيدتي ندى..

أكتب لك لأن الكتابة هي عزائي الوحيد عما فقدته طوال حياتي

وعما فقدته معك، كانت الكتابة هي الرثاء الذي أختم به وداعي تجاه كل الأشياء التي أحببتها وفقدتها في حياتي، حين رأيتكِ للمرة الأولى شعرت أن شيء ما سيحدث بيننا، كانت هذه الأوهام تطاردني في كل مرة أراك فيها، منذ الصغر والأشياء التي أحبها تهرب من بين أناملي، لم أملك يومًا ما أردت حتى فقدت قدرتي على التمني والحلم، حين رأيتك شعرت أن بإمكاني أن أحلم من جديد، والحلم للمسكين سترة ونجاة، حلمت أنا الذي لم أحلم يومًا في حياتي، كنت أعرف أن مرورك لن يمر بسلام على حياتي، اقتربنا وكان في قربنا هذا حياة وروح ظللت لسنوات أبحث عنها، أفكر وأكتب عنها ولا أعيشها، أردت أن أفوز بكِ من دنيا كنت أعلم أنها لن تسمح لـ شخص مثلي أن يفوز بما يريد، طوال علاقتنا كنت مرشدًا لك، كنت أسعى لتوفير المساحة الآمنة لك، أن أكون مصدرًا للثقة والأمان، والركن الهادئ الذي يمكنكِ وأنت معه ترتيب أفكارك والتحدث عن مخاوفك ورغباتك دون قلق أو خوف، لقد منحتكِ كل الأشياء التي افتقدتها في حياتي، ليس لأن فاقد الشيء لا يعطي، على العكس فاقد الشيء هو أفضل من يعطي، لكن لم يكن هذا السبب، بل كان سببي الوحيد هو أنكِ لا تستحقين العناء، كنت أراكِ أصغر من أن تخوضي صراعًا واحدًا مع الحياة، كنت أراكِ أضعف من مواجهة الضغط والتعب، أردت وحاولت أن تحتمي بي من الدنيا وأظن أيضًا أنني نجحت في ذلك، لكن في الكواليس وبينما كنت تتشبثين بيدي وتتعلقين برقبتي أثناء نومك، أنا من كنت أمنح لـ نفسي الأمان بك، أنا أيضًا كنت أحتمي بك من العالم حتى لو لم أعبر يومًا عن خوفي أمامك، ليس لأنك لست جديرة بهذا بل لأن طباعي

الصعبة تلك التي ترفض التعري أمام أي شخص عابر وفي نفسي كنت أخشى أن تكوني شخص عابر..

سيدتي الجميلة ندى..

لم أقصد أن أكون تشاؤميًا معك، حين كان شرطي معك أن لا نقع في حب بعضنا البعض، كنت أعاقب قلبي أولًا بهذا الشرط، لأنني أحببتك حتى قبل أن يبدأ حديثنا، كنت أقسو عليه حتى لا يصدق أحلامه، وعدتكِ أن لا أحبك ثم أمام القرار الكبير كذبت ونعم لقد كذبت عليك، لقد أحببتك في خيالي، أحببتك بلا عقد، أحببتك بلا سبب، أحببتك بلا هدف أكثر من أنني أحبك، كنت أخشى عليك من الهواء الطائر، أخشى أن تزعجك الفراشات، أخشى أن يزعجك ضوء الشمس، أخشى عليك من كلمات عابرة تؤذِ قلبك الصغير، أخشى عليك من أفكارك وجلد ذاتك المستمر لـ نفسك، أخشى عليك حتى من شيطانك، أردت أن أحميك حتى من نفسك أنتِ يا أرق من تاج الورود..

تتذكرين حين أخبرتكِ بصعوبة بقائنا معًا أخبرتِني أنك ستقومين بالمستحيل من أجل أن نبقى، لم أسخر يومًا منك لكنني كنت أعلم أن الحياة أكبر منكِ، الحياة أكبر وأصعب من أن تواجهيها بمفردك، ولذلك حين شاءت الأقدار واضطررت للدفاع عن علاقتنا، وجدت نفسي في صفوف المحاربين، يحارب من أجل علاقتنا، لكن الدنيا أصعب منا كما أخبرتكِ من قبل، حاولت في المرة الأولى لأنني أعلم أنكِ تستحقين المحاولة، وفي المرة الثانية حاولت من أجلي، وفي المرتين عدت مهزوم الوجدان كما غنى العندليب وسترجع يومًا يا

ولدي مكسورًا مهزوم الوجدان، لكن في النهاية في أقل من أسبوع تبدلت أحلامي التي لم ترَ النور وتحطمت، تحطم قلبي ذاك الذي ظللتُ أجاهد للحفاظ عليه طوال هذه السنوات، وفقدت جزءًا كبيرًا من آمالي في الدنيا يا كل الدنيا، حين حدثتكِ عن كل الأشياء التي افتقدتها في حياتي، سألتِني هل تظن أن اسمي سيكون ضمن هذه الأشياء؟ أخبرتك بكل ثقة بالتأكيد. بينما في هذه اللحظة كان يصرخ قلبي أن لا يحدث هذا، سألتِني أنت تكتب عن كل الذين رحلوا عن حياتك.. لماذا لم تكتب عني وأنا بجوارك؟ فـ أخبرتك أن كل الذين كتبتُ عنهم في وجودهم صارت كتاباتي لهم ذكرى يقرأونها من حين لآخر ويبتسمون لأن ثمة من كَتَب عنهم، قلتِ بكبرياء أنا الوحيدة التي سأفوز بالكاتب، وقلت لكِ بتعالي لن يكون ملك امرأة واحدة، وفي نفسي كنت أريد أن أقول لك إنني لا أريد إلا أن أكتب لك، والآن وكما أخبرتك في البداية فـ الكتابة هي عزائي الوحيد تجاه كل الأشياء التي افتقدتها، وأكثر ما يؤلمني الآن أنني أكتب لكِ تعازيًا لكِ على عدم تحقيق حلمك بالبقاء معي وعن عدم تحقيق حلمي في البقاء معك، الآن أكتب لكِ وأضعكِ في خازنة ذكرياتي القديمة، وأنت الوحيدة التي أردتُ أن أكتب لكِ عن الماضي والحاضر والمستقبل، لكنها الدنيا..

الآن يا حبيبتي حان وقت فراقنا..

انتهت علاقتنا الجميلة الهادئة قبل أن تبدأ..

أردت أن أكون فارسًا لأحلامك الوردية..

وأردت أن تكوني مُلهمتي وفتاتي الوحيدة..

لكن الدنيا.. هذا الشبح المرعب الذي لا يضع لأحلامنا اعتبارًا..

هذه ليست أول هزائمي من الدنيا، لكنها أكثرها مرارة على قلبي..

لأنني أردتكِ بكل ما أوتيت من إرادة وقوة..

ولأن الدنيا رفضتنا بكل ما أوتيت من عناد وكبرياء..

أسدل الستار على قصتنا..

صدقَت توقعاتي في الدنيا بأننا لن نجتمع أبدًا..

وأكثر ما كنت أخشى أن تُظهر لك الدنيا وجهها الحقيقي..

ومع الأسف قد حدث أيضًا ورأيتِ من الدنيا ما لم أحب أبدًا أن تريه..

تفرَّقَت طرقنا وجف القلم ولم يعد للقلم مجالًا للكتابة من أجلك..

لكنك ستبقين طوال حياتك..

ثابتة..

هنا في قلبي.

كوني بـ خير من أجلي يا حبيبتي..

أودعك وأودع الدنيا معك..

كوني بخير لأنك تستحقين يا فتاتي كل جميل في الدنيا.

دكتورك، أستاذك، شاعرك، وحبيبك..

محمود طلال.

احتفظت بالورقة وعدت إلى المنزل وأنا أرى الدنيا بمنظور مختلف تمامًا، صدمتي الأولى كانت في أبي لكن صدمتي الثانية كانت الأكثر مرارة كانت من الدنيا نفسها، حين كنت أسمع وأقرأ عن الهزائم من الدنيا، حين كنت أسمع بعض المجوعين منها أسخر، كيف للحب أن يهزم شخصًا، كيف للخيبة أن تحطّم شخصًا، كيف لعدم تحقيق الأحلام أن يشعرك بالعجز! فهمت أن الدنيا أصعب مما أتخيّل، وليست وردية كما كنت أرى، علمتني الدنيا وأنت تعلم يا صديقي معنى أن تعلّمك الدنيا، عدتُ للعجز الكبير الذي ظننت أنني تعافيت منه، عدت مهزومة منها، لا أصدق كل شيء، عدت وأنا محطمة تمامًا وكأن الدنيا لم تشبع من خيباتي الأولى..

تنهدَت ندى ثم عادت لـ تبكي كالأطفال، حين تبكي يرتجف جفنيها وكأنه ضربه الصقيع، تنهدَت ندى ومعها كأنها استعادت كل المواقف التي هزمتها وحطمتها في الأيام الصعبة..

- لن تغادر؟

سؤالها الممزوج بتنهيدات الحزن والأسى والضعف، كيف أعدها بالبقاء وأنا لا أملك مصير يومي، لا أعرف مصير عائلتي، لا أعرف ما ينتظرني في الغد، لا أعرف حتى ما سيحدث ما بعد هذه اللحظة، رغم كل هذه الحيرة إلا أنني لم أملك إلا أن أعانقها وفي نفسي أقول:

"أتمنى ألا أغادر، أبدًا"..

بعد هذا اليوم تطوّرت علاقتي بـ ندى، أصبحنا أصدقاء أكثر من أي وقت مضى، كنا نتحدث معًا طوال الوقت بينما كان أبو الدهب

يتابعنا من بعيد، وذات يوم طلبني في مكتبه، سألت مساعده عن السبب، لكنه أخبرني أنه لا يعلم شيئًا عن استدعائي، دخلت مكتبه المهيب، جلست أمامه في صمت تام، فجأة فتح ستار خلف مكتبه، توقّعت أن تكون شرفة لكنها غرفة أخرى، غرفة لم أرها حتى في منامي، غرفة عبارة ستوديو ممتلئ بالصور، صور لرجال وسيدات بأعمار مختلفة، اجتماعات وشخصيات عامة..

لم أفهم سبب استدعائي لهذه الغرفة التي أراها لأول مرة، ظللت أتجول معه في هدوء تام، الصور المعلقة على الحائط كأنها صور موتى..

أشكالهم غير مريحة بالمرة، هذا كان شعوري معهم..

نظر إليّ ثم سألني:

- هل تعرف أحد منهم؟

- أبدًا.

قال في هدوء تام:

- كل هؤلاء كانوا ممثلين من الدرجة الأولى، بعضهم ظن أنه أذكى مني فـ مثلت معه دور الغبي حتى يواصل ادعاءه للذكاء، آخر كان يظن أنه خبيث ويستطيع الإيقاع بي فـ مثلت له دور المغفل حتى يستطيع الإيقاع بي، وفي الصورة هناك مجموعة ظنوا أنفسهم أقوياء جدًا فـ مثلت لهم دور الضعيف حتى تشتد قوتهم، الخائن الذي كان يدّعي دور الوفي، والكاره الذي أتقن دور المحب، والمختلس الذي ابتكر دور الشريف، كل هؤلاء نُسخ مزيفة من واقع

حياتي.

بصوت هادئ متأرجح ما بين السؤال والخوف من طرحه سألته:

- ولماذا كنتَ تتقن كل هذه الأدوار؟

قال وهو يتأمل في أحد الصور:

- الإنسان كائن سليط حتى لنفسه منذ بداية الخلق والإنسان يسعى دائمًا لخداع الآخرين، أحبُ هذه الرغبة وأحب أن أسمح بها للآخرين، أحب تقديم الحلو قبل المر، الراحة قبل التعب، الوفاء قبل الغدر، التسامح قبل الخطأ، واللين قبل القسوة، هذه فلسفة غريبة لكنها مريحة جدًا لأنها تكشف الناس سريعًا، تخيّل أنني قسوت عليك في البداية ثم أظهرت لك اللين في شخصيتي، ستخشى فيما بعد من قسوتي وستجاهد للحفاظ على مكانتك، لن تجاهد من أجلك، بل من أجل تجنب أذاك، حينها ستنسى أنت كـ شخص وتتحول لـ مصدر أمان أو مصدر خوف.

بدا عليّ أنني لم أفهم ما يقصده..

واصل بهدوء شديد:

- لأنهم سيهابون منك لن يكونوا على طبيعتهم معك بعدما يرون جحيمك، سيكون الخوف قائدهم في تصرفاتهم، سيخفي طبيعتهم عنك، لكن حين توفر لهم الأمان أولًا سيتعاملون معك بحرية أكثر، وحينها ستظهر طبيعتهم، وسيكتبون بأنفسهم مصير حياتهم في حياتك، إن أردت أن تعرف حقيقة الناس.. عاملهم بالحسنى أولًا، حينها إما أن يقدرونها ويبادلونك نفس العطاء أو يستغلوها ويظنون

أن بإمكانهم النيل منك، وهذه أيضًا فرصة مناسبة لتنقض عليهم، هل تفهم؟

شعرت في كلماته شيء ما يحاول أن يخفيه..

وقف أمام صورة رجل مع ابنته، ظل يتأملها طويلًا ثم قال:

- كان هذا أحد أهم وأعز أصدقائي كان يومًا ما صديقي، بل أكثر من صديق، كنت أعتبره أخًا، كنا نتشارك الأحلام والأسرار، ظننت أننا نحمل نفس القيم ونفس المبادئ، لكنه وكما ترى الآن، لم يكن سوى نسخة أخرى من هؤلاء الذين يُتقنون الخداع والتمثيل..

أشار إلى الصورة بنظرة قاسية، وأكمل:

- كان يمارس دور الصديق الوفي، يُظهِر لي اهتمامه بكل شيء، يتحدث عن أُخوّتنا وكأنها منقوشة في الصخر، لم أشك فيه يومًا، لم أتوقع أن طعناته ستأتي في اللحظة التي كنت فيها بأشد الحاجة إليه، خانني في أكثر لحظات ضعفي، باع أسراري وترك حياتي تنهار أمامي، بينما كان يستمتع بالمكاسب التي جناها من ظهري.

توقّف قليلًا، وكأن الذكريات تأخذ مجراها في عقله، ثم قال بابتسامة باردة تحمل كل أنواع الغضب المكبوت:

- لكني لم أنتقم منه بعد، لا أتعجّل الأمور أبدًا، الانتقام يا صهيب، لا يستحق أن يكون انفعالًا سريعًا أو لحظة تهور، الانتقام يحتاج إلى تخطيط، إلى صبر طويل، أنا لا أنتقم من أشخاص عابرين، بل أجعلهم يعانون ببطء، حتى يصلوا إلى الحظة التي يدركون فيها أنهم أخطأوا بوقوفي في طريقهم.

نظرت إليه بقلق، لكن الفضول دفعني لسؤاله:

- وما الذي تنتظره؟ لماذا لم تأخذ حقك منه حتى الآن؟

ابتسم مرة أخرى، ورفع الصورة عن الحائط، ثم وضعها على الطاولة بيننا:

- أنا لا أريد حقًا الانتقام منه الآن، أريده أن يشعر بالأمان أولًا، أريده أن يظن أنني نسيت، أن حياتنا عادت طبيعية، أنني لم أعد أتذكر خيانته، فحين تأتي اللحظة المناسبة، حين يكون في قمة ارتياحه وثقته، سأسحب البساط من تحته.

صمتَ قليلًا، ثم أضاف بصوت منخفض لكنه مليء بالثبات:

- الانتقام ليس في الضرب مباشرة، الانتقام في أن تجعلهم يضربون أنفسهم، أن تجعلهم يشعرون بكل ألم تسببوا به لك، بل وأكثر، في هذه اللحظة، سيعلمون أن كل شيء كانوا يظنون أنه في أيديهم لم يكن سوى خيوط رفيعة أنا من نسجتها لهم.

رأيتُ في عينيه غضبًا دفينًا يختلط بفخر كبير بحيلته، فسألته بهدوء:

- ولكن، ألا تخشى أن يتحول هذا الانتقام إلى شيء يأكلك أنت من الداخل؟

توقف للحظة، نظر لي بابتسامة خفيفة، وقال:

- الألم موجود في الداخل بالفعل، أنا فقط أختار كيف أستخدمه، هذا الألم هو ما يبقيني حيًا، وما يجعلني أستيقظ كل صباح وأنا

أعرف أنني لم أنتهِ بعد، الانتقام ليس ما يستهلكني، بل هو ما يعيد لي توازني.

ثم أعاد الصورة إلى مكانها، وكأنها قطعة من لوحة خطط لم تكتمل بعد، وقال:

- لا تقلق لن تكون أبدًا على هذا الجدار، إلا إذا اخترت أنت.

أشار إليّ بالخروج من الغرفة، خرجت في حالة ذعر ورعب لا أفهمها، كان وكأنه يريد إخباري أنه يعلم ويعرف كل شيء، في الوقت نفسه يثق بي فلقد فضح أحد أسراره معي، ربما هي دعوة منه لأساعده في الانتقام من صديقه، لا أعرف، لا أعرف كل الأفكار تهاجمني وتضرب رأسي..

عدت إلى غرفتي وأنا ممتلئ بالأسئلة..

اختفت أسيل لفترة طويلة لكنها عادت برسالة تسألني:

- كيف حالك يا ماجد؟

قلت:

- منذ زمن لم أسمع هذا الاسم، جئت إليكِ بخبر جميل..

عائلتي بخير؟

ردت:

- لن أتحدث عن عائلتك، لقد أنقذتك من الموت المحقق..

- كيف؟

- الشيطان وسوَس لـ صديقك السامبو بأن يشي بك، لكنه نال ما يستحقه..

- السامبو؟ هراء!

قالت:

- أردت أن أخبرك بما حدث، صدق أو لا تصدق هذه مشكلتك، كيف حال ندى؟

- بخير.

- وممدوح أبو الدهب؟

- تحدّث معي اليوم، هذا الرجل مريب جدّا، يخفي شيء ما وأراد أن أطّلع عليه..

سألتني فأخبرتها بالتفاصيل..

ردت:

- رائع! أنت تنجز مهام حقيقية وسريعة..

- كيف حال عائلتي؟

- بخير، لا تقلق بشأنهم، لديّ بشرى، ستلتقي بهم قريبًا..

- متى؟

ردّت:

أقرب مما تظن..

ماجد، إياك أن تقع في حب ندى، إياك يا ماجد..

أغلقت المحادثة..

وبعد هذا اليوم مر شهر كامل، توطدت علاقتي بـ ندى، لطالما حذرتني أسيل من الوقوع في غرامها، في ليلة كانت ممطرة والهواء يلعب بأوراق الشجر في حديقة مقهى هادئ يشرف على نهر النيل. كنت أجلس مع ندى على الطاولة المُفضلة إليها في زاوية منعزلة، كانت مرتدية معطفها الطويل الأسود وتعقد شعرها في ذيل حصان مهمل ينساب على كتفها.

الصمت كان الضيف الثالث وفقط صوت المطر يملأ المكان، كلما نظرت إليها كنت أشعر بمزيج من الارتباك والانجذاب، كانت نظراتها منخفضة وكأنها تفكر في أمر مهم.

قالت ندى بصوت هادئ لكنه مملوء بالتردد:

- صهيب، أنت تعرف أنني لست هوائية، لكن أريد الاعتراف لك بشيء ما.

تسمرت في مكاني، قلبي يخفق بشدة، أين أنتِ يا أسيل الآن، لتنبهيني من هذا المسار المَشوب بالمخاطر؟

بينما كانت الكلمات تتردد في أذني، شعرت وكأن الوقت تباطأ، عقلي بدأ يتصارع مع نفسه.. ماذا لو كانت تحاول فقط اختبار مشاعري؟ ماذا لو أنني أبالغ في تقدير الأمور؟ التوتر كان يسيطر على كل ذرة في جسدي، ومع ذلك لم أكن أستطيع أن أرفع عيني عن وجهها.

رفعت نظرها ولكن هذه المرة النظرة كانت ثابتة وقوية مع بريق خفيف في عينيها، قالت بهدوء مملوء بالصدق:

- صهيب، أنا أحبك.

وكأن الكلمات سقطت من السماء، الصوت البسيط هز كل موازيني، كل الكلمات المحتملة هربت مني، كيف لي أن أجيب على هذا الاعتراف؟ هل أستطيع أن أواجه تلك الحقيقة؟

بدأت أتحدث داخليًا، هذا مستحيل، أسيل حذرتني من الاقتراب منها، حتى هي نفسها لا تعرفني..

استمرّت في الحديث محاولة أن تخفف من ثقل اللحظة:

- أعلم أنك قد تكون مستغربًا أو محتارًا، وكنت أفكر طويلًا كيف ومتى يمكنني أن أخبرك، لكن لم يكن هناك شيء في الدنيا سيمنحني الراحة من هذا الصراع سوى أن أواجهك.

انتهى المطر، لكن الأصوات داخلي كانت كفيضان من المشاعر، نظرتُ إلى ندى وكأنني أبحث عن أي كلمة تليق بالموقف، ولكن الصمت كان كل ما استطعت تقديمه

حاولت أن أتماسك، أخذت نفسًا عميقًا وشعرت بأن قلبي يضغط على ضلوعي وكأنه يريد الخروج ليمنعني من قول شيء قد أندم عليه، لكن عندما رأيت عينيها، ممتلئة بالصدق والضعف في آن واحد، شعرت بأنني لا أملك خيارًا سوى أن أكون صادقًا معها، لكن كيف أكون صادقًا معها أنا المهدد في كل شيء!

مهدد بالكشف عن أمري، مهدد ومتهم بالهروب من السجن، مهدد

ومتهم بالقتل، ومهدد ومتهم بالتزوير، كيف أكون صادقًا أنا الذي لا أملك من الصدق شيئًا..

قلت ببطء، وكأن كل كلمة تُسحب مني:

- ندى، اسمعيني أنتِ لا تعرفيني جيدًا، أقصد أنني أتمنى أن تعرفيني لكنك وإن عرفتيني لن تعرفيني، سيفاجئك ما تخبئه الدنيا لك، أقصد أن الحياة نفسها لن تسمح أن نكون معًا، ربما قد تسمح، ربما ظروفنا لن تسمح، ربما قد تسمح، أنتِ لا تعرفين شيئًا..

شعرث أنها تنتظر المزيد، ولكن عقلي كان متجمدًا، الأفكار تدور بداخلي بسرعة، هل يمكنني أن أتجاهل التحذيرات؟ هل أستطيع أن أفتح بابًا قد لا أتمكن من إغلاقه؟

فجأة، وضعت يدها على يدي، وبهذا الإحساس البسيط شعرث وكأن كل شيء آخر قد تلاشى، نظرت إليها، ووجدتها تبتسم ابتسامة خفيفة..

بعد هذا اليوم تغيّر كل شيء، بت مراقبًا طوال الوقت، قررث الابتعاد قليلًا عن ندى، ربما أقصد، ربما لا أقصد، لا أعرف تحديدًا، ولا أريد الاعتراف لـ نفسي، صدقًا لا أعرف، كانت ندى مهوسة بزيارة المكتبات، وذات يوم كانت تجلس مندمجة في قراءة أحد الكتب، تقلب صفحات الكتاب بين يديها وكأنها تهرب من العالم بأسره، وجهها كان يحمل مزيجًا غريبًا من الرقة والكآبة، شيء ما في نظراتها كان يغير بداخلي شعورًا لم أعرفه من قبل..

حاولت أن أشيح بنظري عنها، أذكّر نفسي بما هو أهم من متابعتي

لها، ربما دوري في حمايتها، ربما ما تعده لي أسيل، ربما في أسباب محاولة السامبو الوشاية بي، ربما في ممدوح أبو الدهب والد ندى ذاك الرجل الغامض الذي أشعر أنه يراقبني طوال الوقت، أو مصير عائلتي الذي لا أعرفه..

في تلك اللحظة، انتبهت إلى ارتباكها، كانت تبحث عن شيء بين الأرفف، تتحرك ببطء - وكأنها لا تعرف ماذا تفعل، دون أن أشعر وجدت نفسي أتقدم نحوها..

- هل تحتاجين مساعدةً يا ندى؟

قالت بصوت هادئ:

- كنت أبحث عن كتاب ما، لكن يبدو أنه غير موجود.

- ما اسمه؟

- بين الظل والنور.

اسم غريب وكأن الاسم كشف عني حقيقة ما، ظللت أبحث في الرفوف بخطوات صغيرة، وأردد الاسم، يشبهني كثيرًا هذا الاسم..

حين وجدت الكتب أخذته وقلت:

- ها هو..

أمسكته ثم قالت بصوت منخفض:

- شكرًا لك..

لم أتحرك من مكاني، ظللت واقفًا أنظر لعينيها عسى أن أقرأ شيئًا

ما، لكن سرعان ما تراجعت واستجمعت شتات نفسي وأنا أقول لـ نفسي: لا تقع في غرامها..

كنت أقول.. والله المعين على ما أردت.

ظلت علاقتنا تتأرجح هكذا على رأي سيد مكاوي "ساعة شوق ومحبة وشهر عتاب وخصام".

كنا نجلس على أحد المقاعد الخشبية القريبة من المنزل، كل منا يحمل كوبًا من القهوة، لكن الصمت سيد الموقف، كانت أفكاري تطاردني، أنظر وأتأمل الفراغ، بينما ندى تنظر إلي من الحين والآخر، تتردد في كسر هذا الحاجز الصامت الذي أصبح رفيق لقائتنا..

- تُخفي شيئًا ما..

قالتها فجأة بصوت ناعم يحمل نبرة تساؤل وحزن..

نظرتُ إليها باستغراب وكأن صوتها أيقظني من شرودي:

- ماذا تقصدين؟

ابتسمت ابتسامتها الخفيفة لكنها لم تخفِ نبرة الحيرة في صوتها:

- غارق في أفكارك وكأنك تحمل عبء العالم على كتفيك..

لم أرد عليها، أخذت رشفة من كوب القهوة ثم قلت:

- ربما لأنني كذلك..

صمتت لثواني ثم قالت:

- ليس عليك أن تحمل كل شيء وحدك يا صهيب، أحيانًا يمكن

لبعض الأشخاص أن يكونوا بجانبك فقط إذا سمحتَ لهم بذلك..

نظرت لها، أرى في عينيها ذاك الذي يسمونه الحب، لكنني أرى على الجهة الأخرى الخوف، لا أريد الاقتراب منها أكثر، فالاقتراب يعني المزيد من التعقد والمزيد من الآلام والتهديد المباشر..

-ندى!

قلتها بصوت هادئ ومتردد..

- نعم؟

- أنتِ...

وأكملت بصعوبة:

- أنتِ شخص مميز، شخص يستحق حياة أفضل، شخص لا يجب أن يتورط في أمور معقدة..

تجمدت ملامحها للحظة، لكنها سرعان ما استجمعت شجاعتها وقالت:

- أنا لا أبحث عن حياة مثالية، صهيب أنا أملك كل شيء في الدنيا إلا الحب، أنا أريد الحياة معك أنت، وإذا كنت ترى أنني أستحق الأفضل، فـ دعني أقرر ما هو الأفضل لي..

- أنتِ لا تفهمين شيء يا ندى..

ردت غاضبة:

- لكنني أحاول، أحاول طوال الوقت كسب ودك وثقتك، أحاول

فهم شيء ما لا أعلمه يا صهيب..

- لن تنجح محاولاتك يا ندى.

قلتها بكل جراءة.

نظرَت إليّ ندى ثم نهضت وعدنا إلى المنزل، عدت أنا لـ غرفتي بينما هاجمتني الأفكار..

لم أختر هذا الطريق، ولم أطلب أن أكون عالقًا بين شخصين كأني في دوامة لا مخرج لها، لكن هذا هو قدري الآن، لا أعلم كيف يمكنني أن أخرج دون أن أفقد كل شيء..

ندى كلما فكرت فيها، شعرت أن العالم يمكن أن يصبح مكانًا أبسط وأجمل، معها لا أحتاج إلى الأقنعة التي أرتديها أمام الجميع، هي ترى شيء فيّ لم أره في نفسي، شخصًا يستحق الحب، كل مرة أنظر لعينيها أرى الطمأنينة التي لم أعرفها من قبل..

لكن مع كل لحظة أشعر فيها بهذا الدفء، يهاجمني الخوف..

الخوف من أسيل التي لا تترك مجالًا للخطأ، هي تعرف كيف تتحكم بكل شيء، كيف تستغل أضعف نقاط فيك لتجبرك على السير وفقًا لقواعدها، لم يكن أمامي خيار سوى الرضوخ لها، عندما هددتني بعائلتي لم أتخيل أنني سأكون في هذا المأزق، أسيل كانت واضحة جدًا "لا يمكنك فعل ما تريد ولا تسمع لـ مشاعرك"، إذا تخطيت هذا الخط ستكون العواقب وخيمة عليك وعلى عائلتك..

كانت كلماتها حاسمة، لكن كيف لي أن أمنع قلبي من الوقوع في حب فتاة تمتلكني بكل تفاصيلها، كيف أمنع نفسي من شخص

يمنحني الحياة التي لم أعرفها إلا خلف القضبان..

في البداية حاولت أن أضع حاجزًا بيني وبين ندى، حاولت التصرف ببرود، أن أبني جدرًا يمنعها من الاقتراب، لكن كلما حاولت وجدتني أغرق أكثر في مشاعري نحوها، لا أستطيع التخلص منها حتى لو أردت..

أحيانًا أفكر ماذا لو أخبرتها بكل شيء؟ صارحتها بما يحدث؟ لكنني أعرف الإجابة جيدًا، أسيل لن ترحمنا، إذا شعرت للحظة أنني خرجت من سيطرتها، ستندمني على تمردي بطريقة لا أتخيلها..

الخوف ليس على نفسي أنا ابن الخوف، لكن الخوف على ندى التي لن تتحمل صدمة جديدة في حياتها، لن تتحمل وقد لا تستوعب فكرة أن يكون العالم مكانًا مؤذيًا إلى هذا الحد، الخوف أيضًا على عائلتي، أسيل تملك زمام أمرهم، وما أظنه عن هذه المجهولة أنها لا تتهاون أبدًا في إيذاء أي شخص قد يجعلها تشعر بالخطر..

لكن الحب، الحب الذي أشعر به مع ندى أقوى من أي شيء واجهته من قبل، أريد أن أكون معها مهما أنكرت هذا، أن أهرب معها لأبني حياة جديدة، عالمًا جديدًا معها، لكن الهروب ليس خيارًا، أسيل تستطيع الوصول لي ولو كنت في باطن الأرض..

آه يا الله ساعدني يا الله فأنا ضعيف لا أقوى على تحمُّل كل هذه الأفكار وحدي..

مرّت أيام باردة، باردة وهادئة كنت أشعر باقتراب النهاية، وفي

إحدى الليالي وما بين حالة التردد أن أخبر أسيل بكل شيء أو أن ألتزم بالصمت الذي يبلعني، جلست في غرفتي مشاعري مشتعلة بعد حديثي الأخير مع ندى، لم أكن أفكر في عملي أو ما حدث خلال اليوم بل كنت أعلم أنني بحاجة لمواجهة أسيل، كنت أشعر أن الوقت قد حان لأخبرها بما أشعر به حتى لو كان ذلك يعني الدخول في معركة معها، توجهت إلى هاتفي وفتحت تطبيق ماسينجر، ورغم أنني كنت متوترًا كتبت الرسالة:

- أسيل هناك شيء مهم أحتاج إلى قوله.

بعد لحظات فوجئت أنها أرسلَت رسالة، وتوترث أكثر حين سألتني عن ندى..

أخذث نفسًا عميقًا قلت:

- علاقتنا ممتازة..

- ممتازة إلى أي مدى..

أخبرتها بما يحدث بيننا، فرَدّت:

- أظن أنك لم تنسَ الاتفاق الذي بيننا..

- أتمنى أن لا أنسى..

تجمدت أصابعي على الشاشة للحظة وانتظرت الرد عرفت أنها ستقرأ ما كتبته، كان هناك صمت ثقيل قبل أن تظهر الدائرة الرمادية التي تشير إلى أنها تكتب..

- أتعلم ماذا يعني هذا؟

كتبت وقرأت الكلمات مرتين وكأنني كنت أبحث عن أي طريقة لإنكار ما قلت..

- نعم أعلم تمامًا ماذا يعني، لكن لا أستطيع التحكم بمشاعري لقد حاولت لكن كلما رأيتها تتصاعد مشاعري أكثر.

شعرتُ بالقلق يتصاعد عندما ردت:

- أنت تدرك أنك تعصي أوامري، أليس كذلك؟

- أفهميني يا أسيل لا أستطيع وضع حاجزًا بيني وبين مشاعري، أظن أنني أريد أن أكون مع ندى..

كتبت:

- إذا استمررتَ في هذه العلاقة، فلن تتحمل العواقب الوخيمة التي ستحدث لك..

كانت كلماتها كالسيف المُسلّط على عنقي، لكنني كنت مصممًا، كتبتُ:

- لا أريد أن أكون جزءًا من هذا، أحب ندى وأريد أن أكون معها، لن أسمح لك بالتحكم في حياتي.

توقّفت قليلًا قبل أن ترد:

- هذا قرار خطير صهيب، هل أنت مستعد لدفع الثمن؟

شعرتُ بصعوبة في التنفس وكتبت:

- إذا كان الثمن هو أن أكون صادقًا مع نفسي ومع ندى فأنا مستعد.

ابتسمت أسيل حتى لو لم تكن ترى، شعرت بذلك من خلال كلماتها:

- حسنًا إذا كنت مصممًا فسأمنحك ما تريد، لكن عليك أن تفكر جيدًا في عائلتك لأنني لن أتردد في اتخاذ إجراءات إذا شعرت أن هناك شيئًا غير صحيح.

تركتني كلماتها في حالة من الارتباك، بدا أن شيئًا ما داخلي يهمس لي "لا تخَف"

لم أكن أعلم ما الذي سيحدث بعد ذلك لكنني أدركت أنني اتخذت قرارًا كبيرًا كشفت مشاعري أمام أسيل، والآن كنت عالقًا في دوامة من الخوف والأمل كل منهما يدفعني في اتجاه مختلف.

انتهت المحادثة وبدأ صراع أو خوف جديد، لم أكن أتوقع أن أقول حتى لـ نفسي أن بإمكاني التمرد على أسيل، تلك المجهولة التي تملك مصير كل شيء، مرّت أيام باردة أخرى، أيام تبدو عادية ظاهريًا لكن في نفس بن يعقوب كنت أخوض مئات المعارك اليومية، ما بين التراجع عن قراري في مواجهة أسيل والخضوع لها وخسارة ندى، وما بين مواصلة العناد والحرب ضد أسيل وتحمل توابع قرار ما يحدث هي التي تملك قرار عائلتي..

لاحظَت ندى التغيير، كانت تحاول فهم ما يحدث، حاولت التهرب منها، ظلّت محاولاتي للهروب حتى خرجنا للمكتبة، ونحن في الطريق غيّرَت المسار واتجهنا لمكاننا المفضل في أحد المقاهي..

- لماذا جئنا إلى هنا؟

ردت:

- لأفهم ما يحدث..

- ندى، من فضلك أنا لا أريد التحدث عن أي شيء..

- أنت خائف من أبي صحيح؟

قلت:

- أنا لا أخاف من أي شخص..

ردت:

- إذن أنت لا تحبني؟

- لم أقل هذا.

- لن تتزوج امرأة لها ماضي، صحيح؟

تنهدت:

- أقسم لك لم يخطر في بالي.

- حسنًا لماذا لا نتزوج؟

قلت متعجبًا:

- نتزوج! أنتِ لا تعرفيني يا ندى.

ردت:

- سأعرف كل شيء عنك مع الوقت..

- لا يمكنني هذا..

- لماذا ما الذي تخبئه عني، أنا أشعر أنك تكذب، طوال الوقت

تكذب، طوال الوقت تُخبئ حقيقة ما لا أعرفها..

تنهدت ولم أزد، فواصَلَت الضغط:

- أنت تخشى عائلتي صحيح، ربما عائلتك لن توافق عليّ صحيح، لا يمكنك الوثوق فيّ بعد تجربتي الصعبة؟ ربما لم تحبني من الأساس، أنت تُشفق عليّ صحيح، وجودك بجواري شفقة حتى لا أنهي حياتي؟ هذا شعور قذر..

- أهدأي يا ندى!

واصلت ندى انفعالها..

قلت غاضبًا:

- ليس لديّ عائلة يا ندى، ليس لديّ عائلة، عائلتي مُهددة ولا يمكنني الاقتراب منك وإلا ستنتهي حياتهم التي لا أعرفها.

صُعقَت مما سَمعَت ثم قالت:

- لقد هددك أبي بعائلتك حال الاقتراب مني، هذا الوغد أعرفه جيدًا.

- لا علاقة لأبيكِ بهذا الأمر..

- من المسؤول عنه؟

- لن أستطيع التحدث أكثر من هذا.

سحبتها من يديها وعدنا إلى المنزل، طوال الطريق كنت صامتًا بينما كانت تنهال عليّ بسيل من الأسئلة، لكني لم أرد عليها، كنت

أختصر كل الكلمات بالصمت، لا قيمة للكلام لن تفهم ما سأقوله وربما لن تتحمل من الأساس ولن تصدق كم الأحداث التي مرّت بي، ربما ستغدر بي من الأساس وتخبر عائلتها بكل شيء وأعود إلى السجن..

عدت إلى غرفتي من جديد في حالة صمت ظاهري، لكن كل الكلمات في صدري تتصارع..

ثم إشعار من أسيل..

"حان الآن وقت تنفيذ المهمة الثانية.. أنا في انتظارك"

الفصل السادس

الشهر الأول في مستشفى السعودي للصحة النفسية..

أيامي هنا روتينية جدًا، سعيد أنني غيّرت شيئًا ما في حياتي، بالنقلة الكبيرة التي حدثت وانتقالي إلى هنا، الأطباء يعاملونني هنا بلطف شديد، يقدّرون مسيرتي العملية، ودودون جدًا، لكنني أيضًا ما زلت لا أفهم سر وسبب وجودي هنا، ما عرفته من بعض الزملاء أنني جئت للإشراف على إحدى الحالات المستعصية، جئت لعلاج رجل ذو مكانة مرموقة في مصر، لكن الحقيقة لا توجد معلومات كاملة عنه، ما زلت لم أستلم حتى الآن الملف الخاص بالحالة، حتى المدير الشخصي على فريقنا العلاجي لم يعطِني أيّة معلومة دقيقة، يقول إنه يعد الملف الخاص بالحالة.

الأجواء هنا روتينية جدًا بطريقة مملة، وبعيدة عن الأجواء الروتينية في المستشفى، ففي حياتي الخاصة تغيرت حياتي بعض الشيء، لم أعد جليس الحانات والسهرات الحارة، بل أصبحت أعود من عملي إلى البيت، وأكتفي بيوم واحد فقط في الأسبوع أقضيه مع البرازيلي والأصدقاء، قد تظن أن هذا التغيير المفاجئ نتيجة لعودة علاقتي مع ميرال، لكن الحقيقة أن علاقتي مع ميرال باردة جدًا، الفضل يرجع لريحانة الفتاة التي أحببتها منذ أول مرة رأيتها فيها..

الحقيقة أن ريحانة أعادت ترتيب فوضى حياتي رغم أنها لم تقصد ذلك، ربما لم تُعِد ترتيب فوضى حياتي، لكنني شعرت معها بكلمة "البيت" وشخص مغترب طوال حياته، يقدّر معنى البيت، لا

داعي للركض طوال الوقت، وإن ركضت طوال الوقت فيحق لك أن تعود لبيت ينتظرك ويهون عليك شقاء رحلتك، لا داعي للهروب في الشارع طوال الوقت لديك بيت ينتظرك، لا داعي لمحاولة مداوة أوجاعك فلديك بيت يمكنك أن تداوي جراحك فيه، لن تشعر بالغربة ما دمت تملك بيتًا يشبهك، لن تشعر بالخوف ما دمت تملك بيتًا سيكون مصدر أمانك، لا تقلق بشأن ما فاتك فـأنت تملك بيتًا سيكون في أجمل مما تتوقع..

كنتُ أنهي عملي ثم أعود لأتحدث معها هاتفيًا، استطاعت وكأنها تسحبني من عالم لآخر، بدأتُ أشعر بالهدوء معها، وشخص مثلي حين يشعر بالهدوء فـ هذا حدث عظيم لأنني قضيت سنوات في فوضى وضجيج، شعرت في وجودها بالانتماء أنا الذي قضيت حياتي مغتربًا عن كل شيء حتى عن نفسي، بالنسبة لميرال فـ لقد استطاعت كعادتها أن تقحمني في تفاصيها مرة أخرى، كلامنا عابر وعلى ما يبدو أن مشاعرنا كذلك، ساعة نتحدث وكأننا نعرف بعضنا البعض وساعات طويلة يسود الصمت حديثنا، أما عن هند فما زالت تنتظر لقائي بها، نتحدث من وقت لآخر لكن عبر الهاتف، نحاول إيجاد ساعة لنلتقي فيها، لكن الحياة ومشاغلنا تُبعد لقاءنا..

رغم كل هذا كان يعتريني أحيانًا شعور أنني أبالغ في مشاعري تجاه ريحانة، لأكون صادقًا لم تجمعني بتلك الفتاة ذكريات من الأساس، حتى هي لا تعرفني حتى تقع في غرامي، هل أحبها حقًا؟ أم ما أحمله لها مجرد رغبة في التشبث بها، كنت أنتمي للبيت الذي في مخيلتي ورغم كل اللاتي عرفتهن لم أجد مثلها تتشبث بنفس الفكرة، لربما تشابه أفكارنا نحو رغبتنا ومفهومنا عن البيت كان سببًا

كافيًا لهذه العلاقة..

اليوم أخبرتني ميرال ببدء أولى الجلسات النفسية مع المريض، محمد إسماعيل، حين قرأت هذا الاسم شعرت أنني أعرفه، سألت المدير ليؤكد ظنوني نعم هو أستاذ الفلسفة المعروف، التقارير لا توضح شيئًا عن حالته، كل ما كُتِب عنه أنه أصيب باضطراب نادر في المخ، يجعله في حالة صمت تام، ثم هياج وثورة، أحيانًا تظهر بوادر رعشة في جسده، أحيانًا يضحك بلا سبب ثم فجأة ينهار ويبكي بلا توقف..

قال المدير ساخرًا:

- الفلسفة لحست مخ هذا الشاب، كان من الممكن أن يكون نابغة لولا أنه عرف أشياء لا يجب أن يعرفها..

ابتسمث ثم قلت:

- أن تتعلم الفلسفة وعلم النفس ثم تتعايش مع هذا الواقع الأليم هو أمر بالفعل جنوني..

قال المدير:

- كريم، هذا الرجل عليه توصيات كبيرة، وأنت الوحيد من كل الأطباء في مصر الذي جاءت توصيتك بشكل مباشر أن تكون المعالج الشخصي له، أنا أثق فيك..

ختم كلماته:

- مع العلم.. هو الوحيد الذي يقرر من سيعمل معه..

قلت متسائلًا:

- لا أفهم!

قال:

- إن أبلى بك بلاءً حسنًا وتحدث معك، فهذا يعني أنه سيوافق على بدء رحلة علاجه معك..

تنهدت ثم استأذنت منه واتجهت إلى الحديقة، ظللت أتابع المرضى من بعيد، قرأت في مرة أن هناك سور واحد يفصل ما بين المتعافين والمرضى النفسيين..

المرضى النفسيين هم خارج هذا الجدار..

واصلت متابعتي لهم وأنا أراهن في نفسي أنني سأستطيع معرفة محمد إسماعيل من تلقاء نفسي بعدما قلت للمدير أريد معرفته بنفسي..

معلوماتي عن هذا الرجل بسيطة، هو أستاذ ودكتور جامعي معروف في مادة الفلسفة، الغريب أن رغم نجاحه العظيم لكن عمره لا يتساوى أبدًا مع كم الإنجازات التي حققها، تشعر أنه كان يحقق إنجازات منذ نعومة أظافره، لطالما سمعت مثل الآخرين أن هذا الرجل مثال يقتدى به للشباب الصغير، لكن رجل في مثل هذه المكانة المرموقة ما الذي أودى به إلى مستشفى للصحة النفسية..

من بين الحضور لاحظت رجلًا يجلس في الركن البعيد، يجلس على الأرض وأمامه شطرنج، أظن أنه هو..

اقتربت منه بخطوات ثابتة، في التقرير الذي أمامي هو في الخامسة والأربعين، لكن من يجلس أمامي رجل ملامحه تبدو كأنه تجاوز الخمسين، راهنث نفسي أن لا يخبرني أحد عن مكانه، ولا أخفي لقد راودني الشك حين رأيت ملامح رجل في الخمسين يجلس منهمكًا في اللعبة بمفرده، يفكر وكأنه يلعب ضد خصم عنيد، يدخن بشراهة وكأنه مُهدّد، ويتنهد قبل أن يحرّك بأصابعه قطعة جديدة من الشطرنج، بجواره مذياع صغير، ومقطوعة شعرية لـ وديع السعادة..

"أيها العالم، ولمسته جموع، ولمسه العالم، ولم تخرج منه أيّة قوة، لم يكن هو السيد، لم يكن هو المصطفى، كان المرتجف مثلهم في الريح، ما جئت لأنقض ما جئت لأكمل، ما أنا إلا النقصان والنقيض، الذي لم يكن سيدًا بلا اسم وبلا صوت، كان يتحدث فقط في قلبه".

لم أفهم كلمات المقطوعة، جلسث بجواره في صمت وهدوء تام، كان ينظر ناحية الفراغ ثم يقول:

- حان دورك..

فـ يحرك يديه اليسرى للحركة الجديدة..

يبتسم مرة أخرى للفراغ الذي ابتسم له ثم يقول:

- لم يأت دوري بعد..

ظللث أتابعه في صمت شديد، رمقني بنظرة قاسية وبعد دقائق من التأمل قال:

- يقول آرثر شوبنهاور..

"في الشطرنج كما في الحياة، لا يكفي أن تكون لديك خطة جيدة، عليك أن تعرف متى تنفذها".

ثم واصل اللعبة ومعها تأكدتُ أنه هذا الرجل الذي أبحث عنه..

جلستُ بجواره قرابة ساعة، قد يبدو هذا جنونيًا لكنني أردت أن أعرف بالضبط من سيفوز في هذه المعركة المنفردة..

بعد ساعة قَلَّب الطاولة رأسًا على عقب ثم قال للفراغ:

- أخبرتك لن نجد حلًا أبدًا..

كنتُ جريئًا بما يكفي لأسأله:

- من فاز؟

نظر إليّ بنفس نظراته الحادة القاسية ثم قال:

- في معركتك مع نفسك كل النتائج ستؤدي إلى خسارتك..

قلت محاولًا استدراجه في الكلام:

- أظن أنك أديت بشكل جيد..

ابتسم وكأنه يتحدث مع ابنه ثم قال:

- أخبرني ما قيمة أن تقوم بكل شيء جيد ثم تصبح النتيجة مخيبة للآمال، ماذا يعني أن تقطع أميالًا في طريق ما ثم لا تصل إلى وجهتك، أو تلك اللحظة التي تقترب فيها لمعانقة نجمة في السماء ثم ترتطم بسابع أرض، تلك المحاولات التي استهلكت أعمارنا وحياتنا ومشاعرنا كان العوض الوحيد عنها أن ننعم بنتيجة

جيدة، أو تخيل أن يفصلك عن الجنة خطوة واحدة ثم بخطأ قاتل تعود للجحيم، هل ستغفر لك الدنيا خطأك لمجرد أنك حاولت، هل سيعودون بك حيثما كنت على وشك الوصول؟ بالطبع لا..

كلمات كادت أن تعيدني أنا لنقطة الصفر، لكنني لست هنا لأتأثر بكلماته، فقلت:

- كل محاولة ما هي إلا درس نستفاد منه في المستقبل.

قال في هدوء:

- أنت الطبيب الجديد؟

- نعم، اسمي كريم.

فقال وهو ينهض من مكانه:

- اسمع يا كريم، إن أردت أن تنجح معي، إياك أن تستخدم كلمات التنمية البشرية، إياك أن تتحدث معي بهذه النبرة مرة أخرى، أنا من أكتب هذه الكلمات لطلابي، أنا من أرشد التائهين..

تابعته معتذرًا:

- أنا من أحد طلابك.

لم يرد علي، فواصلت:

- أنا أريد التعلم منك.

- لديّ عشرات الكتب ومئات المحاضرات والندوات، يمكنك أن تقرأها وتسمعها..

- كل حقيقة كتبتها وأخبرتنا بها كانت تنقص حقيقة ما.

تحركنا ناحية البوفيه، طلب القهوة لـ نفسه ثم نظر إليّ وقال:

- لا توجد حقائق كاملة في الحياة..

- على الأقل أعرف منك جزء من الحقائق التي تعرفها أنت..

رد وهو يشرب قهوته:

- المعرفة جحيم لن تتحملها، كلما تعمّقت في النفس البشرية كلمات زادت المعاناة؛ لأنك لن تثق ولن تعرف ولن تؤمن بأي شخص، حتى بنفسك، لذلك لا تتعمق كثيرًا في معرفة الحقيقة..

شعرت في هذه اللحظة أنني لم أفهم شيئًا..

فقال وهو يبتسم:

- ليس عليك أن تفهم كل ما أقوله الآن.

تحرّك أمامي بخطوات ثابتة ثم قال دون أن ينظر إليّ:

- ستتكفل الدنيا بـهذا، تمامًا مثلما تكلفت بـ دميانا.

- من هي دميانا؟

قال وهو يبتعد أكثر:

- ستعرف كل شيء مع الوقت.

لم أتبعه، رغم أن الحوار قد بدأ معه سريعًا لكن حوار لدقائق مع هذا الشخص أمر في غاية الإرهاق، هو يطلق الكلمات العادية لكنها تغرس في قلبك كـ سهام مسمومة، شعرت بثقل في قلبي غريب،

فعدتُ إلى المكتب محاولًا استيعاب هذه الدقائق الطويلة، الطويلة جدًا..

هذا الرجل صعب جدًا يحتاج مني مجهودًا كبيرًا لفهم أبجدياته، خرجتُ من العيادة واليوم حيث لقائي مع هند، اشتقت لهذه المجنونة التي لا تبالي بالدنيا، تتعامل معها كأنها لا تراها، تعيش في عالم موازي لا تؤمن بشيء لا تضع اعتبارات لأي شيء، تتعايش مع الدنيا وكأنها ضيفة سريعة تريد الحلو منها ثم ستغادرها بلا رجعة..

وصلت إلى منزلي القديم الذي تركته لها، ما ان استقبلتني حتى عانقتني..

- افتقدتك يا حبيبي!

- كيف حالك يا هند؟

- سيئة حتى رأيتك، أنت أخبرني كيف حالك، أين اختفيت؟

- لا يهم، أنا بخير.

ابتسمت ابتسامة تعرف أنني أكذب:

- أتمنى، أتمنى أن تكون بخير.

تناقشنا في عدّة أمور عن الدنيا، ثم قالت:

- هل تتذكر ماذا حدث ليلة العودة للبيت؟

قلتُ:

- بالتأكيد وقتها انهالوا عليك بالجلد.

واصلَت:

- كانت ليلة لا تنسى أبدًا، لا أعرف بالضبط كيف مرّت، لكنها ليلة لم أعد قبلها كما كنت، قضيت ثلاثة أشهر في جحيم تام، لم أخرج من المنزل، لا أملك أي وسيلة اتصال، حتى الشمس لا أراها، مجرد سجينة في الغرفة، بدأت الأفكار من جديد تطاردني، حاولت الانتحار لكن كنت أضعف من هذه الخطوة، بدأت تراودني رغبة في الهروب، هل أنا أضعف من هذه الخطوة؟ ربما، لكنني ما رأيت في القاهرة كان كفيلًا جدًا أن يجعلني امرأة أخرى، لم يتوقف عقلي عن تخيُل شكل الحياة التي تنتظرني خارج هذه المدينة، سأعيش تلك الحياة التي تخيلتها ولم أرها، تخيلتها وقرأت عنها، وكدت أفقد إيماني بها..

مأساة أن تتخيل الجنة، ولا تراها ثم تعيد الحياة ترتيباتها فتجعلك تلمسها فـ يعود إيمانك بها، ثم تعود مرة أخرى للجحيم، لن يعذبك الجحيم بل سيعذبك شعور أنك تأكدت أن ما تخيلته لم يكن مجرد خيال وأوهام، بل كان حقيقيًا وواقعيًا، وبطريقة درامية..

لم يكتب لك.

ضحكت هند ثم واصلت:

وفي صباح عيد الفطر بينما كان الناس نيام، أعددث عدتي للهروب من هذا الجحيم..

لأين؟ لا أعرف.

لمتى؟ لا يهم.

من سيكون معي؟ أنا وحدي.

قررت الهروب لأنني أريد الحياة التي أعيشها، لا يهم أبدًا ما سيحدث لا يهم أبدًا توابع قراري، لا يهم أبدًا كيف سينتهي بي الحال..

الأمر يستحق..

تنكّرت في ملابس إحدى الفلاحات ثم خرجت من المركز ومنها إلى موقف المدينة، وقفت في الموقف، أسمع المنادي ينادي..

الإسكندرية

رمسيس

إسماعيلية

بورسعيد

وقفت أمامه وأنا أسأل نفسي أين وجهتي؟

- رمسيس يا أستاذة؟

- نعم نعم.

ثم ركبت الميكروباص..

تنهدت وأنا أشعر بالحرية، الغريب أنني لم أفكر في أضرار ما سيحدث، لا يهم العواقب لا يهم أي شيء، أنا حرة الآن..

كان هذا تفكيري الوحيد، أن أستمتع بما أنا عليه ولو كانت آخر ساعة في عمري، جلست في أحد المطاعم، طلبت الطعام وظللت

أفكر ماذا سيحدث؟

كانت معي ورقة أسجل فيها بعض الأرقام المهمة، وأول هذه الارقام كان شهاب..

اتصلت به من هاتف أحد عمال المطعم، أخبرته أنني في انتظاره، عند المطعم المقابل لمحطة قطار رمسيس..

بعد ساعة من الانتظار جاء على عجل:

- ماذا حدث؟

أخبرته أنني هربت من عائلتي ولا أريد العودة..

أشعل سيجارته ثم انطلقنا بسيارته، أخبرته عن كل شيء عني، كان صامتًا تمامًا، يقود السيارة بسرعة جنونية ويدخن بشراهة..

- عائلتك لن يصمتوا، سيبحثون عنك في كل مكان، ماذا سنفعل؟

قلت:

- لا يهم ما سيحدث، الأهم أنني أصبحت حرة الآن.

ما كان يدهشني أن الخوف لم يلمس قلبي، كنت بالفعل مستعدة للتضحية بكل شيء من أجل شعور الحرية..

وصلنا منزله في المقطم، وعقلي رغم أن الخوف لا يمسه، لكن أيضًا لا يدرك ولا يستوعب ما يحدث، ما إن وصلنا حتى أعطاني هاتفًا جديدًا، وضعت فيه الخط ومن ثم انهالت المكالمات عليّ، لم أرد عليها، كنت في حالة صمت تام، أرى العالم ينهار أمامي بينما أفكر في خطواتي الجديدة..

قطع شهاب صمتي:

- لا تقلقي بشأن وجودي معك..

ضحكت:

- أنا لا أقلق من أي شيء.

مرّت أيام والهاتف لا يتوقف عن الرن..

فوجئت برسالة على الواتساب..

بورقة حكومية مكتوبة "ورقة طلاقي" من ابن العمدة..

بكيت، كدت أعانق السماء من شدة الفرحة، انتهى الكابوس، انتهى الكابوس الذي ظل يطاردني لسنوات وسنوات، سجدت لله فرحًا لأنني تخلصت من عذاب ظننت أنه لن ينتهي أبدًا، تنفست صعداء الحرية، انتهت قصتي مع عائلة فعلوا كل شيء ليدفنوني بالحياة..

بعد هذا اليوم قضيت أيامًا أخرى تحت مسؤولية شهاب، أنا ممتنة لأنه ساعدني في هذه الأوقات الحرجة، أنا ممتنة لأنه الوحيد الذي لجأت إليه في هذه الأزمة ولم يخذلني..

بعد قرابة شهر وفر لي شهاب عمل في خدمة عملاء أحد شركات المحمول، كان الراتب بسيطًا لكنني لم أحتج إلى المال قدر حاجتي للعمل واستعادة عافيتي القديمة، صنع أحلامي التي فاتتني في القرية، أضواء المدينة مذهلة قادرة على محو كل آثار ظلام الريف، بدأت العمل ومعه بدأت في البحث عن سكن جديد يخصني؛ لأن الحياة مع رجل في منزل واحد محفوفة دائمًا بالمخاطر حتى لو لم

يظهر بوادر لأي تجاوز، كنت أعلم في نفسي أن شيئًا ما قد يحدث مستقبلًا، خصوصًا مع إعجابي الكبير بشخصيته وهدوءه..

لم يعترض شهاب على أي شيء طلبته منه، كان شخصًا مسالمًا من الدرجة الأولى، كانت علاقتنا لا تتعدى أكثر من أننا أصدقاء، شهاب شخص في غاية الغموض لا يتحدث عن نفسه إطلاقًا، كلما حاولت التحدث معه وعنه كان يقول ليس عليك معرفة كل الأمور، كنت مرهقة جدًا حتى إنني لا أستطيع المناهدة معه..

كانت أيامي عادية لكنها مختلفة، في الصباح أذهب إلى العمل، في منتصف اليوم أعود لأستريح ثم أخرج في نهاية اليوم لأستمتع بالأجواء الليلية في القاهرة مع شهاب، الذي تحوّل إلى شخص مرشد، في كل خطوة أسأله عن رأيه، فيما يخص حياتي كنت أستشيره في أغلب الأشياء، كانت آراؤه دائمًا صائبة، على الأقل منطقية بالنسبة لي، أحببت فكرة المناقشة بشكل عام حيث يمكنني التحدث معه عن كل وأي شيء بكل هدوء، فأنا لستُ مُتهمة بإساءة الفهم أو قد ينال مني شخص لمجرد أنني أختلف معه، قد تبدو أشياء ليست مهمة للبعض لكن بالنسبة لفتاة عاشت حياة لا يمكنها التعبير عن وجهة نظرها، وثقت في شهاب ثقة عمياء ولا أخجل أن أقول إنني قد وقعت في حبه..

اقتربنا أكثر وأكثر وبدأت علاقتنا تتطور أكثر وأكثر، كنت مستمتعة بالحرية التي ألمسها، أستمتع بلمساته لـ جسدي وبوجوده بجواري، اقتحمني شهاب واقتحمت عالمه الغامض، ظننت أن الليالي التي يتغير الإنسان فيها مئة وثمانين درجة قد رحلت، لكن ظنوني لم تكن

في محلها، في إحدى الليالي حاول شهاب الاقتراب مني، اعترضت، لم أكن أريد أن أغضب الله، يكفي كم المواقف التي أغضبته فيها، كنت في حاجة للمسته لكنني أردت أن أتجنّب مزيدًا من الأخطاء..

قلت:

- ماذا لو تزوجنا؟

قال:

- زواج! حسنًا دعينا نتزوج.

- كيف؟

- ما هي شروط الزواج؟

قلت:

- الإشهار.

- حسنًا فكرة ممتازة، كم نحتاج من الشهود؟

- أربعة؟

- حسنًا لحظات..

اتصل بعدّة أصدقاء ليخبرهم أننا تزوّجنا..

- الآن تزوجنا!

- بهذه البساطة؟

قال:

- نعم بهذه البساطة، ألا يجب أن يتوافر شرط الإشهار، ها نحن قد أعلنّا، هكذا كانوا يتزوجون في الجاهلية..

لم أقتنع لكنني أردت أن أقتنع حتى أحمي نفسي من شعور الذنب..

ثم قضيت مع شهاب ليلة في غاية الحب، للمرة الأولى أشعر بمعنى أن تحب نفسك لأنك بين ذراعي من تحب، قضينا وقتًا طويلًا جدًا معًا، كان يلمسني بكل حب، كنت مستسلمة تمامًا استمتع بكل لمساته وأريد المزيد، بعد هذا اليوم اتخذت علاقتنا مسارًا آخر، بدأت أشعر بالانتماء لـ شهاب، أشعر بالحب معه، كان يلازمني في كل خطواتي ونجاحي، كان يؤمن بي أنا التي لم تؤمن بي عائلتي، أصدقائي، والحياة..

تكررت الليالي الساخنة بيننا، لم أشعر بالذنب تجاه ما أقوم به، حاولت لكنني لم أشعر بالذنب، أستحق أن أحيا وقد أردت أن أحيا بسلام في الحياة، لكنها لم تهب لي إلا القسوة والجفاء..

في الوقت نفسه بدأت أُلِح على فكرة الزواج بطريقة شرعية، كان يتهرب مني بشتى الطرق، بدأ في مرحلة الاختفاء، يغيب شهرًا لا يرد على المكالمات أو رسائل الواتساب، ثم يعود معتذرًا وكأن شيئًا لم يكن، كنت أغفر له غيابه، أغفر له قسوته وإهماله، لأنني ممتنة، ممتنة لهذا الشخص طوال حياتي..

صمتت هند فجأة ثم تحركت ناحية غرفة النوم وقالت:

- صحيح، بعد أن أعطَيتَني الشقة نقلت بعض أغراضي الخاصة إلى دولابك.

فتحت الدولاب ثم بدأت في عرض ملابسها الشخصية، فساتين، معاطف، جيب، ثم فتحت أحد الأدراج وأخرجت لبس للأطفال وقالت:

- هذا لـ سهيل..

قلت مندهشًا:

- من سهيل؟

قالت وهي تعانق أحد ملابس الرضيع:

- مع تكرار الليالي الساخنة بيننا، بدأت أشعر بالقلق خصوصًا أن فترات غيابه كانت طويلة جدًا، ثم يعود لأجده بصحبة أصدقاء جدد، رأيت أن حياته تأخذ مسارًا مختلفًا، لم يعد ذاك المهندس المميز الملتزم في عمله والذي يسعى لحياة أفضل، بل صار يتغيب بالأسابيع عن عمله، بدأت أشعر بالغيرة وأنا أرى الأخريات يتغزلون فيه، يقضي أغلب أوقاته معهم، حاولت مواجهته لكنه كان يتهرب كعادته من الإجابة، بدا الوضع مزعجًا جدًا، هو لا يتحدث، لا يشرح، لا يبرر، لا يجيب على أي شيء، وحين عرضت عليه الزواج بشكل مباشر، تهرّب مني، استمرت أوقاتنا الساخنة، وفجأة وأثناء مرور أيامي الباردة، شعرت بدوار غريب، انتقلت للمستشفى وطلبت شهاب الذي جاء على الفور..

- المدام حامل!

- حامل؟

سمعت شهاب يقول:

- لا لا أنا لست زوجها، هي مجرد صديقتي زوجها في الخارج.

صعقت من الخبر، شعرت أن الدنيا كلها تقف ضدي، مشاعر مختلفة من الحزن والفرح، ما بين أنني سأصبح أمًا وما بين أنني لا أعرف ماذا سيحدث مستقبلًا..

عدت إلى المنزل من جديد، صاحبني شهاب الذي ظل طوال الطريق صامتًا، حاولت أن أستدرجه لكنه لم يرد، كان صامتًا بطريقة مرعبة..

جلس على الأريكة وأشعل سيجارته..

- ابن من هذا يا هند؟

نظرت إليه:

- ماذا تقصد؟

رد:

- أنتِ تفهمين قصدي جيدًا.

- أنا لم ألمس رجل غيرك يا شهاب.

نظر إليّ نظرات شك ثم قال:

- سأتأكد مع الوقت..

اختفى شهاب في اليوم التالي وكأنه تبخر من حياتي. لم يترك وراءه أي أثر، حاولت أن أبرر غيابه لنفسي. قلت ربما يحتاج وقتًا ليهضم الخبر، ليعيد ترتيب أفكاره. لكنه لم يعد، مر يوم، ثم أسبوع،

ثم شهر، وكل يوم كان يزيد فيه شعوري بالوحدة، كنت أستيقظ كل صباح متسائلة، كيف سأعيش هذه الحياة وحدي!

مع مرور الشهور، بدأت أشعر بثقل الحمل ليس فقط على جسدي، بل على روحي أيضًا، كنت أشعر بأنني معلقة بين السماء والأرض، لا أعرف كيف أتحرك أو إلى أين أذهب، كنت أعيش حياتي يومًا بيوم، منتظرة معجزة تعيد لي شهاب أو تخرجني من هذا المأزق.

بعد أربعة أشهر عاد شهاب، لكن الشخص الذي عاد لم يكن هو نفس الرجل الذي عرفته، لم تكن عيناه تحملان الدفء الذي اعتدت رؤيته فيهما، بدلًا من ذلك، كانتا فارغتين، وكأن الحياة أطفأت نورهما، بدا وكأنه شخص غريب، يتحدث ببطء ويتحرك بتثاقل، لم أفهم ما حدث له في البداية، لكنه لم يتأخر في إظهار حقيقته..

كان مدمنًا، اكتشفت ذلك من تصرفاته ومن حديثه ومن طلباته المتكررة للمال. في البداية، كنت أعطيه ما يريد، كنت أقول لنفسي إنه زوجي، إنه والد طفلي، ربما إذا ساعدته الآن، سيعود إلى طبيعته، سيعود ليكون الشخص الذي أحببته، لكن طلباته لم تتوقف، بل زادت..

بدأ يطلب المال بشكل متكرر، وكنت أعطيه، اضطررت إلى العمل في وظيفتين لأتمكن من تغطية احتياجاتنا، كنت أركض بين العمل والمنزل، بينما هو كان يجلس في البيت يقضي وقته في السهر والشرب، كل يوم كنت أعود إلى المنزل مُنهَكة، لكنه كان ينتظرني بطلب جديد، وكأنني ماكينة صراف آلي.

لم أكن أجرؤ على مواجهته، كنت خائفة من أن أخسره، رغم

أنني كنت أدرك في داخلي أنني فقدته بالفعل، كنت خائفة من أن يتركني وحيدة تمامًا، لكن مع الوقت، لم أعد أتحمل. في أحد الأيام، عندما طلب مني المال مرة أخرى، رفضت، قلت له بصوت متعب، لا أستطيع، لقد تعبت.

نظر إليّ بغضب لم أره من قبل، قال لي بصوت بارد:

- إذا لم تعطيني المال، فلن تتحملي عواقب ما سأقوم به.

- ماذا ستفعل؟ ستغادرني..

لقد غادرتني منذ أربعة أشهر ولم تعد منذ ذلك الوقت.

تهجّم عليّ..

أخذ من حقيبتي بعض الأموال ثم غادر..

استمر الغياب والعودة وذات يوم..

سمعت صوتًا في الصالة، ظننت أنه لص، خرجت من الغرفة وأنا أتلو بعض الآيات القرآنية وأمسك سكين، خرجت من الغرفة لم يكن لصًا كان شهاب ومعه أحد أصدقائه، ما إن رآني وعلى غير عادته قبّل يدي بشفته الزرقاء التي تفوح منها رائحة المخدرات..

- ماذا تريد؟

سحبني للغرفة وقال وهو يتوسل:

- هندي اسمعيني، أنا في ضائقة مالية كبيرة وأريد مساعدتك.

قلت حازمة:

- لقد استهلكت ماديًا، لا أملك مالًا أعطيه لك.

هز رأسه وقد ظهرت على ملامحه نوبات الاحتياج للكوكايين ثم قال:

- لا أحتاج منك المال، هذا الرجل سيساعدني في إعطائي ما أريد، لكن لديّ شرط واحد..

- ماذا يريد؟

قال بصوت منخفض:

- يريدك.

سبقني في حديثه قبل أن انفجر في وجهه:

- أعرف أن ما أطلبه منك صعب لكن أرجوكِ ساعديني مثلما ساعدتكِ في بداية وجودك هنا.

ثرث غاضبة وثارت حالة هرج ومرج حتى إنني استدعيت الجيران..

فر الرجلان هربًا كالفئران..

ما إن خرج وسط حالة من الفوضى، حتى انهرت تمامًا..

انهرت وأنت لا تعلم معنى خيبة امرأة في رجل آمنت به، لا تعلم مرارة الخيبة في رجل اعتبرته سيد كل الرجال، لم يكن إلا مدمنًا ديوثًا أنانيًا، لا تعلم مرارة خيبة امرأة في رجل كانت تراه مثالًا يقتدى به، ترى رجلها وعالمها الوحيد، تشبث به، آمنت به، لكنه في النهاية اختفى، اختفى ومات على قيد الحياة، كانت خيبتي منه

أكبر من خيبتي في عائلتي التي ضحت بي في زواجي الأول، كانت أكبر من عائلتي التي وقفت وأنا أجلد من ابن العمدة حين هربت من بلدتنا الفقيرة، كانت أكبر من نظرات أبي الضعيفة، المرأة تنسى كل خيبات العالم، لكنها لا تنسى أبدًا خيبة رجل آمنت به..

قضيت يومان على فراشي وقد بدأ الحمل يشتد عليّ، فوجئت برسالة من شهاب على الواتساب يقول:

- انتظري ما سيحدث قريبًا.. قريبًا جدًا.

لم يكذب خبرًا وفي اليوم التالي..

استيقظت على صوت طرق عنيف على الباب، نهضت مفزوعة، لم أفتح الباب لقد استطاع الطارق كسر الباب..

شهاب؟ لا بل كان أبي وأبناء أعمامي..

انهالوا عليّ بالضرب المبرح، كانت ضرباتهم بالكرباج.. يا عاهرة، يا فاجرة، يا عاهرة، يا فاجرة، يا زانية، سبّوني ولعنوني بأفظع الألقاب والشتائم، ظلوا يركلوني في بطني بتعمد بينما كنت أتعمد أن أضع يدي خوفًا على الجنين الذي انتظره، سحلوني على السلالم على مرأى ومسمع الجميع، سحلوني بملابس المنزل، وقف أبي وظل يضربني بالكرباج دون أن يتدخل أحد، بدأت في النزيف، افترشت دمائي الأرض وشرب التراب منها، فقدت الوعي تمامًا وظننت أنّي مت..

لا أتذكر الأيام التي قضيتها غائبة عن الوعي، استيقظت على سريري وبجواري أحد جيراني، صديقتنا سلمى بالمناسبة، من هنا بدأ

علاقتي بها، وضعت يدي على بطني..

رأيت في عين سلمى نظرات الشفقة:

- حمد لله على السلامة..

- ماذا حدث؟

ردت:

- جاءت الحكومة لكنهم لم يلحقوا بهم، كنتِ مغيبة عن الوعي وتوسط أهل الحي لإنهاء الموضوع بشكل ودّي مع الحكومة بعدما علموا أن هؤلاء هم عائلتك..

- ماذا عن الجنين؟

ردت بهدوء تام:

- مع الأسف كانت الضربات موجهة له..

انهرت في بكائي، انهرت ولم أستطع تمالك نفسي، انهرت لأنني فقدت ابني الذي انتظرته طويلًا، كنت أرى عوضًا عن كل الأيام الصعبة التي مرّت بي..

انهرت وتذكرت كل أحداث حياتي، أنا أصغر من كل هذا، أنا أصغر من تحمّل كل الأشياء التي رأيتها..

بعد دقائق جاء شهاب.

ما إن رأته سلمى حتى وقفت وحذرته من الاقتراب..

رفع يده وقال بهدوء:

- لا تقلقي لن أُحدث أي فوضى..

خرجت سلمى بعدما أعطت له الأمان، وقف شهاب أمامي وأنا على السرير وظل يضحك بشراهة:

- لقد حذّرتك من غضبي لكنك لم تقدري تحذيراتي، الآن فقدت كل شيء، حتى ابنك.

اقترب مني ثم أمسك برقبتي بعنف وقال:

- لن أقتلك، فما أجمل أن تعيش فتاة مثلك بعارها، هذا أشد عقاب عليك من الموت، أمامك ثلاثون دقيقة من الآن وارحلي من المنزل، لا تنسي هذا منزلي.

خرج في هدوء تام وأنا منهارة، ثم قال لسلمى:

- خذي هذه العاهرة التي تشبهك، واخرجي من منزلي..

ردّت سلمى:

- ما يمنعني عن قتلك أنك أرخص من أن اقضي ليلة واحدة في السجن من أجلك، إن دخلت السجن في قتل شخص، فأظن أن من العدل أن يكون رجلًا، وهذه ليست من صفاتك أبدًا.

وبصقت في وجهه ثم جمعت ما تبقى من أغراضي وهو يجلس على الكرسي يتابعنا، ثم خرجنا..

واصلت هند وهي تبكي:

- بعد هذا اليوم تغيّرت حياتي، مات ابني، انتهت قصتي مع شهاب، وخسرت عائلتي للأبد، أنا لا أملك قيمة حقيقية للحياة، لا أعرف

لماذا نعيش، لكنني لا أريد الموت، أنا أخشى الموت يا كريم، لا أريد الموت لم أعِش حياتي كما ينبغي حتى يبتلعني الموت.

كانت الحياة قد أصبحت ظلالًا باهتة من الوجود، وأصبحت أنا مجرد شبح يسير بين الأحياء..

عندما فقدت طفلي شعرت أن روحي قد انتُزِعَت مني مع آخر نبض لقلبه، كنت أحتضن أحلامًا لم تتحقق وأغنّي أغنيات لم تُسمَع أبحث عن بقايا أمل بين أنقاض خيبة حطمتني..

لم يكن فقدانه وحده ما أطفأ نور الحياة في عيني كانت الحقيقة أشد قسوة من موت عابر، كيف يمكنني أن أعيش وأنا أعرف أن الجنين الذي نَمَت بيني وبينه علاقة لا يفهمها إلا أم وطفلها، كان موته باتفاق بين زوجي وأهلي، كان خيانتهما خنجرًا آخر في صدري، لكنه خنجر لم ينهِ معاناتي، بل زرع وجعًا يستمر في نزفه كل يوم. كنت أبحث عن تفسير لكل هذا الألم، هل كان ذنبي أنني أحببت، أنني سلمت قلبي لمن لا يعرف معنى الأمان، أم أنني كنت مجرد قطعة شطرنج يحركونها كيفما شاءوا دون أن يسألوني عما أريد؟!

تركني الجميع وحيدة أحمل عبء الذكريات التي تحرقني كل ليلة كأنها جمر يلتهمني من الداخل، أصبحت أعيش بلا غاية بلا حلم مجرد جسد يتنفس لكنه لا يشعر بالهواء يمر في رئتيه، كنت أستيقظ كل صباح وأنا أتساءل لماذا لم ينتهِ هذا كله لماذا ما زلت هنا؟! كنت أكره كل شيء من حولي الجدران التي شهدت خيبتي، الصور التي حملت لحظات مزيفة، الأثاث الذي صمت عن كل ما حدث، حتى نفسي كنت أكرهها لأنها لم تستطع الصراخ لم تستطع الهروب لم

تستطع المواجهة، كنت أعيش في فراغ قاتل فراغ لا تملؤه سوى الذكريات البشعة والندم، وفي كل ليلة كنت أجلس في زاوية غرفتي أحتضن الفراغ وأتحدث مع طفل لم يولد، أبكيه وأعتذر له لأنني لم أكن قوية بما يكفي لحمايته ولأنني وثقت في أشخاص كان يجب أن أحميه منهم، كنت أراه في أحلامي يبتسم لي كأنه يقول لي إنه سامحني لكنني لم أستطع مسامحة نفسي، كنت أبحث عن شيء يعيد لي ذاتي، شيء يمنحني مبررًا واحدًا للبقاء لكنني لم أجد، كنت أسير في هذه الحياة كأنني غريبة كأنها لم تعد تخصني وكأنني لم أعد أخصها، في النهاية قررت أن لا أبحث، أن لا أضيع وقتًا في البحث عن المعنى للحياة، بل أعيشها، وهذا سببًا كافيًا للحياة..

وأنت لماذا تعيش يا كريم؟

سألتني هند سؤال لم أسأله لنفسي طوال حياتي..

"لماذا أعيش؟"

لم أجد يومًا سؤالًا عن سبب العيش، أنا لا أعرف لماذا أعيش، صدقًا لا أملك إجابة حقيقية لهذا السؤال، لا أعرف لماذا أعيش حقًا، هل أعيش لأنني أسعى في الحياة أم لأن السعي جزء من رحلتنا في الحياة؟ لا أعرف سببًا للعيش..

نجاح؟ أظن أنني حققت كل شيء ممكن في عملي، لكنني لست سعيدًا بما حققته، لا أقصد أنني لست راضيًا عن نجاحي لكنني لم أرِد من الدنيا نجاحًا عمليًا فقط، أردت أن أفوز ببعض الأشياء الأخرى مع النجاح، لا أعرف ما الأشياء التي أردت الفوز بها لكنني في الوقت نفسه لا أعرف لماذا لم أعِش وأستمتع بـلذة النجاح الذي

أعيشه..

العلاقات الاجتماعية؟ أرى نفسي دائمًا شخص غير جدير بالحب، شخص لا يملك ميزة للفوز به، شخص في غاية السوء مع الناس، ومع ذلك فـ هذا لم أسمعه أبدًا على العكس لطالما أحبني الناس، أشادوا بي، أخبروني أني بالنسبة لهم شخص جيد، شخص يوفر لهم مساحتهم الآمنة الهادئة، شخص أمين يحبون التحدث معي ويثقون بي، يرتاحون في الكلام معي لأنني أفهمهم، لأنني أحتويهم، ومع ذلك فـأنا لا أرى نفسي بهذه الصورة المثالية، أرى نفسي شخص عادي بل أقل، لا أرى نفسي شخص مثالي بل أرى نفسي أقل.. أقل بكثير من تطلعات الجميع لكنني أجاهد، أجاهد في مساعدتهم في الخروج من أزماتهم لأنني لا أستطيع الخروج من أزماتي، أجاهد في مساعدتهم على توفير مساحة آمنة للآخرين لأنني لم أجد في حياتي معنى للأمان، أجاهد من أجل تهوين أثقالهم لأنني لم أجد من يزيل ولو بقعة آلام واحدة في جسدي، أجاهد في تعافيهم من مأساتهم لأنني لم أتعافَ من مأساتي، أطمئنهم لأنني خائف طوال الوقت، أساعدهم لأنني لم أجد من يساعدني، وأسعى لتغيير حياتهم للأفضل لأنني لم أستطع توفير هذه الحياة لـ نفسي، حتى أحلامهم البعيدة أحاول معهم أن أجعلها قريبة المنال، لأنني عشت سنوات بمرارة تحطيم الأحلام، لأنني عيشت طويلًا أحلم ولم تتحقق حتى أحلامي القريبة، لأنني عانيت، عانيت، أنا أعرف المعاناة، أعيشها، أتخيلها، أسمع صوت قلب شخص يشعر بالخذلان من العالم، من الخيبة في كل شيء، من الآلام والفقدان والحسرة والندم وجلد الذات، من سهر الليالي تحت تأثير الاكتئاب والاشتياق، وسؤال "كل

دا كان ليه؟"

أنا منهم، أنا أصلحهم من دنيا أفسدتني، أحميهم من شرور دنياهم..

نادتني هند:

- دكتور كريم هل كان سؤالي صعبًا؟

قلت بعدما أدركت أن كل ما قلته كان في عقلي فقط:

- انا أعيش لأن الحياة تجبرنا على العيش والإنجازات.

سألت بخبث:

- وما أهم إنجازاتك في الحياة؟

قلت وأنا أجمع نفسي مستعدًا للرحيل:

- أنني ما زلت أعيش.

خرجت من المنزل متجهًا إلى منزلي وفور وصولي غدوت في نومي، وفي الصباح انطلقت بسيارتي إلى المستشفى..

حين وصلت إلى المستشفى، كان لقائي بـ محمد إسماعيل في غرفته الخاصة، دخلت الغرفة وكأنني في متحف كلاسيكي في العصر الفرنسي، هذه ليست غرفة مصحة نفسية بل قصر صغير، كل شيء مرتب ومثالي في هذه الغرفة، الإضاءة كلاسيكية، مكتبة قديمة، ومقطوعات موتسارت لا تتوقف، بحثت عنه فوجدت يجلس في الشرفة بمعطفه الكحلي الكلاسيكي، يشرب القهوة وسيجارته ويمسك كتابًا، لـ البير كامو، كان منهمكًا في القراءة، جلست أمامه لكنه لم يلاحظ وجودي، بعد دقائق طويلة نظر إليّ وقال:

- يقول البير كامو: لا يستطيع الإنسان أن يعيش دون معنى، لكنه في الوقت نفسه لا يستطيع العثور على معنى مطلق.

هززت رأسي كأنني أفهم ما يريد قوله، فواصل:

- هذه بالضبط مشكلة دميانا مع الحياة، أنها أرادت أن تعثر على معنى لكل الأشياء والفوز بها، حين التقيت بها كانت فتاة مثالية، التقينا صدفة في أحد ندواتي الأدبية، وقفت أمام الحشود لتسألني عن بعض الأمور الفلسفية المعقدة، رددث عليها بشكل دبلوماسي جدًا، ليس تهربًا من إجابتها لكن لأن ثمة إجابات إن علمها البعض أدّت بهم إلى الهاوية، ليس كل ما تعلمه يمكنك أن تقوله للعامة لأن بعض الكلمات قد تصيب أحدهم وتغيّر مجرى وشكل حياته، واصلَت تحديها الكبير للمناقشة وسألتني:

- ألا ترى أن كل الفلاسفة يملكون نظرة تشاؤمية للحياة، إنهم لا يدعون لفهم الحياة بل يدعون للخضوع لها.

ابتسمث لها ثم سألتها:

- ألا ترين أن الحياة صعبة؟

قالت بحماس كبير:

- الحياة ليست بهذه الصعوبة التي تحاولون تصويرها للبعض، يمكنك أن تختار فيها ما تريد.

- إذن الآلام اختيارك؟

ضحكت وهي تمسك المايك:

- أظن ذلك.

قلت مبتسمًا لجرأتها وثقتها بنفسها:

- أتمنى ألا تختاري الألم أبدًا، طوال حياتك.

هزّت رأسها شاكرة لـ محاولاتي في مجاراتها، وفهمت أنني لا أريد الإجابة المباشرة على سؤالها، لكن هذا السؤال جعلني أفكر كثيرًا في أمر فتاة في بداية حياتها.. كيف لها أن تفكر بهذا العمق في كل الأشياء، وكيف ستقضي حياتها، وكيف لدنيا ستتعامل معها بهذا الحماس؟ مضت الندوة لكن أمر هذه الفتاة لم ينتهِ ولم يمضِ، من حين لآخر كنت أفكر فيها، لقد رأيت في عينيها حماس الدنيا، إيمانها أنها تستطيع كل الأشياء الصعبة، وأن صعوبة الدنيا لا تقوى على هزيمة شخص آمن بنفسه، كنت مثلها، أومن تمامًا أن الحياة لا تقوى على رجل آمن بنفسه، كنت مثلها أومن تمامًا أن الحياة ومهما اشتدت فلن تستطيع النيل من شخص مغامر محارب يؤمن بالفوز بها..

سألته:

- وهل هزمتك الحياة حتى تؤمن باعتقادها المختلف؟

ابتسم وقال:

- أنا مثلما قال سارتر:

إن الإنسان يهرب من أعدائه لكنه لا يستطيع الهروب من نفسه..

طوال حياتي كنت أهرب من الحقيقة، لم تهزمني الدنيا، لكنها

هزمت كبريائي أمام نفسي، لقد هزمتني الحياة ثلاث مرات..

المرة الأولى كانت من عائلتي..

ولدتُ في بيئة أنا الكبير، أنا المسؤول، أنا المتحكّم، كل القرارات المصيرية أنا المسؤول عنها، أين أبي؟

رجل سكير لا يعرف عن الدنيا إلا الحانات والعاهرات، أنا وثلاثة من إخوتي، عليّ أن أحميهم من الدنيا، أمي لن تستطع أن تنفق علينا جميعًا، لا بد أن يضحي أحد، حسنًا لا بد أن يضحي أحد من أجل عائلتنا، ومن سيضحي؟ أبي السكير! أمي قليلة الحيلة! أنا المضحي في هذه القصة، لأنني الأخ الأكبر..

حسنًا، أمامي قراران، إما أن تتوقف رحلتي التعليمية عند هذا الحلم أو محاولة الموازنة بين العمل والدراسة، ولم يكن القرار سهلًا..

عليك أن تضحي من أجل إخوتك..

طفل في الثانية عشرة عليه أن يفهم معنى التضحية، وليس من أجل نفسه بل من أجل إخوته..

"عليك أن تتنازل عن بعض أحلامك"

طفل في الثانية عشر عليه أن يتنازل عن أحلامه التي لم يبنِها من الأساس..

"عليك أن تحمي إخوتك من سمعة أبيك السيئة"

طفل في الثانية عشر عليه أن يحمي إخوته من سمعة أبيهم السيئة هو الذي لا يفهم حتى معنى السمعة..

"عليك أن تكون أمانًا وسندًا لأمك وإخوتك"

الطفل الذي ينبغي عليه أن ينال الأمان عليه أن يمنحه، هو من الأساس لا يفهم معنى الأمان..

"عليك أن تنضج وتكون حكيمًا في قراراتك"

الطفل الذي ينبغي على عائلته أن تعلّمه وتساعد في تكوين أفكاره..

فجأة عليه أن يكون هو الأكثر حكمة ونضجًا، هو الذي لم يتعلم كيف يعبر الطريق وحده..

كانت فترة في غاية الصعوبة على أن يتحملها طفل، في الشارع كنت أقف أبيع الخضروات ثم أذهب إلى مدرستي ثم أعود لمواصلة بيع الخضروات، المساعدات من الزبائن مع دخول المدارس والأعياد، أزياء مستعملة لكنها تفي بالغرض، وحين يخبرني صاحب عمل أنه لم يَعُد في حاجة إليّ، فالشارع أفضل بيئة للعمل..

قاطعته:

- ماذا تقصد؟

ضحك بسخرية:

- نعم ما خطر في بالك، من أجل مواصلة البناء لا بد أن أكون عدوانيًا مع نفسي، لتنجو السفينة وتصل إلى بر الأمان على القبطان أن يضحي حتى لو كان شحاذًا في الشوارع..

لم أخبر أمي بطبيعة عملي؛ خوفًا أن يتحطم قلبها. عرفتني مصر

الجديدة وعرفتها، حفظت أقدامي وأنا أتسوّل من أجل توفير متطلبات إخوتي، قد تبدو لك القصة غير منطقية لكن الأمر لا يتوقف عند متطلبات إخوتي، بل كان أيضًا أبي عبئًا كبير عليّ، فقد بدأ في بيع أثاث منزلنا من أجل مزاجه الخاص، كان إخوتي يسألوني عما يفعله أبي، كنت أقول لهم إنه يبيع الأثاث حتى يشتري أثاثًا جديدًا، وفجأة أصبحت مضطرًا أن أعمل ضعف ما أعمله من أجل شراء أثاث جديد لمنزلنا؛ حتى أحافظ على صورة أبي في مخيلتهم..

كنت أرى نظرات الشفقة في عين أمي، وأنا أرى أبي لا يبالي بأي شيء ناحيتنا، غارق في عالمه الموازي، لكن حتى نظرات الشفقة لم تكن كافية ليتوقف هذا الصراع أمامي، بداخلي كنت أتساءل هل حقًا أقوم بكل هذه الأشياء خوفًا على إخوتي وعائلتي من الضياع، هل حقًا أنا مسؤول أم أنا الحياة وضعتني في موضع المسؤولية وعليّ أن أكون ملتزمًا بها؟

كبرنا وكبر الأولاد وأصبحنا أكثر نضجًا، التحقت بكلية الآداب وأنا ما زالت أسعى مع عائلتي، كبر الأولاد سريعًا وأصبح أبي عليل الفراش مصاب بسرطان الكبد، كنت أذهب إلى الكلية ثم أتجه إلى أحد مصانع السيراميك، لقد حرمت نفسي من طفولتي وشبابي من أجل عائلتي لكن لا يهم، يكفي أنني أراهم في أفضل حال، خلال فترتي الأولى في الجامعة بدأت ألاحظ اقتراب إحدى الفتيات مني، كانت جميلة في غاية الجمال، مثالية، لها طلتها وجاذبيتها وحضورها الطاغي، أما أنا كنت متوترًا، بائسًا، مهزوزًا، وأحمل فوق عاتقي أثقال الدنيا، حاولت هذه الفتاة الاقتراب مني، كنت أتلعثم كلما رأيتها، كنت أتحاشى النظر لها خوفًا من أن تفضحني نظراتي

لها، كنت أراقبها من بعيد بعين المحروم، أنا الذي لا أملك من الدنيا إلا مأساتي وأحزاني، كيف حتى في مجرد حلم أن تكون هذه الجميلة بجواري! أنت لا تعرف معنى أن يدفن المرء مشاعره، يدفن أجمل ما في مشاعره ويُحرِّم على نفسه أن يأكل من ثمار الجنة؛ لأنه يعلم أن الحياة لن تسمح له بدخولها، لأن على عاتقه ما هو أشد من الجحيم..

انتهت علاقتنا قبل أن تبدأ، بعد يوم حاولت الاقتراب والتعرُّف عليّ، تحدثنا بالفعل وأصبحنا نتشارك كل شيء، كانت فترة عصيبة، أخي في الثانوية العامة يحتاج لمتطلبات كثيرة، وأبي أصيب بالسرطان، حاولَت الفتاة أن تقترب مني أكثر حتى جاء يوم ميلادي، يوم اعترفت لي بمشاعرها..

ابتسم محمد ثم قال وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- كانت في غاية الجمال، فتاة يحلم بها أي رجل في الدنيا، ملامحها لوحة مرسومة، حواجبها ثقيلة مرسومة، عيناها بنيّة وشعرها أمواج من الجمال والحب، تشبه غجريات روما..

- عام سعيد يا محمد..

قلت:

- عام سعيد لك أيضًا..

- هل يمكنك قضاء اليوم معي؟

كنت مترددًا بشأن ذلك، الحقيقة أنني رفضت

سألتني عن السبب فقلت:

- اسمعيني، أنتِ لا تعرفين عني شيئًا، لا يغرنك مظهري الخارجي أنا أحمل العالم على عاتقي..

- أنا أعلم كيف تسير في حياتك، لكنني أريد البقاء بجوارك، ليس من أجل أي شيء إلا البقاء بجوارك..

سألته:

- لماذا رفضت أن تقترب منك، كان من الممكن أن تهوّن عليك أثقالك؟

همهم بكلماته ثم قال:

- أثقال الدنيا، كلمة مرعبة..

أسمعني يا كريم..

منذ الصغر وأنا أومن أن لكل شخص معركته الخاصة في الحياة، لا يمكن أبدًا أن تكون في قلب معركتك الخاصة، ثم تستدعي شخص آخر لا ناقه له ولا جمل في هذه المعركة، وتجعله يقف بجوارك في معركة في غاية القسوة، لم أكن أنانيًا كنت واقعيًا، فتاة مثلها كان بإمكانها أن تحمل الدنيا معي وتحارب لأجلي لكنها ليست معركة، ما دامت سفينتك ليست جيدة لمواجهة الأمواج العنيفة، فلا تدعو ركابًا جدد لم يغامروا في حياتهم، فقد تكون هزيمتهم قاسية لن يتحملوها، وقد يفقدوا إيمانهم بالمحاولة مرة أخرى فـ يقضون حياتهم منكسرين..

وقتها لن يغفروا لك إيمانهم بك..

قلت:

- سيعاقبونك على إيمانهم بك!

قال:

- نعم، هي نفس النفس البشرية تلك التي ستتبرّأ من كل أفعالها، لا بد أن يلقوا شماعة على الآخرين حتى لو كانت هذه الشماعة هي إيمانهم الشخصي بك..

واصل بعدما تنهد:

- مرّت الأيام وفي السنة الثانية في الجامعة، مات أبي، حزنت عليه وظننت أن الحزن هو نهاية ما يجمعني به، لكن الأمر المجلجل لم يكن في وفاته، بل كان فيما علمنا في غيابه، لقد كان لأبي ورثة وتركة تتجاوز العشرة مليون جنيه، انتهت أيامي الصعبة، انتهت أيام التعاسة، لكن الصدمة كانت في وصية أبي، اجتمعنا في منزلنا وقرأنا توزيع الميراث..

لقد قسّم أبي تلك التركة على إخوتي الثلاثة وأمي فقط..

قرأنا الوصية أكثر من مرة، لكن هي وصيته!

صعقت من الصدمة، والأكثر إيلامًا حين رأيت إخوتي لا يبالون بأمري، كل منهم كان مشغول مع المحامي في كيفية إنهاء الأوراق..

سحبت نفسي من بينهم ووقفت في الشرفة في حالة صمت تام، سعيد جدًا بنشوتهم ونهاية أحزانهم وأيامهم الصعبة، لكنني قضيت

أيام في غاية الصعوبة وأنا أحاول السعي لكل حقوقهم..

لكن في نفسي وبعد أسابيع بدأت أشعر بالحزن الحقيقي..

لن أستطيع المقاومة، لن أستطيع تزييف الحقيقة، كنت بالفعل أنتظر منهم رد الجميل، كنت أنتظر منهم عوضًا عن كل الأيام التي ضحيت فيها من أجلهم، كنت أنتظر منهم أن يتوقف أحدهم عن الركض ولو للحظة واحدة ويسأل أين أخي الأكبر من كل هذا؟ كيف سيقضي أيامه؟ لكن كل هذا لم يحدث، انشغل كل منهم بجمع ميراثه الشخصي، طوال هذه الفترة كنت في حالة صدمة وسكون تام، حتى أمي نفسها حاولت أن تتحدث معهم، لكن الأطفال المراهقين كبروا وأصبحوا أكثر جراءة ونضجًا، يتحدثون عن حقوقهم بكل وضوح، لا يفكرون إلا في أنفسهم..

واصلت حياتي بشكل طبيعي بينما خذلان العالم، كل العالم كان في قلبي، وبعد مرور شهرين من وفاة أبي، وكأن الدنيا اتفقت أن تشعرني بالحزن والخذلان في آن واحد، فـ قد رحلت أمي، أمي التي عانت طوال حياتها لم تتحمل قسوة إخوتي علي، فقد رأت كم عانيت وكم ضحيت وكم استهلك شبابي وأيامي من أجلهم، عاشت أمي تحمل هموم وأثقال إخوتي وماتت غاضبة ليست آسفة عليهم..

خرجنا من الشرفة من ناحية المكتبة، أمسك صورة لإخوته وقال:

وتفرّقت العائلة التي ضيعت أيام طفولتي وشبابي عليها، أصبح بيتًا مهجورًا لا تسكنه إلا الذكريات والتضحيات والمواساة، وأنا بينهم أتمزق من قسوة الخذلان، لم يدق الباب، لم يرن الهاتف، وملأ العنكبوت عتبة منزلنا، حل الصمت والسكون في جدران كان

مضججة بالصراخ والضحك واللعب، ملأ الفراغ كل شيء في منزلنا وفي قلبي، وكأننا لم نمر من هنا من الأساس، وكأنني لم أمر على حياتهم من الأساس..

من بين كل الأشياء والخذلان الذي شعرت به، كان الأشد بينهم هي تلك الأخبار التي سمعتها عنهم كالغرباء..

تزوّج أحد إخوتي، لم يدعُني، علمت بخبر زواجه بالصدفة، مؤسف أليس كذلك، بينما الآخر هاجر خارج البلاد، لم يسألني حتى عن رأيه ذاك الذي كان لا يستطيع أن يعبُر الطريق وحده، هاجر مصر ولا أعلم وجهته حتى إنه لم يودّعني، أما الأخير فقد سمعث أنه أصبح أحد أهم رجال الأعمال المشهورين، اتذكر مع هذا تحديدًا اضطررت لاستعمال ملابسي القديمة وإعادة إصلاحها من أجل شراء سترة جديدة له في العيد، حتى لا يشعر أنه أقل منهم، كنت أرتدي ملابس مرقعة بالخياطة من أجل أن يبدو أنيقًا أمام أصدقائه، نسى كل هذا حتى إنني أصبحت غريبًا جدًا عنه..

وقف محمد إسماعيل أمام المرأة ثم قال:

- وانتهت القصة الأولى مع عائلتي..

خرجنا من غرفته إلى الحديقة..

واصل:

- آمنث أن الحياة لن تتوقف، لذلك كان علي المواصلة، الركض والسعي، وما الغريب؟ أنا طوال حياتي أسعى وأركض سواء كان لـ نفسي أو للمحيطين بي، أنا أركض حتى وأنا لا أعلم إلى أين سأصل،

أركض وأنا لا أفكر في الخسائر، لا أفكر في المكاسب لا أفكر في الوصول، أركض لأن الركض والسعي كُتِبَ علي، أظن أنني لو توقّفت للحظة سيدهسني قطار الدنيا، لذلك كنت أركض مثلما يركض الثيران في حلبة المصارعة، المهم أنني أركض وأسعى..

عوضتني الدنيا عن الكثير من الأشياء، نلت شهرة، نلت مجد، نلت المال، لكن في قلبي كان شيء آخر، كان طفل آخر يريد أن يحيا، طفل قررث أن أدفنه في طفولتي، لكن شبحه ظل يطاردني، يعاتبني، يلومنني، يقسو علي، ويفسد لحظات سعادتي.

تنهد محمد إسماعيل وقال بصوت هادئ:

- هل تتذكر دميانا؟

قلت:

- نعم، الفتاة التي وقفت أمامك في ندوة لتحاول استفزازك..

- حسنًا، دعنا نتجنب الحديث عني ونتحدث عنها..

دميانا، أحببث هذه الفتاة، رغم أنني لم أتحدث معها أكثر من دقائق معدودة وسط الحشود، بعد خمسة أعوام من هذا اللقاء، جمعني بها لقاء آخر، لكنها الصدفة، كنت في أحد المعارض الثقافية، حتى فوجئت بها تجلس في الساحة الخارجية للمعرض، كانت مشغولة في قراءة إحدى الروايات، حاولَت لفت انتباهي فنظرت إليها، قالت:

- دكتور محمد إسماعيل، صحيح؟

ابتسمتُ في وجهها:

- أهلًا وسهلًا!

كنت متشككًا أنها هي..

ابتسمت هي بحياء أحببته من المرة الأولى وقالت:

- سعيدة أنني التقيت بك بعد كل هذه السنوات.

تركتُ مساحة لأتأكد من ظنوني فـ قالت:

- قبل خمس سنوات كانت لديك محاضرة فلسفية، أنا الفتاة التي عارضتك وقتها وأخبرَتك أن الفلاسفة يرون الحياة سوداوية بشكل مبالغ فيه.

ابتسمتُ:

- إنها هي بالفعل.

واصلَت:

- دعني أستغل الفرصة وأعترف لك أنني طوال هذه المدة كنت أفكر في مراسلتك.

ثم نظرَت لساعتها وتنهدت ونفخت في الهواء لأشعر وكأنها كانت تحمل في صدرها بساتين من الفل والياسمين، وقالت معتذرة برقة لم أرها في حياتي:

- آسفة أضعت وقتك.

قلت وأنا أريد أن أسألها: "وماذا عن قلبي؟"

حسنًا دعني أكون صادقًا معك، هذه الفتاة كانت مختلفة جدًا بالنسبة لي، كان إصرارها في الحياة مذهل، عنيدة، ذو كبرياء كبير، وصلبة، متمردة تريد المنطقية في كل الأشياء، لم أشعر نحوها بالحب، بل شعرت للوهلة الأولى أنها بشكل ما تنتمي إليَّ، أردت أن أحميها من العالم وأنا لا أعلم عنها شيئًا من الأساس، لست عرافًا، لكنني كنت أرى أن الحياة أقسى من أن تعيشها دميانا، فتاة في إصرارها ورقتها وحماسها يصعب أن تهزمها الدنيا..

في مساء هذا اليوم أرسلَت لي وبدأنا نتحدث عن الأمور الفلسفية، لم تكن تملك وجهة نظر حادة وقوية مثلما عرفتها، بل كان رأيها مرنًا جدًا بل إن بعض أفكارها تميل للتشاؤمية، لم أتناقش معها بل كنت مستمعًا، في صباح اليوم التالي التقينا حيث الفطور..

قالت ونحن نأكل الكرواسون:

- قرأت مرة أن عامًا واحدًا كفيل أن يعجز الإنسان عشرة أعوام..

قلت مبتسمًا:

- قرأت وأومن أن موقفًا واحدًا يعجز الإنسان عشرة أعوام..

ردّت:

- نعم صحيح، أنا مثلًا كانت حياتي في غاية الهدوء، فتاة رقيقة أرق من أن تزعجها نسمات هواء طائشة، أومن بالله والفلسفة والفن والحياة والحب، لم أفكر يومًا في الزواج، لكن طلبات أهلي المتكررة جعلتني بشكل ما أخضع لهذا الضغط الكبير، رغم وظيفتي المرموقة، لكن مثل عادة شرقنا الأوسط الجميل نجاح المرأة يعني الزواج..

كل يوم كان يأتي إلينا عريس جديد، كنت أرفض لكل الأسباب المنطقية وغير المنطقية، لكنني وافقت على رجل كان بعيد كل البعد عن الموافقة..

شاب بسيط في بداية حياته يعمل في سوبر ماركت، مرتبه خلال عشرة أشهر يساوي مرتبي في شهر واحد، لكنني رأيت في هذا الشاب شيئًا مختلفًا، شيئًا جديرًا بالاحترام، كان طموحًا جدًا، حين جاء البيت رفضه أبي، لم أعترض على أبي ولم أتناقش معه، في اليوم التالي خرجت من عملي فوجدته يقف وينتظرني..

- آنسة دميانا.. آنسة دميانا.

تظاهرت بالتجاهل لكنه وقف أمامي..

- ماذا تريد؟

- اعذريني على اعتراضي لك، أريد ان أقول لك شيء ما..

أعرف أنني رُفِضت من عائلتك، أعرف أنني لا أناسب متطلباتهم وتطلعاتهم، أنا شخص طموح جدًا، أحلم بزيارة القمر وأنا لا أملك ثمن تذكرة المترو، ربما لا أملك الكثير من الأشياء المبهرة لتحقيق هذا الحلم.. لكنني أريدك من أحلامي.

جميل أن تكون حلمًا لـ شخص آخر، بعد هذه الكلمات شعرت بشيء ما تحرك تجاهه، فكرت في الأمر ثم أخبرت عائلتي بموافقتي به، قامت القيامة علي، كيف لي أن أرفض كل هؤلاء من أجل بائع في متجر، حاولت إقناعهم لكنهم صمموا على الرفض..

- وماذا فعلت؟

ضحكت:

- هل تظن أنني امرأة تخضع لأوامر من أحد خصوصًا في الأمور المصيرية؟

في البداية كان الأمر صعبًا، وقفت أمام عائلتي، تحديتهم، أنا المسالمة الهادئة، وضعت الدنيا في كف وزواجي منه في كف أخرى، اشتد الخلاف بيننا، حذروني بأنني سأخسرهم، سيغضبون عليّ، لن يأتوا الفرح، لكن لم أهتم لأنني كنت أومن إيمانًا واحدًا "هذه حياتي وأنا المسؤولة عنها"

استمر الوضع ثلاثة أشهر، أظن أنني رأيت الجحيم وقتها، لقد كانوا في غاية القسوة معي، هددوني بعدم ذهابي للعمل، حاولوا إقناعي أو فرض رأيهم عليّ بالقوة، لكن صدقني كان يدفعني شيء واحد فقط، هو إيماني التام أن هذه حياتي..

قلت:

- هل يستحق هذا الإيمان محاربة عائلتك؟

ردت:

- الإنسان دون إيمان هو إنسان أجوف، فارغ، الإيمان وحده هو من يدفعنا للقيام بكل شيء، دون إيمان لن يستطيع المرء النهوض من على سريره، إيمانك أنك شخص جيد لن يجعلك تؤذِ الآخرين، إيمانك أنك لا تستحق الفشل سيجعلك تنهض من على فراشك مهما كُنتَ متعبًا، إيمانك أنك تملك قلبًا سليمًا سيجعلك تنتقي به من الكره والغل والحقد، إيمانك أنك ستنجح في الوصول إلى وجهتك

سيجعلك تصل إليها مهما كان الطريق شاقًا مهما كانت الصعوبات، وإيمانك أنك بطل حياتك كفيل أن يزرع فيك قوة تحارب بها العالم وكل الذين يحاولون أن يجعلوا منك مفعول به، أنت الذي حتمًا يجب أن تكون الفاعل الوحيد في حياتك..

نظرت إليّ لتسألني بتحدٍ:

- ألا تتفق معي في هذا الرأي؟

قلت محاولًا عدم استدراجها في حديث آخر:

- أتفق في بعض الأشياء، الإيمان عنصر مهم جدًا يحتاجه الإنسان لتحقيق كل ما يريد، لكن الإيمان وحده لا يكفي للوصول ولتحقيق كل الأشياء.

ابتسمت بخبث وردت:

- ربما.. على أي حال في نهاية الأمر حققت ما أردت.

مسكين من لم يتذوق لذة الوصول لأهدافه، مسكين من لم يتذوق لحظة نهاية معركة صارع فيها بكل قوته وفي النهاية انتصر، مسكين من لم يعش ليلة تحقيق أحلامه والوصول إلى مراده، لم أكن أصارع بدافع الحب بل كنت أصارع بدافع إثبات أنها حياتي أنا، وأنني أستحق أن أنال ما أريده.

أما بالنسبة لـ مصطفى فقد كان شخصًا مثاليًا، لا أعرف سببًا لـ تصميمي عليه ربما السبب الوحيد هو إيمانه بي، كنت أقول له "أطمئن لن أخيب إيمانك بي" قد يبدو الأمر جنونيًا أن أكون بهذه القوة، لكنني كنت مستمتعة، متحمسة لما أقوم به..

وبدأت أيامنا الجميلة، أيام تمنيت أن تبقى للأبد، مصطفى كان رجلًا مثاليًا بالنسبة لي، تصاحبنا أكثر من مجرد خطوبة، كان بالنسبة لي صديقي الوحيد، الذي أتشارك معه كل شيء، لم أستطع تخيُّل ساعة واحدة في غيابه، أحيانًا كنت أشعر في عينيه شيئًا من الخوف، كنت ألاحظ هذا حين يقدم لي الهدايا، يبدو متوترًا، يتعرق، يسأل هل أعجبتك؟ هل هي قيّمة بالنسبة لك؟ هل حقًا كنت تريدينها؟

أسئلته كانت ستار يخبئ خلفها القلق وعدم القبول..

- مصطفى، لماذا تبدو متوترًا طوال الوقت، خصوصًا في الأمور المادية؟

كان يهرب من الإجابة على هذا السؤال بشكل متكرر، حاول التلاعب بالكلمات لكنني واجهته بشكل مباشر، فقال:

- أخشى علينا من الدنيا..

فسألته ماذا يعني فقال:

- أنا عامل بسيط أتقاضى راتبًا شهريًا تتقاضين أنتِ ربما عشرة أضعافه في شهر واحد، أخشى ألا أكون كافيًا أو أقصّر في حقوقك أو متطلباتك المعيشية، أتفهم شعورك بالحب لكنني أخشى أن تهزمني الدنيا أو أشعر أني رجل ليس جديرًا بالمسؤولية، أنا أريدك ثقي في هذا، وأحاول جاهدًا أن أوفر لك كل متطلباتك..

بعد هذا اليوم فكرت بشكل عملي أكثر من عاطفي، حسنًا مصطفى مؤهل عالٍ لم تعطِه الدنيا فرصة حقيقة مناسبة للنجاح، ربما لو

أتيحت له فرصة وبيئة مناسبة للنجاح لحقق ما لم يحققه أولئك الذين ينعمون برفاهية البيئة المؤهلة للنجاح، في فترة خطبتنا بدأتُ أنا في تجهيز عشنا الزوجي من باب المساعدة، كان يشكرني ويمتن لهذه الأفعال وكنت كلما قدمت شيئًا له حاولت أن أشكره وأخبره أن ما أقدمه له ما هو إلا رد لكم المشاعر الجميلة التي أشعر بها معه، كنت حساسة جدًا في هذه الأمور لأنني أعلم وأخشى أن تهزمه أفكاره وظنونه..

تزوجنا بعدما اكتمل العش الزوجي ودعني أقول إنني ساهمت بأكثر بكثير من المفترض أن تقوم به فتاة، لكنني كنت أشعر بالراحة..

نظرَت إليّ مرة أخرى ثم سألتني:

- ما رأيك في الزواج من امرأة قوية؟

قلت:

- الحياة شرسة، معركة طاحنة، معركة تكسر الجميع، نحتاج في حياتنا شخصًا نستند عليه، شخصًا نميل عليه حين تهزمنا الدنيا، نحتاج إلى شخص نواصل معه مشاويرنا الصعبة فلا يغادرنا أو يكون عقبة جديدة في طريقنا، يؤمن بنا حين نفقد إيماننا بأنفسنا، ويشد بنا حين نغرق في وحل اليأس، ويدفعنا إلى الأمام حين تتوقف أقدامنا عن الركض، الحياة شرسة وحروبها لا تنتهي، نحتاج إلى شخص نحتمي به ويحتمي بنا، الزواج من شخص قوي فكرة مطمئنة جدًا لأنك تعلم في نفسك أن ثمة من قد تتكأ عليه، فما بالك إن كان قويًا ويحبك، سيضع لك الدنيا بين يديك وكأنها ريشة، سيهوّن عليك أثقالك وكأنك لا تحمل ولو جناح فراشة، وستمر الأيام

الصعبة أخف من ريشة في الهواء؛ لأن ثمة من يحملها معك، يكسرها لأجلك..

ردت وهي تضحك:

- كنتُ أنا هذه الفتاة، لقد فهمتُ المشكلة التي يعاني منها، لذلك قمت بكل ما في طاقتي حتى أبني ثقته بنفسه، في الفترة الأولى كنتُ أعمل بكل طاقتي لتوفير بعض متطلبات المنزل، ثم أعرض عليه من حين لآخر أن يأتي معي لبعض الكورسات التعليمية، أحتاج لـ كورس إنجليزي، ما رأيك لو تشاركنا هذا الكورس؟ أحتاج لـ كورس اتش آر، ما رأيك لو حضرناه معًا؟ أحتاج لـ كورس يخص المحاسبة، ما رأيك لو حضرنا معًا؟ أحتاج لـ كورس يخص العلاقات العامة، كان يسألني عن مصاريف هذه الكورسات أقول إنها مِنَحًا مجانية من الشركة التي أعمل فيها، بدأ يتطور مصطفى، بدأ يكسب ثقته بنفسه مع الوقت، لكنه ظل لا يستطيع الوثوق بنفسه أمام عائلتي، لطالما علقوا على هذه النقطة، يبدو ضعيفًا جدًا أمامهم، في البداية كنت أقول إن المسألة تتعلق بـ فقدان ثقته بنفسه وشعوره أنه أقل بكثير منهم، حتى جلست مع أمي وقالت:

- أسمعيني يا حبيبتي، لم أعد أرفض مصطفى على العكس لقد أصبح الآن زوج ابنتي، لكنني أريد أن أنبهك عن شيء ما، زوجك عنده مشكلة ما، مشكلة ما أكبر من كونه يشعر أنه أقل منا، هو لا يغار يا حبيبتي، حين يمازحك ابن خالتك لا يهتم ولا يبالي، حين يتغزل فيك ابن عمتك، لا ينظر إليه حتى، هذه لا علاقة لها بالفقر أو الثراء، هذه نخوة يا ابنتي، ورجل بلا نخوة ليس رجلًا..

قلت لأمي مستهجنة:

- أنتِ تبالغين يا أمي هو يثق بي لا أكثر ولا أقل، لا يريد مضايقتي أو منعي عن العالم، يريد أن يحافظ على حريتي حتى في وجوده.

ضحكت أمي ساخرة مني:

- لا يريد مضايقتك! أن يغار عليك رجلك لا يعني أبدًا أنه يضايقك بل يحافظ عليك، اسمعيني يا ابنتي أنا لا أريد إفساد حياتك الزوجية لكنني أريدك أن تنتبهي لهذه التصرفات، لربما تجدين شيء في كلامي صحيح..

حاولت ألا أفكر في كلام أمي، حاولت أن أنكر حقيقة أنه لا يغار علي، مضت الأيام ومعها استمرت الحياة، مثل كل العلاقات الزوجية شيء من الملل بدأ يسود علاقتنا، الحقيقة أن علاقتنا نفسها لم تكن شائقة أو ممتعة بل كانت روتينية من الدرجة الأولى، كان عزائي وقتها أنني لم أستمتع بالحب قدر استمتعنا ببث الثقة في نفسه..

نظرَت مرة أخرى ثم سألتني:

- هل تؤمن بكلمات أمي؟

قلت:

- الحرية شعور جميل جدًا، تخيّل أن تكون حرًا مع شخص يكون صديقك وزوجك في آن واحد، شعور لا يوصف فهو يثق بك ثقة كاملة، لا يمنعك عن العالم لا يضع أمامك حواجز وعقبات في التعامل، ليّن في التعامل معك يُسهّل عليك مجرى الدنيا ويسعى أن يُشعرك بأن العالم كله لك..

الثقة لا تعني أن أعزلك عن العالم، بل تعني أن أتركك وسط العالم لكنني أثق أنك تحبني وستحافظ عليّ.

نظرت إليّ مبتسمة، فهمت أنني أجاوب عليها إجابة دبلوماسية، فواصلت بكل صدق وقتها:

- لكنني لا أثق في رجل لا يغار على حبيبته، كيف يتحمل أن يراها تبتسم لكلمات غيره، كيف يتحمل أن يتغزل فيها رجل آخر، كيف يسمح لرجل آخر أن ينظر إليها، هي فطرة إنسانية بحتة، الغيرة والنخوة أشياء لا تتعلم، لا يمكن لشخص أن يحاول أن يكون عليها ما دامت ليست مزروعة فيه، رجل لا يغار هو رجل مقرف حتى لو لم يكن يحب زوجته، رجل لا يغار هو رجل مقرف لا يؤتمن، رجل لا يغار هو ليس رجلًا بل يدّعي الرجولة، هو من أشباه الرجال..

واصلت دميانا وهي تضحك:

- بدأت ألاحظ تصرفاته، بالمناسبة في هذه الفترة تعيّن مديرًا للتوظيف في إحدى الشركات الكبرى، لقد صار مرتبه نفس مرتبي وربما أكثر، ودّع حياة السوبر ماركت، وودع حياة الفقر، ومعه ودع أيامه الصعبة، كان يخرج إلى العمل من السابعة صباحًا، ثم يعود في التاسعة مساءً، يعود متعبًا مرهقًا، رغم بعض الشكوك التي حاصرتني لكنني أريد الحفاظ على منزلي، بدأ الخناق الطبيعي فكلانا يعود إلى المنزل متأخرًا، كان يزعجه أنه حين يعود لا يجد المنزل مُهيئًا ومناسبًا لاستقباله، شعرت بالذنب حيال ذلك، تحدثت معه عن الحل المناسب لينتهي هذا الخلاف فـ قال:

- أظن أن عليك أن تتركي عملك، لتتفرغي لإدارة المنزل.

كان قرارًا صعبًا، عملي هو أحد أهم أحلامي، لقد سعيت بكل طاقتي للحصول على هذه الوظيفة، قضيت سنوات في الكورسات والورش التعليمية من أجل الفوز بها، هي أحد أهم وأكبر الشركات في مصر، لا يمكن بسهولة أن أتنازل عنه، لقد حاربت من أجل الحفاظ عليه، وتحديت الجميع للفوز به، لم أكن أتخيل أن تضعني الدنيا في هذا الاختبار، أن أختار ما بين عملي الذي سعيت له طويلًا وما بين زوجي الذي حاربت عائلتي لأجله..

قضيت أيامًا أفكر في الأمر، كنت أدعو الله أن يدلني على الطريق الصحيح، أن يخيّرني فـأنا لا أجيد الاختيار، هذه الفترة لن أنساها أبدًا..

بعد شهر من التفكير اخترت بيتي وزوجي، قدمت استقالتي..

فوجئت عائلتي من هذا القرار..

- أريد الحفاظ على منزلي يا أمي، هذا رجلي.

كان قرارًا مفاجئًا، رغم اعتراضها، لكنها ختمت كلماتها:

- أتمنى أن يقدّر كل هذا يا دميانا.

عدت إلى المنزل وأخبرته بقراري، توقعتُ أن يفرح لهذا القرار لكن الحقيقة، أنه كان أبرد من شهر ديسمبر، لم يبالِ وكأنه لم يضعني في هذا الاختبار من الأساس، أكتفى بـ "جيد قرار موفّق" ثم ذهب للنوم..

سألتني دميانا:

- هل تمانع لو خرجنا من هنا؟

سحبت الكرسي وقلت:

- لك ما تريدين.

خرجنا من المكان وبدأت رحلتنا في المشي، واصلت دميانا:

- أمر مرعب أن تمر بكل هذه الأحداث في وقت قصير جدًا، لكن الأسوأ لم يأتِ بعد..

زوج أخته كان رجلًا مريضًا، كلما اجتمعنا كان يختلس نظرات غير مريحة، في كل زيارة كنت أشعر بعدم راحة في وجوده، أنا امرأة أفهم وأعرف كيف ينظر إليها الرجل، تحدثت مع مصطفى عن الأمر لكنه قال "أنتِ تتوهمين" أخبرته أنني لا أتوهم وأن هذا الشخص يرمقني بنظرات قذرة، يعلق على ملابسي، يعلق على جسدي، يبالغ في حديثه عن طعامي ونظافة منزلي، هذه الأشياء مريبة، كان يؤكد أنني أتوهم، وكنت أقسم أن الأمر لم يكن كذلك، بدأت أرفض هذا اللقاء الأسبوعي، لكنه كان مصممًا على حضوري الدائم..

وذات يوم أثناء وجودنا في منزل عائلته قالت أخته:

- لماذا ترتدين هذه الألوان وتضعين المكياج كلما اجتمعت بزوجي؟

شعرت بإهانة لم أشعر بها في حياتي، حاولت ألا أنفعل عليها، كنت أعلم سوء نيتها لكنني أردت أن أعرف ما في باطنها:

- ماذا تقصدين؟

ردت:

- أنتِ تعرفين وتفهمين قصدي جيدًا.

نهضت من مكاني ثم قلت لـ مصطفى:

- أريد العودة إلى منزلنا.

رفض مصطفى الذي ظل صامتًا أمام كلمات أخته..

صمّمت على رأيي وواصل الرفض، فارتديت ملابسي وخرجت رغمًا عنه، بعد ساعة جاء مصطفى، انهال عليّ بالضرب المبرح وهو يسبني ويلعني:

- تُغازلين زوج أختي يا عاهرة يا فاجرة، تغازلين زوج أختي.

كنت في حالة صدمة، أقدّس الخصوصية، لكن كان يضربني حتى شعرت أنني على وشك الموت، استنجدت بعائلتي، جاء أخي الأكبر وشنت حرب جديدة في منزلنا، تحطم المنزل بالكامل، ثم سحبني أخي وعدنا إلى المنزل عازمين على الطلاق.

توقف إسماعيل عن الحكي وصمت طويلًا ثم تمتم لـ نفسه:

- كانت تتحدث معي عما يحدث، بينما كان قلبي مفتورًا لها، لأنها رأت جزء من الحياة الحقيقية التي راهَنَت أنها ليست بهذا السوء..

ثم واصل حديثه عن دميانا..

قالت الفتاة:

- قضيت شهرين كاملين في حالة صدمة، تخيّل أن يتّهمك بسوء..

الشخص الذي حافظت على نفسك من أجله، الشخص الذي ضحيت من أجله بكل شيء، أن يتّهمك في أعز ما تملك، أن يصدق كلمات الناس عنك، أن يشكك في زوجته..

واصَلَت وقد بدا على صوتها أنها تحاول السيطرة على بكائها:

- عائلتي كانوا عازمين على الطلاق بينما ورغم كل ما حدث يصعب عليّ كل ما قدمته له، ربما يستحق فرصة أخرى، ليس لـ شخصه إنما لكل الأشياء التي قدمتها له، ليس لـ شخصه بل لـ تضحياتي من أجله، ليس لـ شخصه بل لـ محاولاتي في إصلاحه، ليس لـ شخصه بل لـ محاولاتي في تحسين حياته، ليس لـ شخصه بل لـ الاستقرار الذي بحثت عنه طوال حياتي، ليس لـ شخصه بل لأنني لا أريد أن أكون مطلقة في بداية حياتي.

بعد شهرين اجتمع مع عائلتي، وبينما اتفقنا جميعًا على الطلاق، ووسط مجلس الكبار وفي حضور المأذون ومصطفى سألني:

- هل تريدين الطلاق مني؟

رد أخي على السؤال:

- لقد اتخذنا قرارًا منذ شهرين، فات ميعاد هذا السؤال..

لاحظ المأذون أنني مترددة، فسألني بشكل مباشر:

- هل تريدين الطلاق؟

نظرت إلى مصطفى وقد بدا في عينيه شيء من الحزن والندم، أطلت النظر.. لقد عاد مصطفى الذي أعرفه، الشاب الجميل المتوتر

الحالم، ذاك الذي بحث وحلم بالحياة معي..

همس أبي في أذني:

- لو تراجعت في قرارك فـ سنتبرأ منك.

لم أكن أسمع أو أرى إلا كلمات الحب التي كانت تجمعني بمصطفى، اللحظات الجميلة التي عشتها معه في بداية علاقتنا، سعادتنا يوم ذهبنا إلى المحاضرات معًا، سعادتنا يوم نال الشهادة، سعادتنا يوم تعيينه في الشركة، سعادتنا الكبيرة يوم اشترى سيارته الأولى، وعوده بأنه لن يؤذينني أبدًا، وعوده بأننا سنعيش أيامًا حلوة، منزلنا الهادئ الجميل..

مرّت لحظات عصيبة، عصيبة جدًا على قلبي وعقلي، لم استوعب نفسي إلا أنا وأقول أمام المأذون وأمام الجميع:

- لا أريد الطلاق، أريد العودة إلى منزلي.

نهضت مسرعة وسط الجميع، كنت أركض في الشارع كـالمجاذيب، عدت إلى المنزل وارتميت على السرير، وأنا لا أشعر بشيء، إنه الانهيار فقط لا شيء أكثر من ذلك..

بعد ساعة جاء مصطفى، تخيّل هذه المرة الأولى التي يعانقني فيها بهذا الحب والدفء..

- أنا آسف، أنا آسف على كل شيء يا دميانا، أعدك، سأعوّضك عن كل الأيام العصبة التي عشيتها معي، أعدك لن أخيب ظنك أبدًا.

قلت منكسرة:

- لقد تبرّأوا مني، لقد سمحت بهذا لأجلك.

شدني على جسده أكثر ثم قال:

- أعدك لن أخذلك أبدًا.

توقف إسماعيل عن الحكي ثم لنفسه:

- تحدثنا أطول مما ينبغي، تحدثنا أكثر مما يجب.

شعرت أنه قرّر للحظة أن يتوقف عن التحدث، فـ سألته:

- لن أضغط عليك في مواصلة القصة، لكنني أريد أن أسألك سؤالًا قد يبدو غبيًا لك، أنت تسمع كثيرًا لكن ما علاقتك بما تسمعه؟

واصلنا المشي في الحديقة..

رفع رأسه ببطء، وكأن السؤال استوقفه وسط عاصفة أفكاره، كانت عيناه غارقتين في ظلال لا تنتمي إلى المكان، بل تنبع من الداخل، من عالم حيث الأسئلة تُثقل الهواء وتجعله بالكاد قابلًا للتنفس، أشعَل سيجارته كما لو أنه يستدعي صديقًا قديمًا، نفث الدخان بهدوء، وكأنه يفرغ صدره من شيء أثقل من الهواء:

- لماذا أتأثر بأحاديث الآخرين؟ سؤال يبدو بسيطًا، لكنه يحمل في طياته تعقيدًا يصعب تفكيكه، أتأثر لأن الكلمات ليست مجرد أصوات تتناثر في الهواء، بل هي كائنات حية تخترق الصمت لتزرع نفسها في أعماقنا، الكلمات ليست اختيارية، إنها تُفرض علينا، سواء أردنا أم لا، بعض الكلمات تلتصق بنا كندبة، وبعضها يعبرنا مثل ريح باردة، لكن أحيانًا، هناك كلمات تُشعِل شيئًا في الداخل. شيئًا لم نكن نعرف

أنه موجود.

صمت قليلًا، يراقب دوائر الدخان تتلاشى في الهواء، وكأنه ينتظر أن تعود إليه الإجابة بشكل أوضح، ثم تابع بصوت بدا كأنه يحدث نفسه أكثر مما يجيب:

- أتأثر لأنني، رغم كل محاولاتي للهروب من العالم، لا أستطيع الانفصال عنه، أنا أعيش بينهم، وأدّعي أني منفصل، لكن الحقيقة.. الكلمات تخترقني، تسكن داخلي كزائر ثقيل، أحيانًا كطيف ناعم وأحيانًا كسكين جارح، لا أستطيع منعها، ولا أرغب بذلك تمامًا. نحن، جميعنا، كالصخور على شاطئ مهجور، نتآكل بالكلمات كما تفعل الأمواج بالصخور، ببطء.. دون أن نلاحظ.

هناك كلمات تخيفني، لأنها تكشفني أمام نفسي، تجعلني أرى ما حاولت طويلًا أن أخفيه، كأن الكلمات مرآة صادقة بلا رحمة، تُظهر كل التفاصيل، حتى تلك التي نكرهها، وهناك كلمات تشبه الأبواب، تدفعنا إلى عوالم لم نكن نعرف أنها موجودة، أتأثر لأنني أرى في كل كلمة احتمالًا، احتمال أن أكون شخصًا آخر، أن أختبر شعورًا لم أختبره من قبل، أو أن أعود إلى ذكرى ظننت أنها ماتت منذ زمن.

نفث نفسًا آخر من سيجارته، ثم أضاف بنبرة أكثر هدوءًا، لكنها تحمل عمقًا لا يمكن تجاهله:

- أتأثر لأن الكلمات هي الشيء الوحيد الذي يربطنا، نحن نعيش وحدنا، في فراغات معزولة، وكل محاولاتنا لفهم بعضنا البعض، لفهم أنفسنا، تبدأ بكلمة، نحن لا نختار أن نتأثر، كما أننا لا نختار أن نتنفس، التأثر بالكلمات ليس ضعفًا، بل هو دليل على أننا أحياء، على

أننا قادرون على الشعور..

وفي النهاية، أليس الشعور هو ما يجعل لحياتنا معنى؟

ترك السيجارة تشتعل بين أصابعه، بينما ظل يحدق في الأفق، كأنه يراقب الكلمات وهي تعبره، أو ربما تختفي في الأفق كما تختفي آثار الأقدام على الرمال.

- لـ نواصل غدًا يا كريم، رحل في هدوء تام تاركًا ورائي عشرات الأسئلة، أهمها سؤال بدأ يعلو صوته، لماذا طلبَت مني ميرال المتابعة مع هذا الشخص تحديدًا؟!

سألتها عبر الماسينجر فـ قالت:

- أنت لا تعرف الحقيقة كاملة، هذا الشخص بشكل أو بآخر كان من الممكن أن يمنع كل الضرر الذي أصابني..

- كيف؟

ردت:

- ستعرف مع الوقت مع أقصده..

- تحدث معك عن من؟

أخبرتها:

- عن فتاة تدعي دميانا.

انتهت المحادثة وفور الانتهاء، تحدثت معي مرة أخرى لكن هذه المرة لم نتحدث عن محمد إسماعيل، أرسلت إليّ صورنا معًا في

أيام طفولتنا وشبابنا، حدثتني عن الذكريات التي جمعتنا، جذبتني ناحيتها كالعادة ثم قالت:

- طوال هذه السنوات لم يخطر على بالي أبدًا أن أحذف هذه الجوابات والصور التي تجمعني بك، طوال هذه السنوات احتفظت بها لنفسي، نحن متشابهان جدًا يا كريم، أنت كنت أسيرًا حزنك الكبير علي، وأنا كنت أسيرة ذكرياتنا وتفاصيلنا، في كل موقف صعب يمر علي كنت أقول "ليتك هنا" في كل مرة أشعر فيها بالحزن أتخيل كيف تواسيني، في كل لحظة أشعر فيها بالضيق كنت أتخيل عيناك براحي من ضيق الدنيا، كنت وحيدة وضعيفة في غيابك يا كريم، ضعيفة ووحيدة لأن الدنيا معي لكنك لست معي.. كنت أنتظرك.

كعادتها تستطيع ميرال أن تعود بي إلى نقطة الصفر، وكأنني لم أحاول تجاوز علاقتنا منذ زمن بعيد..

ظللنا نتحدث قرابة ثلاث ساعات حتى غلبني اليوم، في صباح اليوم التالي فوجئت برسالة تحويل منهم بقيمة ثلاثة آلاف دولار.

هذه قيمة جلستين قضيتهم مع محمد إسماعيل، أخبرتك أنني جئت بالخير لك، لـ قلبك، لـ مستواك العملي والاجتماعي..

اليوم هو ثالث جلساتي مع محمد إسماعيل، لقد أرسل لي مديري الشخصي رسالة مفادها أن الفيلسوف معجب بأدائي وأنه يريد الاستمرار معي في الجلسات، كانت رسالة محفزة بالنسبة لي، اليوم هو يوم ترفيهي لبعض النزلاء، حين تخرج من العيادة سيارة خاصة لكل منهم يذهبون بها مع سائق حيثما يشاؤون، سألت مديري عن الوضع، فقال إن محمد إسماعيل ينتظرك في السيارة، ضحكت من

الرفاهية الذي يعيشها المرضى هنا فـ قال:

- حتى في الطب النفسي الأولوية في الرفاهية لمن يدفعون أكثر.

ركبت السيارة في المقعد الخلفي بينما كان ينتظرني الفيلسوف مبتسمًا:

- أحب هذا اليوم، هو الوحيد الذي يمكنني فيه العيش بحرية وأمان.

- بماذا تريد أن نبدأ اليوم، هل نواصل قصة دميانا أم أحكي لك قصة جديدة؟

قلت:

- دعنا ننهي قصة دميانا..

فقال:

- اتفقنا لكنني عكسك تمامًا لا أنهي القصة قبل البدء في قصة جديدة.

- لماذا؟

رد علي بعدما انطلقت السيارة:

- لأن ثمة قصص تستحق أن تعود إليها، النهاية المنطقية تعني ألا يوجد فرصة أخرى للعودة، لا يوجد أمل أبدًا في أحيائها من جديد لأنها انتهت بالفعل، الموت هو النهاية المنطقية الوحيدة في الحياة لذلك ليس علينا أن نقتل بأنفسنا قصصًا من الممكن أن تحيا مرة أخرى..

ثم دندن "بلاش تبوسني في عينيا دي البوسة في العين تفرق، يمكن في يوم ترجع ليا والقلب حلمه يتحقق، خلي الوداع من غير قبل علشان يكون عندي أمل، خلي الوداع من غير قبل علشان يكون عندي أمل وبلاش تبوسني في عينيا"..

عاد لـ حديثه عن دميانا، وقال:

- تأكدت دميانا أنها خسرت كل شيء ولم يتبقى لها إلا مصطفى، مسكينة يا دميانا، قالت وقتها:

- بعد هذا اليوم أيقنت أنه ليس بمقدوري إلا العيش مع مصطفى فلقد خسرت كل شيء، مر أسبوع، أسبوعان، شهر، شهرين، بدأ نجاح مصطفى يكون ملحوظًا أكثر مما سبق، وعادت ريمة لعاداتها القديمة، التطور الذي حدث له كان مبهرًا والانحدار الذي حدث لحياتي كان مرعبًا، يومًا بعد يوم بدأت أفقد الثقة بـ نفسي، يومًا بعد يوم بدأت أفقد إيماني بتحقيق أي شيء..

الوضع سيئ وبائس؟ لكنه مستقر وهذا يكفي، أحيانًا ما دام الوضع سيئًا وتعيسًا لكنه مستقر فـ هذا يكفي..

ظل الوضع بهذا السوء حتى فوجئت ذات يوم بتكريم مصطفى، قرأت الأمر بالصدفة عبر منصات التواصل الاجتماعي..

في تلك الليلة كنت أجلس أمام المرآة في غرفة نومنا أنظر إلى الفستان الذي اخترته بعناية، كان الفستان يحمل ذكريات عزيزة على قلبي، فقد ارتديته في ذكرى زواجنا الأولى، حين كنا ما زلنا نعيش تلك اللحظات البسيطة التي تحمل الكثير من الحب، قررت أن

أرتديه الليلة، لأنني أردت أن أبدو في أجمل صورة، أردت أن أكون بجانبه كما كنت دائمًا، كنت أعلم أن اليوم ليس يومًا عاديًا توقعت أن يخبرني، أن يطلب مني أن أكون بجواره في تلك اللحظة المهمة، لكنه لم يفعل..

سألته في الصباح بصوت حاولت أن أجعله عاديًا هل لديك أي أخبار جديدة اليوم هل هناك ما تريد أن تخبرني به نظر إليّ بابتسامة باردة، تلك الابتسامة التي أصبحت تزعجني مؤخرًا، وقال لا ليس هناك شيء مجرد يوم عادي، ابتسمت وكأنني أصدق كلامه، لكن داخلي كان يخبرني بعكس ذلك، شعرت بوخز في صدري، إحساس غريب يجمع بين الشك والخوف، لماذا لم يخبرني هل نسي أهميتي في حياته أم أنه لم يعد يرى وجودي ضروريًا في لحظاته الكبيرة؟

قررت أن أذهب إلى الحفل، أردت أن أفاجئه، أن أظهر له أنني دائمًا موجودة من أجله، ارتديت الفستان وأضفت لمسات بسيطة على وجهي، نظرت إلى نفسي في المرآة ورأيت امرأة مختلفة امرأة كانت تعيش على أمل أن تبقى جزءًا من حياة الرجل الذي أحبّته.

وأنا في الطريق إلى الحفل كنت غارقة في الذكريات، تذكرت أول مرة التقيت به كيف كان طموحه يلمع في عينيه وكيف كان يحدثني عن أحلامه الكبيرة، تذكرت الليالي التي قضيناها معًا نعمل ونتحدث ونخطط للمستقبل. كان يقول لي دائمًا "أنتِ قوتي، أنتِ من يجعلني أستمر".

تذكرت اللحظات الصعبة التي مرّت علينا كيف كنت أدعمه وأقف

بجانبه في كل خطوة كيف كنت أعد له القهوة وأجلس بجانبه أساعده في إنهاء أعماله وكيف كنت أواسيه حين يشعر بالإحباط

حين وصلت إلى قاعة الحفل شعرت بالإثارة تغمرني. كانت الأضواء تلمع في كل مكان، والموسيقى تعزف بنعومة، والضحكات تتردد في الأرجاء. شعرت بالفخر لأنني جزء من قصة نجاحه، لأنني كنت معه في كل خطوة حتى وصل إلى هذه اللحظة.

دخلت بهدوء، وبدأت أبحث عنه بعيني. رأيته أخيرًا يقف على المنصة يتحدث بثقة ويبتسم للحضور. كان يبدو مميزًا كما عهدته دائمًا، شعرت بسعادة غامرة، هذا هو مصطفى، الرجل الذي أحببته، الرجل الذي كافحنا معًا للوصول إلى هذه اللحظة.

لكن سعادتي لم تدم طويلًا، لاحظت وجود فتاة بجانبه، فتاة شابة، جميلة وأنيقة، كانت تضحك معه وتنظر إليه بطريقة أعرفها جيدًا، تلك النظرة التي كنت أمنحه إياها يومًا..

رأيته يميل نحوها ويهمس لها بشيء جعلها تضحك بخفة، شعرت وكأن العالم توقف من حولي، كل شيء أصبح ضبابيًا، الأصوات تلاشت، والأضواء التي كانت مبهرة قبل لحظات أصبحت باهتة

وقفت هناك عاجزة عن الحركة، شعرت وكأن الأرض تسحبني للأسفل، كأنني أغرق في بحر من الألم والخذلان، تذكرت كل اللحظات التي كنت فيها بجانبه، كل التضحيات التي قدمتها، كل الليالي التي سهرت فيها لأسانده، لم أقترب منه، لم أواجهه، فقط وقفت هناك، أشاهد المشهد وكأنني لست جزءًا منه، ثم استدرت وغادرت القاعة.

في الطريق إلى المنزل شعرت بالفراغ يملأ داخلي، كنت غاضبة، كنت محطمة، لكن أكثر ما شعرت به كان الوحدة، تلك الوحدة القاسية التي تأتيك حين تدرك أن من كنت تظنه وطنك قد أصبح غريبًا عنك.

عدت إلى المنزل وجلست في الصالة في نفس المكان الذي كنت أجلس فيه دائمًا وأنا أنتظره. لكن هذه المرة لم أكن أنتظر. كنت فقط أحاول أن أفهم كيف تحول كل هذا الحب إلى غبار، كيف أصبحت مجرد تفصيلة هامشية في حياته.

في تلك الليلة شعرتُ بأن آخر ما تبقى مني قد تحطم تمامًا، شيء كنت أظنه قويًا بما يكفي ليصمد، لكنه لم يعد موجودًا، لم أعد أنا، ولم يعد هو ذلك الرجل الذي أحببته يومًا.

عاد من الحفل منتشيًا بسعادته..

- هل كنتَ عريسًا اليوم؟

سألته.

قال ضاحكًا:

- أتمنى.

هنا ثُرت غاضبة:

-من التي كانت بجوارك اليوم في الحفل، ولماذا لم تخبرني حتى أحضر معك؟

متظاهرًا الغباء سأل:

- ماذا تقصدين؟

قلت وأنا على وشك الانفجار:

- اليوم كان حفل تكريمك توقعت منك أن تدعوني لأكون بجوارك، لكنك لم تخبرني حتى عن هذا التكريم، وقررتَ أن تحضر برفقة فتاة أخرى، من هذه الفتاة؟

قال ببرود تام:

- زوجتي المستقبلية..

- زوجتك! كيف؟

قال بثبات رهيب:

- اتفقنا على الزواج منذ أشهر وأنتظر ترقية جديدة حتى أعلن زواجي منها.

- وأنا؟

قال:

- أنت؟ من أنت؟

رجل ناجح مثلي لن ترافقه إلا امرأة شابة في غاية الجمال، ناجحة في عملها، لها حياتها وعملها وأفكارها، أنتِ امرأة بلا قيمة، امرأة بلا هدف، امرأة لا تصلح إلا للمطبخ.

كلماته كانت سهامه الأخيرة في قلبي:

- أنا امرأة بلا هدف أنا امرأة لا تملك حياة! أنا التي ضحت من

أجلك بكل شيء، أنا التي بنيتك، أنا التي ضحيت بعملي، وبحياتي، بعائلتي، بكل شيء من أجلك، أنت الذي لم تكن تحلم يومًا بالتحدث معي، الآن لم أعد مناسبة لك، نسيت نفسك يا بائع الجبن!

هنا صفعني مصطفى، صفعة لم تكن على وجهي بل كانت في قلبي:

- لو كررتِ ما قلته مرة أخرى سأدفنك بالحياة.

ابتسمت دميانا ثم واصلت:

- دعك من الأمور الدرامية لقد قررتُ الطلاق بالفعل بعد هذه الليلة، عدتُ إلى عائلتي وحيدة مكسورة، انتهت العلاقة وتم الطلاق في يومين فقط، تنازلتُ عن كل شيء، تركتُ كل شيء حتى تنتهي هذه العلاقة السامة، انتهت العلاقة ومعها انتهت شخصية بداخلي لم ولن تعود أبدًا..

سألتها:

- الطلاق في هذا السن الصغيرة، قرار جريء..

ردت:

- الطلاق كان طوق النجاة الأخير..

لكن الدنيا علمتني، في هذه الاعوام تعلمت الكثير من الأشياء أهمها ألا أضحي أبدًا، ألا أراهن على أحد، ألا أسمع لـ صوت قلبي، خرجت من هذه العلاقة شخص آخر، ما زلت أتعافى منها، أتعافى من السموم التي حدثت فيها..

خرجت من هذه العلاقة مصابة بالاكتئاب، حاولت الانتحار مرات ومرات أنا التي كنت أعيش بكل بهجة وروح وكأن الحياة لا تسعني لم أعد أريد العيش فيها..

بعد الطلاق بدأت حياتي تأخذ منحنى لم أكن أتصور أنني سأصل إليه يومًا ما، كنث دائما تلك المرأة التي تواجه الحياة بثبات وثقة، كنت أستيقظ كل صباح بروح مفعمة بالطاقة أحمل أحلامي بين يدي وأمضي إلى عملي بخطوات واثقة، كنت أحب نفسي أحب وجودي أحب كل تفاصيل حياتي حتى في أصعب الأيام كنت أجد في داخلي قوة تعينني على الاستمرار، لكن بعد ذلك اليوم الذي انهار فيه كل شيء بعد أن أصبح الطلاق حقيقة، وجدت نفسي في عالم آخر عالم لم أكن مستعدة له عالم مليء بالوحدة والفراغ والأسئلة التي لا إجابة لها..

في البداية حاولث أن أبدو قوية أمام الجميع أردت أن أظهر لهم أنني ما زلت دميانا القوية التي يعرفونها، تلك التي لا تنكسر مهما كانت الصدمات لكن داخلي كان يتهاوى شيئًا فشيئا كنت أشعر كأنني أعيش في قوقعة مظلمة كلما حاولت الخروج منها عدت أعمق داخلها، لم أعد أستطيع مواجهة العالم كنت أخشى كل شيء كنت أخاف من نظرات الناس من أسئلتهم من أحاديثهم، شعرت كأنني أصبحت موضوعًا للنقاش كأن حياتي الشخصية تحولت إلى قصة يتداولها الجميع، أصبحث أجد صعوبة في النهوض من السرير كل صباح كأن ثقلًا كبيرًا يطبق على صدري كنت أشعر بالعجز وكأن كل طاقة الحياة التي كانت بداخلي قد اختفت.

ثقتي بنفسي تلاشت تمامًا، لم أعد أرى في المرآة تلك المرأة التي كنت أفخر بها لم أعد أرى إلا ظلًا باهتًا لشخص كان موجودًا يومًا ما، أصبحت أكره نفسي أكره ضعفي أكره أنني سمحت لنفسي بالوصول إلى هذا الحال، أصبحت عاجزة عن اتخاذ أي قرار حتى أبسط الأمور اليومية كانت تبدو لي كأنها تحديات مستحيلة، لم أعد أعرف كيف أدير حياتي كنت أعيش في فوضى لا تنتهي كل شيء كان ينهار من حولي دون أن أملك القدرة على إيقافه..

العلاقات مع الآخرين أصبحت عبئًا، لم أعد أستطيع التواصل مع الناس كما كنت من قبل، كنت أخشى أن يروا ضعفي أن يلمسوا الانكسار الذي بداخلي، بدأت أبتعد عن أصدقائي وعن عائلتي كنت أجد الراحة في الوحدة رغم أنها كانت تزيد من ألمي، تحولت من تلك المرأة القوية المسؤولة إلى امرأة تائهة لا تعرف من تكون ولا ماذا تريد، كنت أشعر أنني فقدت هويتي أنني لم أعد أعرف نفسي، كنت أبحث عن معنى لكل شيء لكنني لم أجد إلا الفراغ، الليل كان أسوأ أوقاتي كنت أجلس في الظلام أستعيد كل لحظة عشتها معه كل كلمة قالها كل وعد قطعه ثم أنظر إلى ما أنا فيه الآن وأسأل نفسي.. كيف حدث كل هذا كيف انتهى الأمر بي هنا؟ كنت ألوم نفسي على كل شيء كنت أعتقد أنني السبب، أنني لم أكن كافية له، أنني فشلت في الحفاظ على زواجنا..

كنت أعيش في دوامة من الأفكار السوداء التي لا تنتهي لم أعد أرى في المستقبل أي أمل كنت أشعر أن حياتي قد توقفت عند تلك اللحظة التي خرج فيها من حياتي وأنني لم أعد أملك القدرة على المضي قدمًا، أصبحت أرى العالم بعين مختلفة كل شيء

كان يبدو لي مظلمًا باردًا، فقدت شغفي بكل شيء لم تعد هناك أي رغبة تدفعني للاستمرار، كنت أشعر أن الحياة قد سرقت مني أنني أصبحت مجرد جسد بلا روح، لكن ما كان يؤلمني أكثر من كل شيء هو الشعور بالخذلان، أنني أعطيت كل شيء لهذا الرجل أنني كنت معه في كل لحظة انهار فيها وأعدته للوقوف على قدميه، أنني كنت مصدر قوته ثم حين احتجته تخلى عني كأنني لم أكن يومًا في حياته..

هذا الشعور كان يلتهمني من الداخل كان يحول كل لحظة أعيشها إلى عذاب كنت أعيش في دوامة لا أستطيع الخروج منها لم أكن أدري كيف أعود إلى الحياة، كيف أعود إلى نفسي، كيف أجد تلك المرأة التي كنت أفتخر بها يومًا، كنت أعلم أنني بحاجة إلى تغيير أنني بحاجة إلى الخروج من هذا الجحيم الذي أعيش فيه، لكنني كنت عاجزة عن فعل أي شيء كل شيء كان يبدو لي مستحيلًا، كنت أشعر أنني أعيش في سجن بنيته بنفسي ولا أعرف كيف أكسره، ربما في أعماقي كنت أريد أن أجد من يمد لي يد المساعدة، لكنني لم أكن أملك الشجاعة لطلبها، كنت أخشى أن أبدو ضعيفة أن أعترف أنني لم أعد أستطيع الاستمرار بمفردي كنت أخشى أن يراني الناس كما كنت أرى نفسي مجرد ظل لشخص كان موجودا يومًا ما..

ابتسم محمد إسماعيل ثم اختتم قائلًا:

- وهذه هي قصة دميانا الفتاة التي واجهت الحياة بكل ضراوة فحطمتها الحياة بكل قسوة، ترى ما الخطأ التي ارتكبته دميانا في هذه القصة؟

حككت رأسي محاولًا إيجاد إجابة، فردّ في هدوء تام:

- أنها خاضت الكثير من التحديات وهي لا تملك دليل واحد على حقيقة تحدياتها.

رأى في عيني أنني لم أفهم ما يقصده، فواصل:

- في الحياة يخسر أولئك الذين يراهنون بكل قوتهم دون وضع أي اعتبار لمتغيرات الزمن، يضعون كل طاقتهم في ساحة المعركة ويُخيّل إليهم أن قوتهم لن تضاهيها قوة، لكن الحقيقة أن قوتك قد تكون أضعف من أضعف ورقة في البرية بالنسبة لمعركتك التي تنتظرك، لقد راهَنت دميانا أنها تستطيع الفوز بكل الأشياء التي تريدها، راهَنت على قوتها وإيمانها، لكن المراهنة دون معطيات حقيقة، دون استعدادات قوية للبدء والفوز بمعركة لن تجني منها إلا الهزيمة والخيبة، كذلك راهنت أن بإمكانها تغيير الآخرين، بإمكانها أن تصلحهم، لكن الحقيقة أن للبشر طباع مختلفة، البعض منهم من يظل ممتنًا لك طوال حياته لأنك ساعدته في هذا التغيير وأرشدته للطريق الصحيح، والآخر لن يتحمل أبدًا أن يرى نفسه في عينيك قبل التغيير، كلما تقدم خطوة ناحية الأمام، تذكّر تلك الأيام التي كنت تساعده فيها، تلك الأيام التي تحملت ضعفه وتشتته وهزائمه، تلك الأيام الصعبة التي مرّت عليه، النسخة القديمة منه، وأول ما يفعله لينتهي هذا الكابوس هو أن يقتل هذه الصورة مع صاحبها حتى لو كان صاحبها هو نفسه السبب في هذه الصورة المثالية الجميلة، طباع بشرية لم ولن تتغير، لذلك أظن أن الخطأ الاكبر في هذه العلاقة هي مراهنتها الدائمة على أشياء لم تعد بالقوة الكافية

التي تستحق المراهنة، قوتها وقدرتها وإيمانها أنها أقوى من الدنيا بينما الحقيقة أنه كان ينبغي عليها أن تكون أكثر حكمة وعقلانية، وتعد عدتها قبل أن تنطلق، والخطأ الثاني أنها راهنت أن بإمكانها إصلاح الآخرين.

صمت محمد إسماعيل وطلب من السائق أن يتوقف ثم سألني:

- لا أملك وجهة محددة اليوم، أشتاق لسهرات الشقاوة والدلع، هل تملك مكان مثل هذا؟

أرسلت لمديري عبر الواتساب رغبة محمد إسماعيل في قضاء اليوم في مكان ليس مألوفًا، رد مديري:

- أنا اثق بك.

فكرت في أي مكان نستطيع الذهاب إليه..

اليوم هو الأحد..

خطرت في بالي فكرة!

البرازيلي..

ابتسمت له ثم قلت:

- سأجعلك تقضي ثلاث ساعات لن تنساها في حياتك، طلبث من السائق أن يتجه للعنوان، وأرسلث لهند عبر الواتساب:

- لديّ ضيف هل أنتم في الشقة؟

قالت:

- نعم، نحن في انتظارك.

وصلنا للعقار، سألني محمد إسماعيل:

- هل أنت متأكد أنني لن أنسى هذا اليوم..

قلت:

- نعم لن تنساهم أبدًا.

صعدنا إلى الدور الثالث، استقبلنا البرازيلي بحفاوة..

- يا دكتور حمد لله على السلامة.

- كيف حالك يا صديقي؟

دخلنا الصالة كان الأولاد مجتمعين، نظر الجميع ناحية محمد إسماعيل الذي تعامل معهم وكأنه يعرفهم منذ سنوات..

- من هذا الرجل المريب؟

سألتني هند وهي تهمس في أذني.

- أحد أصدقائي..

- لا أفهم شيئًا مما يدور في حياتك هذه الفترة، أتمنى أن تكون الأمور بخير.

انخرط إسماعيل في حديثه مع المجموعة، رفض أن يشرب معهم لكنه كان معجبًا بالأجواء التي يعيشها، بعد ساعة جاءت سلمى كعادتها متأخرة..

ما ان رأت محمد إسماعيل حتى تلعثمت!

لم أفهم سبب هذا التلعثم، بينما لم تَظهَر أيّة علامة على الفيلسوف..

خرجت إلى الشرفة فتابعتني سلمى:

- هل تعرف هذا الرجل؟

قلت:

- نعم هو أحد أصدقائي.

- منذ متى؟

- فترة ليست بعيدة.

- وما الذي اتى به إلى هنا؟

كثرة تساؤلاتها جعلتني في حيرة من أمرها:

- هل تعرفينه؟

تلعثمت ثم قالت:

- لا، لا لكن هذا الرجل غير مريح..

- لا تقلقي هو أسلم مما تتخيلين..

خرجت للأولاد، بينما كانوا يتناقشون حول الفلسفة والسياسة والحب والجنس، هند كعادتها ترفض البدء في أيّة مناقشة، تسمع للجميع في ترقب ثم تقطع كل مناقشة يحاول أي شخص فتحها معها:

"الله المستعان، عسى أن يأت الأفضل، الله يولي من يصلح".

كلمات كفيلة أن تجعل الشخص يختصر على نفسه حتى المحاولة، بينما ظلّت سلمى تحدق في محمد الذي كان يتحدث مع الرجال بكل شغف..

"لا أحد يقول الحقيقة كاملة، كل منا له سر يحتفظ به في أعماق أعماق نفسه، يخشى أن يفضح أمره وإلا سينتهي في الحال".

كلمات قالها محمد إسماعيل فـ استدرجت الجميع للتفكير في الكلمات، نعم لا أحد يقول الحقيقة كاملة، لكل منا ذكرى، موقف، حدث، رد فعل، مشهد، يحتفظ به لـ نفسه في أعماقه..

هنا قالت هند:

- أنا أؤيد كلماتك، لكل شخص سر عاهد نفسه ألا يعرفه أحد مهما كان الثمن.

رد البرازيلي:

- ولو علم أي شخص هذا السر قد يقتله في الحال.

هنا رد إسماعيل:

- كلنا مهددون بالقتل، لكن طرق القتل تختلف حسب مفهوم الناس، شخصيًا أرى أن أسهل طرق القتل هي نهاية الحياة.

- اتفق معك دكتور إسماعيل..

الكتمان قتل، التعاسة قتل، الخيبة قتل، عدم تحقيق الأحلام قتل، والفراق قتل، والحزن قتل، نحن نتعرض للقتل كل يوم لكن لم تُكتب

شهادة وفاتنا حتى الآن..

استأذنت منهم وصعدت إلى العجوز، أطمئن عليها، رحبت بي بهدوء، ثم جلسنا نتحدث عن الحياة بشكل عام، حكيت لها عن ريحانة، توقعت أن ترحب بهذه العلاقة لكنها قالت:

- أنا لا أؤيد علاقتك بها يا كريم..

فوجئت بردها فـ سألتها عن السبب، فردت:

- لأنها لا تشبهك، أنا لا أقصد التقليل من شأنك، هي فتاة متدينة لكنها قليلة الخبرة، قد تسحبها أنت بشيطانك رغمًا عنك لأن خبرتك أكثر منها، أصلح نفسك أولًا ثم حاول العودة إليها بشكل أفضل.

- ماذا لو حاولت أن أكون نسخة أفضل معها؟

ردّت:

- أتمنى ذلك، لكنني أخشى عليها منك يا كريم، فكر يا كريم، لقد عشت ومررت بكل هذه الأشياء العظيمة، اللحظات الصعبة، المواقف والأحداث، هي لن تستوعب كل هذا، لن تتحمل كل ما مررت به، قد تحبك لكنها لن تفهمك، وأنت لا تحتاج للحب قدر حاجتك لمن يفهمك، الفرق بينهما عظيم جدًا.

لم أرد على كلام العجوز رغم منطقيته، فقالت:

- أشعر في عينيك أنك تخفي خبر ما عني، هل كل شيء على ما يرام؟

قلت:

- لا تقلقي كل شيء بخير..

استأذنت منها ثم خرجت، عدت إلى الشقة بينما كان محمد إسماعيل يجلس مع الأصدقاء..

- هيا بنا لقد تأخّرنا.

وأنا أودع الأصدقاء همست سلمى في أذني:

- احذر هذا الشخص، وجوده معك يشكل خطر حقيقي عليك.

سخرت من كلماتها، لكن رغم سخريتي إلا أن بعض المخاوف قد اجتاحتني بالفعل ناحية محمد إسماعيل.

عدنا للسيارة بعدما قضى الفيلسوف وقتًا لن ينساه أبدًا..

في الطريق سألته عن سلمى، تظاهر وكأنه لم يسمع سؤالي، كررت سؤالي له، فقال:

- ماذا لو لم أُجِب على هذا السؤال؟

- لن أضغط عليك في الإجابة، لكن شعرت أن ثمة علاقة بينكما.

فكر لـ دقائق في صمت تام ثم قال:

- حسنًا لقد قضيت وقتًا لا ينسى لا داعي لأفسد عليك رغبتك، نعم أعرفها، هي فتاة مسكينة الدنيا لم ترحمها أيضًا.

سألت:

- كيف؟

قال:

- سأحكي لك باختصار:

لقد نشأت في بيئة فقيرة جدًا، كانت أصغر إخوتها لكنها كانت الأكثر نضجًا وذكاءً بينهم، كان لها جناحان، تغرد خارج السرب، تريد حياة أفضل من الأزقّة الضيقة، رائحة الصرف الصحي، الغرفة الواحدة التي تعيش فيها، والطعام المجدد الماسخ، كانت تحلم أن تخرج من هذه الدوامة العفنة من الفقر والجوع، مرّت أيامها عادية جدًا، حتى اتُهِم أخيها بظُلم بيّن في قضية ما، كانت الوحيدة من بين إخوتها التي سعيت لإثبات الحق وأن أخاها مظلوم وبريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب، لكن الأمور لم تكن بهذه البساطة، لقد قرروا أن تُمحى أثر عائلتها، لقد أغروهم بكل شيء، دمروا الحي القديم ونقلوا كل السكان إلى حي جديد، احتفظوا بعائلتها في مكان آخر حيث يختفوا تمامًا عن الأنظار، لكنهم لم يستطيعوا إقناع الفتاة بالكف عن محاولاتها لإثبات الحقيقة..

لقد أغروها هي تحديدًا بكل شيء، لكنهم فشلوا في إقناعها.

سألته:

- لماذا حاولوا إقناعها بكل هذه الطرق الممكنة وغير الممكنة، لماذا اهتموا من الأساس؟

- لأن الطرف الثاني في القضية، عائلة كبيرة جدًا، وفي هذه الفترة كان الرأي العام، يبحث عن أي قضية جديدة تقلب الرأي العام رأسًا على عقب من أجل إظهار الفاسدين..

- غريب أن عائلة بهذا الجبروت تخشى فتاة فقيرة!

ضحك:

- ضجيج الفقراء لن يجعل الأثرياء ينامون نومة هنية..

ومع مرور الوقت ظهرت أخبار بوفاة الفتاة المرموقة التي ورّطَت الشاب الفقير في قضية لا علاقه له بها، ثم حادث أليم أصاب أختها التوأم وأباها وأمها..

قاطعته:

- وانتهت القصة عند هذا الحد؟

ضحك:

- بل بدأت، لم تقتنع سلمى بتلك الأخبار وواصلت البحث والتفتيش وراء تلك الأخبار، كنث في هذا الوقت صحفي مهتم بهذه القضية، لذلك تعرفنا في هذه الفترة وبدأنا حديث عن حقيقة الأمر، وفي ليلة الظهور الإعلامي لسلمى لتعلن عن تفاصيل القضية وإثبات أن هذه العائلة ما زالوا أحياء يرزقون، اختُطِفَت وخُدِّرَت..

ومن ثم صوِّرَت عارية بأوضاع مختلفة، انتشرت الصورة في أوساط عائلتها، استيقظت سلمى بعد يومين لترى بأم عينيها فضيحتها، ومن ثم ألقيَ القبض عليها لمدة عام بتهمة مخلة للشرف..

تبرّأت منها عائلتها، حتى أصبحت وصمة عار بينهم، بالمناسبة شُطِبث من الصحافة لسبب لا أعلمه أيضًا، لكنهم لم يكتفوا بهذا.

- ماذا فعلوا بك؟

رد وهو يبتسم:

- سأخبرك فيما بعد، المهم يا أفندي أن الفتاة خرجت بالفعل بعد قضاء عام واحد في هذه القضية، التقينا مرة واحدة بعد خروجها من السجن، بعدما اجتمعنا بأحد الأشخاص المقربين من العائلة وكانت كلماته واضحة:

- لو علم شخص ما بأي شيء ستكتبون قصة وفاتكم..

اعترضت وقتها على هذا التهديد لكنهم أثبتوا صحة كلماتهم..

- كيف؟

لم يرد محمد إسماعيل على سؤالي، دخلنا العيادة بعد يوم طويل ثم طلب مني أن يذهب إلى النوم.

- كيف أثبتوا صحة تهديداتهم؟

قال:

- اتفقنا ألا تضغط علي، سنلتقي غدًا.

ثم أغلق الباب في وجهي، كادت الأسئلة تقتل عقلي انطلقت بسيارتي وأرسلت إلى ميرال، سألتني عن تفاصيل اليوم فأخبرتها بما حدث، ردّت مندهشة:

- سلمى! لم يمر عليّ مثل هذا الاسم من قبل، هل تعرف عنوانها؟ أين تعيش؟

قلت:

- إذن أنت تعرفينها.

- أقسم لك لا أعرفها.

قلت:

- لكن قصتك تشبه نفس القصة التي أخبرني بها إسماعيل، ثم أنا لا أفهم هل تطلبين مني الانتقام من هذا الشخص لأنه يريد أن يشي بأمر عائلتك؟

- هذه القصة غير صحيحة، شيء ما فيها صحيح لكن كل التفاصيل التي تثبت إدانة عائلتي ليست صحيحة، محمد إسماعيل هو من عائلة أخرى كبيرة، ربما رأيت بنفسك كم الرفاهية التي يعيشها هذا الرجل، هذه العائلة ليس لمصلحتها أبدًا أن تعود عائلتي للعمل بشكل طبيعي، لفّقوا لهم قضية فساد، واستخدموا بعض الأشخاص لرمي البلاء علينا من أجل تدميرنا، لا أعرف مَن سلمى، لكنني أعرف أن هناك فتاة مسكينة في هذه القصة قد تعرّضت لبعض الضغوطات يا كريم، لكن الضغوطات لم تصل أبدًا لقضية ابتزاز وغيره من هذه التهم، لو كان المقصود بسلمى هي الفتاة نفسها التي أعرفها فما أعرفه جيدًا أن عائلتها الآن تعيش في مكان راقٍ، يعيشون رفاهية لا يتخيلونها ويقضون أيامًا لم يحلموا بها، لذلك أنا أستبعد أن يكون هناك ربطًا بين قصتي وقصة هذه الفتاة..

- لماذا تريدين الانتقام من هذا الرجل؟

قالت:

- أنت لا تعلم سوء هذا الرجل، على أي حال الأيام ستكشف لك كل شيء.

فوجئت برسالة من ريحانة:

- لم نتحدث منذ فترة، كيف حالك؟

تنهدت وفي رأسي كلمات العجوز:

- بخير..

كنت مرهقًا جدًا، لكنني شعرت برغبة ملحة في رؤيتها، اتفقنا أن نلتقي في صباح اليوم التالي قبل أن اتّجه إلى العيادة، ثم أخذت المنومات لينتهي هذا اليوم الممتلئ بالتساؤلات..

في الصباح اتفقنا أن نلتقي في سلينترو في الدقي، مكانها المفضل، ما إن رأيتها حتى خفق قلبي..

جلست أمامها، ثم شردت في الفراغ..

- تحب التأمل، صحيح؟

فقلت كما سمعت:

- التأمل عبادة.

- الصلاة عبادة، نحن نصلي لنشكر الله على كل النعم، الله يكمن في التفاصيل الجميلة، سماع أذان الفجر وقلبك محطم نوع من أنواع العبادة لأنه يُحيي بداخلك شعور الأمل، الزكاة عبادة لأنها تُذكّرنا بنعم ورزق الله علينا، يبحث الناس عن الله في كل التفاصيل، الله يكمن في دعوات الفقراء والمستضعفين، الله يكمن في تنهيدات الأمل والحزن، الله يكمن في لحظات تحقيق الأحلام والصبر لحظة تحطيم آمالك وطموحاتك، الله يكمن في دعوة أم لأبنائها وقت

الصلاة، الله يكمن في سعي أب لتوفير قوت يومه لأبنائه، في رعشة جندي على الحدود يحمي أرضه ويدعو الله أن يحمي عائلته، يكمن في كلمة يا رب في لحظة فقدت فيها الإيمان بكل شيء إلا هو، الله يعني الكمال، لكل شخص علامة ودليل على وجود الله بعيدًا عن كل الأدلّة والكتب والأحاديث، يحتاج المرء لـ شيء آخر يختصه الله دون الجميع عن الناس.

كعادتها لم تفهم وكعادتي لم أحاول شرح ما أقصده، حاوَلَت بشكل أو بآخر فهم ما يدور في بالي، توقَّعَت أن يكون اليوم مثاليًا، لكنها لم تكن تعلم أنه اليوم الأخير في علاقتنا، حيث قلت:

- اسمعيني يا ريحانة، أنا رجل لم يستهوِ يومًا الزواج، فقدتُ إيماني بالحب والهدوء والسعادة لسنوات وسنوات، قررتُ في نفسي ألا أحلم بأي امرأة مهما كانت المغريات، حتى التقيت بك يا ريحانة، لقد كنتِ امرأةً فوضوية بعثرت كل الثوابت بداخلي، معك ظهر شخص ظننتُ أنه مات بداخلي، معك أحببتُ الحياة ومعك اقترب حلم الحياة في هدوء، هذا الهدوء الذي ظننتُ أنني لم أنعم به طوال حياتي، حين تعرَّفتُ عليك علمت أن بإمكاني أن أحيا مجددًا أنا الذي لم أومن يومًا بالحياة، لكن ليس كل الأحلام خُلقَت لتتحقق، بل إن بعضها خُلِق ليخبرنا أنها لم تتحقق، لقد فكرت كثيرًا وكنت أنوي القدوم نحوك بكل قوتي من أجل الفوز بك، أردت هذا لأنني أحببتك، أحببتك وتخيلتك قبل أن أراكِ، ربما ما أقوله جنونيًا لكنني أحببتك قبل أن اراك، كنت أعيش حلمًا في أيامنا المعدودة، حلم تمنيت ألا ينتهي أبدًا، حلم أردت أن يكتمل ويغلق علينا باب عشنا الزوجي، في وجودك لم أفكر كيف كانت حياتي القديمة قبل أن ألتقي بك، أظن

أنني نسيت كل الحسناوات اللاتي عرفتهن، وكأنني لم أعِش يومًا قبل لقائي بك...

قاطعني في الخلفية صوت مسار إجباري وهاني الدقاق وهو يدندن:

"وأنا لسه فاكر كل شيء كأنه كان اليوم، شوفتك نسيت أنا كنت مين قبل انهارده بيوم، قلبي اللي كان مقفول على الجرح القديم إياه نظرة عينيكي كسرت كل البيبان جواه، الشارع اللي فيه اتولدت أحلامي من تاني، كان نفسي أقابل كل شيء فاتني وعداني، أشكر جروح من غيرها ما كنت زمان في مكاني، عجبي على نهاية الطريق يبدأ طريق تاني"..

ابتسمَت ودمعَت، واصلت كلماتي لها:

- أردث أن أحلم معك حسبما تحلمين معي، وأحد أصعب الأشياء التي تحدث أن تستيقظ قبل أن تعيش لذة الوصول لأحلامك..

رفعت حاجبها:

- لم أفهم!

قلت وقلبي يصرخ مما أنوي البوح عنه:

- فكرث كثيرًا في علاقتنا، فكرت كثيرًا فيك، أملت وتأملت وجلست طويلًا أحاول أن أجد طريقة مناسبة للزواج منك، لكنني لا أشبهك، سأكون الشيطان الذي يفسد إيمانك، لا تستحقين أبدًا الحياة مع رجل في صدره آثار لكل امرأة عرفها، أنتِ التي لم يمسك رجلًا في حياتك، لا تستحقين أبدًا الحياة مع رجل ارتكب كل حماقات في

الدنيا، أنتِ التي تشعرين بالذنب حين تفوت عليك صلاة العصر، لا تستحقين أبدًا رجل صال وجال في كل مكان، بينما أنتِ لا تعرفين عن الدنيا إلا مكان عملك ومنزلك، لا تستحقين أبدًا الحياة مع رجل معتق بكل هذه الذكريات والتفاصيل الحزينة البائسة، أنتِ التي لا تملكين من الدنيا إلا ذكريات طفولتك..

انا رجل لن تتحملي أبدًا البقاء معه حتى لو كان بدافع الحب، سثعانين حتى لو حاولتِ أن تحتويني، لن تنجحي لأن عقلي ممتلئ بالسموم، لأن قلبك أنقى من أن يلوّث بشخص مثلي، بشخص قلبه لا يعرف إلا السموم والخيبات.

قالت متحدية:

- سأحاول معك حين يصبح كل شيء بخير.

- لن تنجحي في محاولاتك، وإن نجحت فلن تنجح محاولاتك أمام عائلتك، عائلتك لن يسمحوا لك أن تقضي حياتك معي..

تنهّدَت:

- سأحارب عائلتي، سأحارب العالم لأجلك..

- لا أحد يستحق أن تحاربي عائلتك من أجله، أنتِ تعيشين في عالم هادئ، بيت مستقر وعائلة مترابطة، لن أسمح لك أبدًا أن يُهَد استقرار هذا البيت..

ردت:

- سيتعرفون عليك وسيحبونك مثلما أحببتك.

- لن يتقبلوني بينهم مهما حاولتِ.

قالت وقد بدأت الدموع تداعب عيناها والحزن يغلب على صوتها:

- سأفعل كل شيء من أجل إقناعهم.

- مجرد المحاولة ستكون بالنسبة لهم خروج عن الطاعة يا ريحانة، ستكونين منبوذة بينهم، أنتِ التي جئت إلينا بشاب غريب عنا، لا يشبهنا، لا نعرفه..

ردّت:

- أنت تشبههم وأكثر، كل ما في الأمر أنك قضيت حياتك بشكل مختلف؛ لأنك لم تعِش الظروف التي تساعدك على ظهور أجمل ما فيك، لقد أفنى الاكتئاب شبابك، لكنني أراك بقلبي وأعرف أنك لست بهذه الصورة التي قد يراها الناس عنك.

ضحكتُ ثم قبّلتُ يدها:

- لن أسمح لك أن تخوضي حربًا مع عائلتك من أجلي، كوني بخير.

قبّلتُ يدها ثم تركتها وفي قلبي صراخ لم أسمعه من قبل، كنت أريد أن أقول لها هيا بنا لنحارب القبيلة معًا، هيا بنا لنواصل صراعنا حتى ينتهي بزواجنا، هيا بنا لنصارع من أجل أحلامنا، من أجل كل الأشياء التي نريد تحقيقها معًا، كنت أريد أن أقول لها إنني كنتُ مستعدًا للحرب معك لسنوات وسنوات، كنت أريد أن أقول لها إنني مستعدًا للتضحية بما تبقى من عمري في سبيل أن أنتظرك، كنت أريد أن أقول لها إنني لم أتمنى في حياتي شيئًا مثلما تمنيتك، ولم أرِد من دنياي شيء مثلما أردتك.

وداع وقلبي يريد البقاء، وداع وقلبي يريد الحياة معها، وداع وقلبي يريد معانقتها، وداع وقلبي يريد أن يعيش عمره بجوارها، وداع وقلبي لا يريد الحياة إلا معها..

وأنت لا تفهم معنى أن تقول وداعًا لشيء لم تُرِد في حياته مثلما أردته..

خرجت من سلينترو دون أن أنظر ورائي، لم أتركها وحدها كما تظن، بل تركت على الطاولة، أحلامي، أمنياتي، حياتي، وقلبي..

تركتُ ما تبقى من روحي معها، مع ريحانة الفتاة التي مرّت سريعًا على حياتي لكنها تركت أثرًا لم ولن يُنسى طوال حياتي..

انطلقتُ بسيارتي إلى العيادة حيث لقائي مع الفيلسوف محمد إسماعيل..

دخلت الغرفة مباشرًا فوجدته يستعد للخروج، سألته:

- إلى أين؟

فقال:

- اليوم وفاة ذكرى أحد الأشخاص المؤثرين في حياتي، يمكنك مرافقتي إن أردت.

خرجنا معًا وفي الطريق كان السؤال الذي لم يغِب عن بالي أبدًا منذ الأمس..

- كيف استطاعوا إيذائك؟

قال وهو يبتسم:

- الحب هو الحدث الأجمل الذي يحدث لأي شخص، قضيت فترات طويلة في وحدة، غارقًا في مذاهب الفلسفة والتعلم، كنت شخصًا عمليًا من الدرجة الأولى، شخصًا لا يفكر إلا في نجاحه، تعويضًا عن كل الأيام الصعبة التي عِشتها، انتقامًا من ليالي الفقر والجوع والحرمان، انتقامًا من نفسي تلك التي ضاعت هباءً في سبيل إخوة لم يقدّروا حتى أبسط عطاءاتي إليهم..

وذات يوم قرّرت الجامعة أن تدعو كل الدكاترة والأستاذة لثلاثة أيام ترفيهية، قضينا هذه الرحلة القصيرة في وادي الريان بالفيوم، لم أكن مهتمًا كثيرًا بالرحلات والرفاهيات، أعرف نفسي لا أحب الزحام، أعرف نفسي لا أطيق التجمعات، وصلث إلى هناك ولم أخرج من خيمتي رغم حفلات السهر، رغم الضجيج والضحك والرقص، كنت مشغولًا بقراءة أحد الكتب لـ فرانز كافكا، كلما تعمّقث في فلسفة هذا الأديب اكتشفت أنني لم أفهم شيئًا من الدنيا وأن كل ما قرأته عن الفلسفة عن الحزن والتعاسة لم يكمل سطرًا واحدًا في عقل هذا الرجل، ظللت أدخن بشراهة حتى امتلأت الخيمة بدخان السجائر، شعرث بالضيق في صدري فتسحبث بهدوء لأترك الخيمة وأستنشق بعض الهواء النظيف، وخوفًا من أن يراني زملائي فـ يدعونني للرقص معهم، ابتعدت متجهًا إلى أحد التلال الموجودة في الصحراء، مع هاتفي الصغير كانت تقول أم كلثوم..

"طول عمري بخاف من الحب وسيرة الحب وظلم الحب لكل أصحابه، طول عمري بخاف من الحب وسيرة الحب وظلم الحب

لكل أصحابه، وأعرف حكايات مليانة آهات، وأعرف حكايات مليانة آهات ودموع، والعاشقين، دابو، دابو ما تابو، طول عمري بقول لا أنا قد الشوق وليالي الشوق، ولا قلبي قد عذابه"

ظللث أدندن مع الأغنية حتى سمعت صوت بجانبي يدندن معي..

"وقابلتك إنت لقيتك بتغير كل حياتي..

معرفش إزاي حبيتك معرفش إزاي يا حياتي"..

نظرت بجواري فـ كانت هي "سوزان" وإن دق التعبير "جميلتي سوزان".

أنا مجرد زميل بالنسبة لها، أما بالنسبة لي فهي أكبر صراع مر على حياتي، هو الصراع المنطقي ما بين العاطفة التي اجتاحتني حين رأيتها، وما بين المنطق أنني شخص لا يريد الزواج أبدًا، لطالما جمعتني مع سوزان الكثير من الألغاز، هي شخص صارم من الدرجة الأولى، شخص لا يبتسم لأحد، شخص لا يتحدث مع أحد، شخص قد لا تحبه حينما تراه للمرة الأولى، ومع ذلك ومعي كنت أشعر دائمًا أنني استثناء، تلك المتعالية المغرورة التي لا تتحدث ولا ترى أي شخص يستحق وجدير بالتحدث معها، كانت من حين لآخر تحاول فتح أحاديث معي، هي أصغر مني بخمسة أعوام، تملك شبابًا وبهجة ومرح لم أعِشه أبدًا، ترى الأمور ببساطة وهدوء، ترى أن الحياة ألطف وأتفه من تلك الجدية التي نعيشها..

سألتني:

- فيلسوف العصر لماذا لا يرقص مع الأولاد؟

فقلت:

- فيلسوف العصر لا يحب الهرج والمرج.

ردت:

- فيلسوف العصر يحتاج أن يخلع القميص قليلًا ويترك لـ نفسه حق ممارسة الأفعال الصبيانية.

ابتسمتُ ولم أرد عليها، نظرَت هي للسماء ببراءة وقالت وكأنها تتحدث إلى نفسها:

- طوال حياتي أحب النظر للسماء، أحب التأمل في النجوم، السحاب، والقمر، أشعر بشكل ما يبدو طفوليًا بالنسبة لك لكنني أشعر أنني أنتمي إلى هناك، تقول الأسطورة أن للقمر ثمانيَ نساء يعشن فيه، منهن امرأة هربت للأرض وتريد دائمًا العودة لموطنها الرئيسي..

هل تصدق هذه الاساطير؟

ابتسمتُ لها وقلت:

- ما دمتِ تصدقينها فأظن أنني أصدقها.

ضحكَت سوزان ذات الشعر البني الكثيف، والملامح البيضاء، والحواجب الرفيعة المنمقة، وشفاهها التي تشبه حبات الكريز:

- بالمناسبة أنا مثلك أعرف ما يقال عني، لكنني لا أهتم، هل تدري لماذا لا أهتم أبدًا بكل الانطباعات التي تؤخذ علي؟

قلت وأنا اضحك:

- لماذا؟

ردّت بنبرة تشعر وكأنها غاضبة:

- لقد نسيت! ألم أخبرك أنني فتاة القمر وأنني لا أنتمي إلى هنا..

ثم سريعًا غيرت مجرى الحوار وقالت:

- انظر لهذه السحابة، كأنها ترسم بيتًا صغيرًا.

نظرت لما تشير إليه وهي تواصل:

- هذه السحابة تشكّل طفلة، انظر انظر، هناك رجل وامرأة يجلسان بجوار البيت، يبدو أنهما في الحديقة.

تأمّلَت أكثر ثم قالت:

- يبدو أن هذا قط صغير، صحيح؟

ضحكت:

نعم.

- عائلة جميلة تشبه عائلتي التي أسعى لتحقيقها..

فـ سألتها:

- وكيف هي العائلة التي تريدين بناءها؟

تنهدت وكأنها استجمعت أحلامها وقالت:

- أريد منزلًا صغيرًا جدًا، منزل هادئ في شرفته بعض الزهور، قطة لطيفة، أثاث بسيط، في جزيرة معزولة، رجل يحبني من كل قلبه كما

لو لم يحب من قبل، نقضي أيامنا في هدوء وسعادة، نكتفي ببعضنا البعض عن العالم، لا نحتاج أبدًا لنصارع شيء، لا نحاول أو نسعى في شيء، أريد حياة هادئة جميلة فقط..

سألتني:

- وأنت ماذا عن البيت الذي تحلم به؟

قلت:

- لا أعرف لكنني سأستعير من بيتك شيء واحد فقط.

- القط أم الطفلة..

قلت ضاحكًا:

- الهدوء..

قالت وهي تواصل التأمل:

- أنت أسخف رجل التقيت به في حياتي.

ضحكت:

- وأنتِ أكثر امرأة حالمة رأيتها في حياتي..

بعد هذا اليوم تغيّرت الحياة معي، كانت تقتحم حياتي، تراني مشغولًا في القراءة فتقول "ما رأيك لو خرجنا اليوم لنشاهد الغروب؟"، كنت أنوي الذهاب إلى ندوة ثقافية، فتقول "ما رأيك لو ذهبنا اليوم لـ مشاهدة فيلم مارفيل في السينما؟"، كنت أقول لها مشغول في فهم لغز مهم في النفس البشرية، فـ ترسل إليّ صورتها

وتقول "سيكون هذا أكثر تعقيدًا" كنت أتحدث مع أحد أستاذتي في اجتماع مهم فـ ترسل إلي "أغلق الهاتف هناك خبر مهم"، أحاول الهروب منها لكنها تصر، فأستأذن من أستاذي وأتصل بها فـ تقول "رائع، اسمع معي الآن صوت اللحم وهو يتساقط في الزيت".. تخيل! أقطع اجتماع مهم لأسمع صوت الزيت وهو يأكل اللحم، كانت فتاة شقية يا كريم، أنا الفيلسوف البائس وهي الفتاة الشقية الجميلة..

مرت الأيام وسارت الحياة كما أردنا بل أجمل وتزوجنا وتغير مجرى حياتي بالكامل، توقفت عن الركض وبدأت أستمتع بـ كل ما حققته، لم أعد أعمل وأنهك نفسي لساعات طويلة، كان يكفي أن أعمل لساعات معدودة حتى أحصل على ما يكفيني للحياة، تغيرت أحلامي من المجد والشهرة والثراء، إلى حلم الهدوء والسكينة، لم أعد أشعر أنني متأخر عن الحياة بل كانت الحياة نفسها لا تلاحقني من شعوري بالطمأنينة والدفء الذي شعرت به، كبرنا معًا وكبرت أحلامنا..

لم أحبها أبدًا كزوج، أحببتها كطفلة مشاغبة أرادت أن تعيش حياة مع رجل عجوز.

ابتسم الفيلسوف ثم قال:

- كانت فتاتي الأولى، طفلتي، الفتاة التي تنتمي لي، كنت أدللها وهي لم تشبع دلالًا وأنا لم أملّ من أن أدللها..

سوزان لم تكن مجرد زوجة بل كانت عائلتي..

كنت أقول لها..

بالنسبة لـ عائلتك أنتِ فرد منهم، لكنكِ لست ابنتهم الوحيدة.

بالنسبة لـ أصدقائك أنتِ صديقتهم ضمن أصدقائهم، لكنك لست صديقتهم الوحيدة.

بالنسبة لـ عملك أنتِ موظفة مجتهدة وناجحة، لكنك لست الموظفة الوحيدة.

بالنسبة للعالم أنتِ إنسانة ضمن ملايين البشر..

لكن بالنسبة لي..

فـأنا لا أملك عائلة، أنتِ عائلتي..

لا أملك أصدقاء، أنتِ كل أصدقائي..

لا أملك حلمًا، أنتِ كل أحلامي..

بالنسبة للعالم أنتِ جزء منه، بالنسبة لي أنتِ العالم..

هل تفهمين ما أقصده!

مرت الأيام وأنجبنا طفلتنا "رهف"..

كانت تغار منها بطريقة صعبة وكنت أدللها، أقول لها "أنتِ ابنتي الأولى يا سوزان" كانت تضحك، كانت طفلة بجسد امرأة، ولم أرَ في حياتي امرأة مثلما رأيتها..

توقفت السيارة عند مدخل المدافن، ظل لثوانٍ ثم قال:

- ظننت أن الحياة ستسير بشكلها الطبيعي الدائم الهادئ، لكن حتى اللقاء الذي جمعني بـ الرجل المقرب من عائلة الفتاة، أظن أنه هددني

وقتها بشكل مباشر، لكنني لم أفهم تهديداته، واصلت عنادي الكبير في الكشف عن حقيقة اختفاء هذه العائلة، حتى جاء اليوم الموعود، اتفقت مع سلمى على أن نلتقي لنحدد ميعاد حيث تظهر في الإعلام وتقول الحقيقة مرة أخرى، وقتها قالت سوزان:

- محمد أنا أخشى من مواصلة هذا الطريق.

- الحق حق يا سوزان..

ردت:

- لكن هذه العائلة لا تخشى الله، أرجوك فكر في الأمر، لن يصدقكما أحد.

قبلتُ يدها ثم قلت:

- لا تخافي، لن أسمح لأي شخص أن يؤذيكِ.

ردّت:

- أنا لا أخشى أن أتأذى، أخشى عليك أنت من الأذى، محمد أنت عالمي، رجلي، زوجي الوحيد..

قبلت رأسها:

- أنا أحبك..

عانقتني بحرارة ثم قبلتني من جبيني:

- محمد أرجوك اعتني بنفسك، أرجوك.

انطلقتُ بسيارتي لمدينة الإنتاج الإعلامي كنا قد اتفقنا مسبقًا

مع أحد البرامج المشهورة بما سيحدث في الحلقة، بدأت القناة في بث إعلانات عن حلقة مصيرية في برنامج "ما وراء الحادث"، كان المهتمين بالقضايا العامة ينتظرون الضيف وما سيكشفه في هذه الحلقة، وصلنا إلى مدينة الإنتاج الإعلامي التقيت بـ سلمى التي تنكرت في زي منتقبة، وقبل أن تخطو أقدامي الاستوديو اتصل بي رقم غريب، رددت على الفور:

- سيكون هذا مناسبًا للاستماع قبل بدء الحلقة.

وفجأة سمعت صراخ سوزان ورهف، تلصّمت في مكاني، لم أكن أعرف ماذا أفعل، اتصلت بسوزان، الهاتف مغلق!

- سلمى لقد أُصيبت عائلتي بمكروه!

ركبت السيارة لا أعرف كيف وصلت مدينة نصر في أقل من ربع ساعة، وما إن وصلت حتى فوجئت بتجمُّع عظيم!

ماذا حدث؟ الناس في حالة هياج وفوضى، ثلاث سيارات إسعاف ومطافئ وحواجز حول العقار، لقد انفجرت مواسير الغاز الخاصة بالعمارة في إحدى الشقق السكانية حتى التهمت النيران العمارة كلها، سوزان! رهف!

سوزان! رهف!

حاولت الصعود منعني رجال الأمن.

كانت النيران تلتهم العقار بأكمله.

ليس حريقًا بل بركان ضرب العمارة.

ثلاث ساعات كاملة يحاولون إخماد النيران، ثلاث ساعات من الصراخ والعويل!

خرج إسماعيل من السيارة ودخلنا المدافن، كان يبكي في صمت تام، ثم توقف أمام أحد المدافن:

- لم أستطع إنقاذها، لم أستطع إنقاذها، عانقتها وهي جثة مفحمة تحتضن ابنتنا الرضيعة..

عانقتها وهي جثة مفحمة، سوزان أرجوكِ! أنا لا أملك في الدنيا إلا أنتِ!

سوزان أرجوكِ أنا لا أملك في الدنيا إلا أنتِ!

كنت أصرخ صراخ العالم..

أبكي كل بكاء العالم.. سوزان يا حبيبتي يا صديقتي.. محبوبتي وفتاتي وزوجتي وابنتي..

سوزان يا كل حياتي!

تحرك إسماعيل ناحية القبر ثم ظل يلمس القبر بيديه..

سوزان لقد جئتكِ كما جرت العادة، نفذتُ وعدي بأن لا أتركك أبدًا، بينما لم تنفذي أنتِ وعدك بأن لا تتركيني أبدًا.

اجتاحت إسماعيل نوبة بكاء في غاية القسوة!

يقولون إنني فقدت عقلي يا سوزان..

الآن وضِعتُ في مستشفى للصحة العقلية!

هم على حق يا فتاتي الجميلة لكنني لم أفقد عقلي فقط، فقدت عقلي وروحي وقلبي معك، ما زلت أراكِ حولي يا فتاتي، ما زلت أسمع صوتك، ألمس وجهك الذي أحببته دائمًا وأتأمل فيك، ما زلت أراكِ وأتخيلك بجواري، يقولون إنني أتوهم وجودك وأقول إنكِ دائمًا معي، في كلماتي، في روحي، في نفسي، أنتِ هنا دائمًا ثابتة في قلبي يا حبيبتي..

بدأ إسماعيل في حالة ضحك هيستري

ثم نظر إليّ وفي عينيه نظرات غضب:

- أنت من أخبرتهم بخطتي!

نظرت خلفي فلم أجد إلا السراب.

اقترب مني أكثر وأخرج مسدسًا من جيبه:

سأقتلك!

ركضت للخارج بسرعة جنونية..

ظل يتبعني وهو يتوعدني بـالموت..

ركبت السيارة وأخبرت السائق بما يحدث..

أعطاني مسدس طبي:

- أضربه في رقبته بهذه الحقنة..

استدرت وراء السيارة حتى أستطيع الالتفاف حوله..

ثم غرزت الحقنة في رقبته، لحظة واحدة وفقد الوعي تمامًا،

ومعها عاد قلبي من جديد..

كنت في حالة صدمة، الآن فهمت تحذيرات مديري الشخصي من محمد إسماعيل، فهمث لماذا قالت سلمى إن وجوده بجوارك سيشكل خطر عليك، وفهمت لماذا تريد ميرال قتل هذا الرجل تحديدًا؟ لأن سلمى استسلمت أما هو فما زال يعرف الحقيقة والسر وقادر على الإفشاء به في أيّة لحظة.

عدنا إلى المستشفى ومعها عدت إلى نقطة الصفر، اتجهت للحانة وكانت هذه المرة ومنذ زمن بعيد التي أشرب فيها كل هذه الكمية، أخبرث ميرال بكل ما حدث، فقالت:

- حسنًا، غدًا اليوم الأخير في هذه القصة.. انتظر ما سأطلبه منك.

أغلقت الهاتف وواصلت الشرب حتى الثمالة.

الفصل الأخير
حكمة الأيام

ماجد عبد المنصف

اليوم اتفقت معي ندى على حضور حفل لـ كايروكي في التجمع الخامس لم أسمع عن هذه الفرقة من قبل أرسلث لأسيل لأخبرها بـ طلب ندى فـ ردت رد لم أفهمه:

- استمتع قدر المستطاع بهذه اللحظات فهي لن تعوّض أبدًا.

انطلقنا وسط الحشود هذه المرة الأولى التي أذهب فيها لـ مثل هذه الحفلات كانت الأجواء مبهجة لكن في رأسي لا تفارقني جملة أسيل "استمتع بهذه اللحظات فهي لن تعوض ولن تتكرر أبدًا"

كانت ندى ترقص كما لو أنها تعانق الحياة، واصلنا الرقص كالمجانين في ساحة الحفل..

"ساموراي رحال وقالولي محال دي الدنيا في حال وحبيبتي في حال عندها جناحات أمسكها تطير غاوية الترحال وأنا نفسي طويل جمالها رهيب ولما تغيب تسونامي رعد وبرق جو بيبقى غريب بس أنا مش خايف أنا ساموراي بدل السيف أنا بعزف ناي راكب أوبر من طوكيو جاي ترفضني إزاي وأنا الساموراي".

كانت الأرض لا تتسع أجنحتنا كنت أشعر أنني في الفضاء، خرجت الفرقة وتحركنا نحن لـ نشرب الريد بول، أخرجت ندى من حقيبتها كتاب يدعى نهاية الحكايات ثم قالت:

- هذا الكتاب الجديد لـ محمود طلال هل تتذكره؟

قلت:

- بالطبع.

عانقته ثم قالت وهي تحت تأثير الأدرينالين:

- ذات يوم طلبت منه أن يكتب إهداء في إحدى رواياته لكنه رفض وقال لا أكتب إهداء شخصي لأحد مهما كانت مكانته عندي، إهدائي للأشخاص يعني أن هذا آخر ما سأقدمه لهم في حياتي، وأنا لا أريد أن ينتهي عطائي لك.

ابتسمت:

- هذا الرجل يملك فلسفة لا أفهمها.

ردّت:

- لكنني أحبها على أي حال انظر لإهداء هذا الكتاب.

أمسكت الكتاب ثم بدأت في القراءة:

سيقرأ هذا الكتاب ثلاثة أشخاص..

الأول هو محب لأعمالي وهذه رسالتي لك:

أتمنى أن تظل محبًا لأعمالي، أتمنى أن تكون حياتك في المستقبل أفضل، وتحقق وتنال ما تريد من الدنيا، حتى تعيد قراءة هذا العمل وتسخر من واقعيتي أو تتهمني بنشر الكآبة والبؤس لأنك تعافيت وانتهت مأساتك مع الدنيا، أو ربما تعيد قراءته لتتذكر

الأيام الخوالي، الأيام التي كنتَ وحيدًا جدًا فيها ولم تجد فيها إلا هذا الكتاب يرافق وحدتك وتعاستك ثم تغلقه وتقبل أحلامك التي تحققت.

الثاني هو ناقد:

أتمنى أن تجد وجبة دسمة للنقد. أحترمُ النقاد لكنني لا أحبهم، لذلك وجب التنويه أنني لن أبالي كثيرًا بمجهودك الذي أحترمه بلا شك، لكنني لا أكتب للفوز بالجوائز والتكريمات، أكتب لأقول لكل شخص وحيد: أنت لست وحدك. أكتب لاحتضن بكلماتي كل ما لم تحتضنه الدنيا.

الثالث والأخير:

هي للجميلة التي عاهدتها أن أبذل كل ما في وسعي لنبقى معًا وعاهدتني ألا تمل أبدًا، سخرَت الدنيا منا كعادتها وهزمتنا نحن اللذان تعاهدنا ألا تهزمنا أبدًا.. أكتب لكِ لأنني لا أملك إلا الكلمات أواسيكِ بها عن محاولاتك، وأنتِ لا تملكين إلا قراءة هذا الكتاب لتطمئني أنكِ ستبقين دائمًا ثابتة في قلبي.. أهدي لك كل محاولاتي كل أحلامي دعواتي وأمنياتي ورجائي في الدنيا، أهدي لك كلمات ستبقى خالدة، مستعدة دائمًا لمعانقتك ومواساتك كلما شعرتِ بالوحدة والحزن، وأهدي لـ نفسي مرارة الخيبة والحرمان والحزن، كوني بخير لعائلتك لأصدقائك لكل شخص يحبك، تحبيه ويحبك، وإن انقطعت الأسباب كوني بخير لأجلي أنا فقط..

ما إن قرأت الإهداء حتى ارتمت في حضني وهمهمت:

- حين طلبت منه أن يكتب إهداءً لي لم أقصد أبدًا أن يودعني به، أردت أن يكتبه وأنا في صالة بيتنا نائمة على صدره يداعب ملامحي بيديه والأخرى يكتب بها ثم يقبّلني على جبيني كما كان يفعل دائمًا، حين أردت أن يكتب لي إهداءً أردت أن يكون إهداء وأنا زوجته حبيبته وفتاته ودلوعته كما كان يناديني دائمًا، حين أردت هذا لم أكن أريد إهداءً وداعيًا، بل إهداء حيث لن نفترق أبدًا، الآن كتب الإهداء الذي أردته منه، كتب ما تمنيته وأردت، وكما أخبرني أنني فتاة تستحق أن يُكتب مئات الروايات عنها معي الإهداء ومعي الكتاب ومعه قلبي وروحي وكياني، أملك كل شيء إلا هو، فما قيمة كل شيء ما دام ليس معي!

لم نكمل الحفل عدنا للمنزل في حالة صمت تام وقبل أن أغدو في نومي أرسلَت لي أسيل رسالة تقول فيها:

- الآن عائلتك تحتاج لمساعدتك، لقد حاولت طوال هذه المدة ألا أضعك في هذا الاختبار، لكن مع الأسف لم تنجح الخطة كما أردت.

- ماذا تقصدين يا أسيل؟

كتبَت:

- أنت الآن في مفترق الطرق إما أن تنقذ عائلتك من الهلاك أو أن تنقذ شخصين في سبيل التضحية بعائلتك.

سألت:

- أنت لا تقصدين القتل، أليس كذلك؟

- هو ما أقصده بالضبط.. ندى وشخص آخر.

- من هو الشخص الآخر؟

- ستعرف كل شيء مع الوقت.

سألتها:

- لماذا أقتلها؟ ما زلت لا أفهم سر قتلي لها..

قالت:

- كنتُ أريد إخفاء الحقيقة لكن الآن حان وقت لتعرفها، لقد أخبرتك عنها بين الأسطر لكنك لم تركز جيدًا فيما أخبرتك به، أبو الدهب هو الصديق المقرب لـ والد مرام الذي تسبب في كل هذا، وندى الوحيدة التي كانت تعرف الحقيقة، لكنها صقمت على الصمت حفاظًا على عائلتها وصديقتها من الضياع، لكن حاولت عائلتك الضغط عليها حتى تعترف بالحقيقة، لكنها لم تبالِ، لم تقدر على التضحية بعائلتها وصديقتها في سبيل إنقاذ عائلتك من الضياع..

صعقتُ مما قرأت، كنت أعرف لكنني كنت طوال هذه المدة أكذب هذه الحقيقة، لأن قلبي لا يريد تصديقها، لأن قلبي لا يريد أن يخضع للواقع والمنطق والحقيقة..

قضيت هذه الليلة في غاية الصعوبة وسوس الشيطان.. في نظر المجتمع والناس أنت قاتل رغم أنك لم تفعل هذا لكنك متهم بالقتل وحبل المشنقة ينتظرك، أنت متّهم على جرم لم تفعله أنا لا أبرر القتل لكن ما دمت متهمًا بالقتل فلن يتغير شيء، على الأقل هذه المرة ستنقذ عائلتك الوحيدة المقهورة التي لم تسترح أبدًا، ألا يحق لهم أن تضحي لأجلهم؟ تضحي من أجل إنقاذهم من الفقر والجوع

وليالي الأسى والحرمان؟ أنت لا تمثل شيء بالنسبة لـ ندى، لا تمثل لها أي شيء، مجرد حارس عابر يحميها، حتى اعترافها لك بالحب مجرد تشبث من قاع وحدتها الأليم، عائلتك تستحق ما هو أكثر من ذلك يا ماجد.

ابتلعت الأفكار رأسي حتى أرسلَت أسيل صورة لأمي وهي في غرفة العناية المركّزة مع أكثر من تقرير يؤكد أن الحالة حرجة مع اسم المستشفى التي فيها، ثم قالت:

- أمك تستحق أن يضحي ابنها لأجلها، تحتاج إلى عملية ستتجاوز المليون جنيه خلال اثني عشرة ساعة وإلا سنودّعها جميعًا، بإمكانك الاتصال بالمستشفى لتتأكد من كلامي، لكنك لن تستطع الذهاب إلى هناك فالمستشفى تمنع الزيارات، غير أن الأمن مكثّف هناك وقد يتعرف على هويتك ومن ثم تنتهي القصة، أظن أن أمك تستحق التضحية، فكر في الأمر فالوقت يمر بسرعة جنونية وحياتها على المحك.

قضيث وقت عصيبًا، وقتًا لم يمر عليّ من قبل، أنا في منتصف كل الأشياء ولا أملك أي قرار إلا التضحية بأي منهم، اتصلث بـ المستشفى لأتأكد من وجود الحالة بالفعل أرسلت أسيل رسالة أخرى:

- الوقت يداهمك.

في الصباح سألتها:

- ماذا سيحدث؟

ردت:

- ستصحبها لـ رحلة في طريق الفيوم، وعندها ستتوقف السيارة عند نقطة تمركز الكيلو 62 ومن ثم ستكتم أنفاسها حتى الموت وبعدها ستلقي بها على الطريق، ومن ثم سأرسل لك وجهتك إلى الشخص الأخير..

- من هذا الشخص؟

- ستعرفه مع الوقت..

- ماذا سيحدث بعد نهاية اليوم؟

- لا تقلق، في نهاية اليوم ستجد نفسك أنت وإخوتك في باخرة إلى اليونان، حيث ستبدأ حياتكم هناك، وبعدما تستعيد أمك عافيتها ستلحق بكم..

تنهدت ثم غدوت في نومي، وفي التاسعة صباحًا استيقظت وأخبرت ندى أنني أريد قضاء رحلة معها على طريق سفر ناحية الفيوم، فوافقت على الفور وانطلقنا بالسيارة..

- هل كل شيء على ما يرام يا صهيب؟

- نعم، كل شيء على ما يرام..

ما زالت ندى تحت تأثير الحفلة والإهداء، قالت وكأنها تحدث نفسها:

- اليوم شاهدت لقاءًا صحفيًا لـ محمود يتحدث في عن كتابه، حين رأيته بكيت، ما زال يواصل ثباته، ينهزم ويتحطم في المساء

ثم يظهر للعالم صباحًا كأن شيئًا لم يكن، مسكين لطالما أخبرني أنه لا يملك أي رفاهية للتوقف أو الانهيار، مسكين عليه أن يحارب كل شيء حوله ولا يشتكي أو يعبّر حتى عن أحزانه..

لم أبالي بكلماتها لكنني قلت:

- محظوظون أولئك الذين تعطي لهم الحياة حق الاختيار والانهيار.

- وأنت لم تختر شيئًا في حياتك؟

قلت:

- لم أختر أي شيء يا ندى، أنا من أولئك المحكوم عليهم بتنفيذ الأوامر، بالخضوع للظروف، بالتعايش مع الأوضاع السيئة ولا يملكون قدرة على تغييرها، أنا من أولئك الذين حُكم عليهم حكم نهائي أبدي لا رجعة فيه.

عاد الصمت مرة أخرى..

وقفنا عند نقطة الكيلو 62.

- لماذا توقفنا هناك؟

قلت:

- تعبت من القيادة..

أخرجت من حقيبتها الغلاية الكهربائية وأعدت لنا القهوة..

- ما هو الشعور الذي لن تنساه أبدًا يا صهيب؟

قلت وانا ابتسم متذكرًا كل ما حدث معي:

- تعرفين يا ندى، إن الله في يديه كل شيء يخص عباده، لكنه قرر أن يعطي للعبد نفسه حق واحد في المغفرة في شعور واحد..

ردت:

- أي شعور؟

قلت:

- الظلم، تخيلي أن هذا الشعور الوحيد الذي لا يتدخل الله فيه مع عباده، أقصد أن هذا الشعور الوحيد الذي لا يسامح الله فيه إلا بعد أن يسامح عباده، أن تتعرض للظلم البيّن الواضح ولا تقدر على أخذ حق أو حتى الاعتراض أنك أخذَ حقك، هذا ظلم بيّن الله لا يسامح فيه أبدًا إلا بعد أن يسامح عباده..

وأنتِ؟

ردت:

- الخذلان، أن تثق في شخص فـ يخذلك، أن تأمن له فـ يخونك، أن تتشبث به فـ يدفعك بعيدًا عنه، أن تراه هو الحياة فـ يخذلك هو والحياة.

لم أجد كلمات مناسبة غير أنني قلت:

- يبدو أن كلانا لا بد أن يشعر بنفس الشعور الذي رفضه طوال حياته.

شغلت ندى أغنية كايروكي واندمجت معها:

"في نهاية كل رواية دايرة بتدور، جوة الرواية رواية مكتوبة بين السطور، عن بطل كان مغمور ومحدش في سائل، حلمه مشافش النور لكنه مات بيحاول، في كلام جوايا متشرحش كان نفسي أقوله بس الوقت مسامحش، كان نفسي أكون معاكي وأدلك على الطريق، في ضهرك أفضل واقف وأكون ليكي صديق، ودي حكمة الأيام أكون في حياتك بس مليش مكان، أشوفك وتشوفيني في الخيال، فراق قبل اللقاء، عيني جات في عينيك مرة ومش هتفتكري، كنت في الدنيا تايه ولازم أجري، أنا لو وقفت أموت بتطاردني الذكريات، عن أقرب ناس ليا اتكتب علينا الفراق، ببعد علشان حبيتك وشوفت فيكي أمل، مفيش في الدنيا ليا يد، ومفيش زمن، الساعة بتلف والشمس تشرق كل يوم، لو النهارده مش يومنا يمكن بكرة يكون"

ضحكت ندى ثم قالت:

- لطالما أرسل لي هذه الأغنية، والآن أفهم معناها، أفهم معناها جيدًا..

أرسلت أسيل رسالة:

- متبقي خمس ساعات فقط..

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أكتم نفَسها، كانت تقاوم تحاول الصراخ، لكنني كنت قد عقدت العزم أن تنتهي قصتها في الحال، كانت تنظر لـ عيناي تتوسل الرحمة، بينما كنت أنظر لـ عيناها وأنا أرى شقاء أمي، وأنا أرى مصير إخوتي، وأنا أرى أنني بالفعل أحببتها، لكن ما باليد حيلة..

انتهت قصتها، انتهى أمرها..

وانطلقت بالسيارة وهي جثة هامدة، كان جسدي يرتجف، ضربات قلبي تتصاعد، لقد قتلت نفسي لم أقتلك يا ندى لقد قتلت نفسي، لكنها أمي يا ندى، قبّلت رأسها، سامحيني يا ندى لكنها أمي وعائلتي، ثم ألقيت بها في الطريق وهربت متجهًا إلى زايد بعدما أرسلَت إلى أسيل أن المهمة انتهت..

انتهت قصتها..

- بعد دقائق سأرسل لك وجهتك الجديد.

ثم أرسلت إلي عنوان 23 شارع الخليفة المأمون مصر الجديدة الدور الخامس، حين تصل للعقار أخبرني بالأمر..

- دكتور كريم!

استيقظت في الحانة، كنت ثملًا حتى إنني لم أستطع النهوض، أيقظني العامل..

- دكتور كريم، دكتور كريم.

- كم ساعة نمت؟

رد:

- أنت هنا منذ مساء الأمس، يعني أكثر من أربع وعشرين ساعة..

فوجئت بـ رسالة من ميرال:

- لن تحتاج لـ قتل محمد إسماعيل، لقد نجحت بالفعل في المهمة

الأولى..

نهضت من مكاني وأنا أقرأ رسالتها:

- كيف حدث ذلك؟

ردت:

- السائق المصاحب لك في الرحلة هو أحد رجالنا، لقد أخطأ وأعطاك حقنة مسمومة بدلًا من أن يعطيك حقنة المهدأ، مع الأسف الحكومة الآن تبحث عنك، لقد ظهرت الفتاة التي تدعى سلمى من جديد، لقد تأكدت من ظنوني، سلمى هو الاسم المزيف، اسمها الحقيقي ليس سلمى، على أي حال لقد اعترفت أن آخر مرة رأته فيها كان معك، الحكومة الآن تفتش عنك في كل مكان، أنت تحتاج لمكان آمن تهرب فيه، هذه شقة أحد أصدقائنا اجلس هناك حتى أستطيع توفير مكان آمن لك.

انطلقت بالسيارة ناحية العنوان المنتظر، لقد قتلت نفسًا بغير حق، قتلت نفسًا لا تعرفني، والآن أصبحت متهمًا بالقتل، أصبحت مطاردًا في قضية لا أعرفها، الأشباح في رأسي تطاردني، لم أجد إلا ريحانة لأتصل بها..

- كريم؟

قلت:

- أرجوكِ لا تصدقي ما يقال، أرجوكِ لم أتعمد قتله، أقسم لك، أرجوكِ لا تظني أني شخص سيئ أقسم لك لم أتعمد قتله..

قالت وهي تنهار:

- أنا أثق، أنا أعرفك، أنا أعرف قلبك، أنت أطهر وأنقى من هذا، أنا أصدق.

قلت:

- ريحانة، ثقي أني لم أقتله، أقسم لك لم أقتله..

- صدقني أنا أصدقك وأعرفك جيدًا، أعرفك أقسم لك.

لم أستطع إكمال المكالمة وأغلقت في وجهها..

كنت في نوبة بكاء هيسترية وانا أسمع الأخبار، اتصل بي كل أصدقائي، لم أستطع إلا أن أغلق هاتفي، وأتجه للعنوان الذي أرسلته لي ميرال، توقّف عقلي عن التفكير، كنت في حالة شلل تام..

ثم؟ وصلت للعقار.

ماجد عبد المنصف

وصلت العنوان، كانت هناك سيارة تقف عند مدخل العمارة فـ اضطررت للبحث عن مكان قريب، ثم أرسلت رسالة لـ أسيل:

- لقد وصلت للعنوان..

كتبت:

- الشخصية الثانية هو الشريك الثاني الذي كان يعلم الحقيقة لكنه أخفاها طمعًا في الأمان والسلطة، لم يكتفِ بـ هذا بل كان سببًا أن تسلك أختك طريق الانحلال، لقد ذهبَت إليه أمك لتتوسل إليه أن

يقول الحقيقة لكن جشع المال غمى عينيه عن الحقيقة، منار أختك لم تستلم هي الوحيدة التي ظلّت تفتش عن الحقيقة حتى امتلكت الدلائل التي تثبت وقع تعرضك للظلم.

أرسلت أسيل بعض مقاطع الفيديو التي توثّق محاولات منار لـ الظهور في الإعلام والحديث عن القضية، لكنها تعرضت للاختطاف ومعها اغتُصِبت وصوّروها وهدّدوها حال محاولاتها الإفصاح عن هذه الدلائل، في هذا الوقت انتشر خبر أن منار فتاة ليل فـ انقلبت عائلتك عليها وأصبحت منبوذة، لكنها واصلت ثباتها للدفاع عنك..

واصلت أسيل إرسال المقاطع التي تثبت صحة كلماتها، مشاهد لم أتخيل أن أراها في حياتي

ثم كتبَت:

- كان بإمكان منار أن تصمت وتنتهي مدة سجنك على خير، لكن إصراها على ظهور الحق، إصرارها على العند، ورّطك وورطتك معها في كل هذه الأحداث.

كنت أقرأ مصدومًا لا أستوعب ما حدث

واصلت أسيل:

- لقد استطاعت عائلة مرام أن تجنّد شخصًا لصالحها، ولقد قتل الشاهد الثاني في القضية، الوحيد الذي كان يساعدها في كل هذا، دكتور جامعي يدعى محمد إسماعيل، لقد قُتِل ليلة الأمس من طبيبه الشخصي، واختفى القاتل وأغلب الظن أن مهمته الأخيرة ستنتهي فور الانتقام من منار أختك، الآن أصعد للدور الخامس شقة رقم

55 واحمي أختك فـلربما يستطيع القاتل العثور عليها في أي وقت، بالمناسبة أحد رجالنا رأى كريم في إحدى الحانات مخمورًا وأنطلق بسيارته، ناحية مصر الجديدة، ربما هو في الطريق إليها وربما قد وصل بالفعل..

دكتور كريم

من الحانة إلى العنوان المرجو، أرسلث إلى ميرال:

- لقد وصلت.

فـ كتبت:

- سلمى هي فتاة كاذبة، بالمناسبة اسمها منار هي من المعارضة الفقيرة التي باعت مبادئها وأفكارها من أجل المال، لقد توارت بينكم بعدما انفضح أمر تورطها في أجندات أجنبية، منار أو سلمى كما ادّعت على نفسها، استغلت حماس محمد إسماعيل من أجل إلقاء كل هذه التهم على عائلتي، ما حدث مع محمد إسماعيل وفيما يخص أمر زوجته كانت عائلتي بعيدة كل البعد عنه، لكن هو جشع المال ذاك الذي جعلها تلقي بكل هذه التهم على عائلتنا، أنا لا أقول إن أبي رجل صالح، لكنه ليس فاسدًا لهذا الحد، الآن سلمى تورّطك أكثر وأكثر في هذه القضية، وقد اتّهمتك بالفعل، النجسة لم تنتظر حتى حرمة الدماء، وسرعان ما اتهمتك أنت في كل هذا.

- لماذا طلبتِ مني قتل محمد إسماعيل؟

- لأنه رجل طيب لكنه غبي، ورّط نفسه وضحى بعائلته، لقد أثبتت عائلتي له مرات ومرات أنها ليست مسؤولة عما يحدث وأن قضايا

الفساد المزعومة، ما هي إلا لـ انتقامات سياسية مختلفة، لكنه لم يصدق هذا.

- لماذا كذبتِ عليّ ولم تخبريني الحقيقة؟

قالت:

- لأنني كنت خائفة أن تبتعد عني مرة أخرى..

ثم أرسلَت:

- أظن أن منار تستعد للقاء صحفي تكشف وتتهمك فيه بالتورط في القضية، هي في الدور الخامس شقة 55، أنقذ نفسك لا تدعها تورّطك بشيء لم ترتكبه.

المشهد الأخير..

صعد كريم متوترًا حاملًا متوجسًا بأفكاره، طرق الباب، مرة اثنتين، ثلاثة، فتحت منار الباب وقد كانت تستعد للخروج..

بنظرات يغلبها الشر:

- إلى أين؟

ما إن رأته حتى انقضت عليه:

- يا وغد أنا لم أسترح لك من بداية معرفتي بك، لقد قتلته لقد قتلته يا سفاح، قسمًا بالله لن أصمت، قسمًا بالله سأفضح أمرك.

قال وهو يقترب منها بغضب شديد:

- لم أقتله، أقسم لك لم أقتله.

ردت منار غاضبة وهي تحاول الخروج:

- أفسح عن وجهي سأفضحك، سأفضحك وأفضح مرام وأختها، سيتم إعدامكم جميعًا.

هنا أنقض كريم عليها ثم ألقى بها على الأرض وبدأ في لكمها:

- لم أقتله لم أقتله.

اشتد الخلاف بينهما، بدأت حالة الهياج والصراخ..

هربت منار من تحت يد كريم ناحية المطبخ..

أغلقت باب المطبخ وواصلت الصراخ..

لم يسمع أحد بهما..

فجأة ظهر ماجد وانقضّ على كريم..

تبادلا الضرب والشتائم..

اشتدت حمية الشجار بينهما..

خرجت منار من المطبخ..

وهي لا تعرف سر هذا القتال، لكنها أيضًا كانت في حالة ثورة..

تبادل الاثنان الزحف واللكمات..

أمسكت منار سكين ثم ضربت أحدهما..

هنا حل صمت يشبه صمت المقابر!

تأملت ملامحه!

هذا ماجد أخي؟ هذا ماجد أخي؟

صحيح..

هذا ماجد أخي؟

متى خرج كيف جاء إلى هنا؟

ماجد!

ماجد!

ظلت تنادي ودماءه تفرش الأرض..

لم يستوعب عقلها الصدمة..

- لقد جعلتني أقتل أخي!

لقد جعلتني أقتل أخي الذي طوال هذه السنوات أحارب لأجله!

لم يتحمل عقل منار ما حدث..

لم تشعر بنفسها إلا وهي تزرع السكين في قلب كريم أيضًا!

وهي تصرخ وتضحك وتبكي..

تصرخ وتضحك وتبكي..

تصرخ وتضحك وتبكي..

أمام الجثتين لدقائق وهي تضحك..

أخيرًا اجتمع الجيران..

ما إن رأوا الجثتين حتى انقضوا عليها..

هربت ناحية الشرفة وهي تضحك..

- لم تستطيعوا اللحاق بي..

لم تستطيعوا اللحاق بي..

ثم ألقت بنفسها من الشرفة..

لتسقط على الأرض..

جثة هامدة!

" مانشيستر" المدينة التي لا تشرق فيها الشمس..

تحرّكت الفتاة وسط أجواء شتوية، الثلج يغطي شوارع المدينة، المارة على عجلة من أمرهم، بينما كانت الفتاة ذات الخامسة والعشرين، ترتدي معطفها الأسود الثقيل، وتمشي بخطوات بطيئة ثابتة، ظلّت تتحرك، حتى دخلت المدافن وقفت أمام قبر أختها التوأم، التي غادرتها قبل أعوام، ثم قالت:

- كان لا بد أن يضحي أحد من أجل الحفاظ على عائلتنا، وأنتِ من ضحيتِ من أجلنا، لكنني لم أنسَ أبدًا أن أسترد حقك، والآن يمكنني أن أقول لك إنني نجحت فيما أردت يا حبيبتي.

تنهدت ثم واصلت:

- لطالما كانت تتباهى عائلتنا بنا، لطالما كان يسعدني حين أسمعهم يقولون "ميرال ومرام" لن تقدر الدنيا عليهما مهما حدث، ولطالما عاهدت نفسي أن أحافظ على هذه النظرة التي ينظرون لنا بها..

أختي العزيزة، الآن أنتِ في سلام لقد استرددتُ حقك في أمان وسلام..

وللحديث بقية..

أختك العزيزة

ميرا.

بعد ثلاثة أعوام..

جلس محمود طلال وهو يقرأ المراجعة النهائية قبل أن يرسل روايته لدار النشر، لقد تذكّر كل شيء لكن لم يعد للحنين مكان في قلبه، بل كان الحزن؛ لأن كل ما عرفه في الكواليس كان مرعبًا، لأنه شهد على كل شيء من بعيد، لأنه كان بطلًا في القصة وكان يعلم كل شيء لكنه لم يكن قادرًا على إنهاء الأمور كما أراد وعرف..

ظل يقرأها بصوت عالٍ لزوجته التي كانت نائمة على صدره..

تنهد بعدما ختم القراءة..

قالت زوجته:

- كانت رواية مرهقة، أحسد نفسي على تحمّل كم هذه المشاعر، خصوصًا تلك التي عاشها البطل الذي يشبه اسمك، تخيّل أنني أغار على اسمك أن يرتبط باسم فتاة أخرى، حتى لو كان هذا في الماضي.

قبّل يديها ثم قال:

- أنا في كل أبطال الرواية، أنا بادئها وأنا خاتمها..

ردت:

- في النهاية أنا أملك كاتب الرواية نفسه..

فـ قال وهو يقبّل جبينها ويداعب خصلات شعرها:

- وأنا أملك العالم كله في وجودك يا صغيرتي.

ثم استمعوا لـ ختام حفل أم كلثوم وهما يتشاجران شجار المحبين وقت الغيرة..

سيداتي سادتي، نصل الآن إلى لحظة الوداع من هذه الليلة التي ستظل محفورة في قلوبنا جميعًا.. ليلة جمعتنا تحت سماء الطرب الأصيل مع صوت كوكب الشرق، السيدة أم كلثوم، ذلك الصوت الذي يحمل في طياته دفء اللقاء ومرارة الفراق، ويحكي عن الحب الذي نعيشه، والأحلام التي نطاردها، والذكريات التي تلاحقنا..

كم هي قصيرة تلك الساعات حين يعانق النغم أرواحنا، وكم هو مؤلم أن نودّع هذا الشعور الذي يأخذنا بعيدًا عن هموم الدنيا وأحزانها، في صوت أم كلثوم وجدنا الحنين، وفي كلماتها سافرنا إلى عوالم من الشوق والرجاء، وفي ألحانها تلامست قلوبنا مع معاني العشق والفراق..

ها نحن نودعكم اليوم، لكننا نعلم أن هذا الفراق ليس نهاية، بل هو وعد بلقاء جديد، حيث يعيد الطرب جمعنا، وحيث تعود أم كلثوم لتملأ ليلنا بالشجن والجمال..

إلى أن نلتقي مجددًا، اتركوا قلوبكم تحفظ هذا النغم، واجعلوا أرواحكم تنتظر تلك اللحظة التي يعود فيها صوتها ليبعث الحياة في كل شيء من حولنا، نودعكم على أمل اللقاء، وداعًا أيها الأحبة، وداعًا يا ليل الطرب الذي لن ننساه..

النهاية..

وللحديث بقية.